

الإمام عبدالحاميد محمود

أَسْنَدُ السَّائِرِينَ

الحارث بن أسد المحاسبی



دارالمعارف

تكملة

رسالة

مقالة

يتسم التاريخ - سياسياً كان أو فكرياً - بفترات تبدو فيها الحيوية الجارفة، وهذه الحيوية تتركز في شخص أو أشخاص نابغين يلقون بأنفسهم في مجرى الحياة الهادئ الوديع، فتضطرب الحياة وتوج، ويعلو موجهها وينخفض، وتصطرع القوتان - قوة الشعب الذي يتبع التقاليد، وقوة المصلحين النابغين - فترة تطول أو تقصر، ثم تنحسر الأمواج وتهدأ الأمور، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً، وإذا بالقيم قد تغيرت، في قليل أو في كثير.

ومهما يكن من شيء، فإن عظماء الرجال - على أي وضع قضوا نحيبهم - لا يتركون هذا العالم إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحي أبد الدهر. وقد ينشأ النابغة، فيجد نفسه في ميدان المعركة، مختاراً أو مضطراً، وتشرع نحوه الأسنة، وتنتجه إليه السيوف المهنددة، فيدافع وهاجم، ويغلب أو يُغلب، ويترك، على كل حال أثراً.

ونشأ المحاسبي، وفي العالم الإسلامي قوتان هائلتان تصطرعان:

١ - أهل السنة، وعملهم الإمام أحمد بن حنبل.

٢ - المعتزلة، ولهم ممثلوهم في البصرة والكوفة وبغداد.

وهذا الصراع بين المعتزلة وأهل السنة، صراع طبيعي، لا يخلو من مثله دين من الأديان.

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين.

إنه النزاع الأبدي بين الذين يقولون: إن الدين نص تفسره أسباب النزول واللغة والرواية، والذين يقولون إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه.

ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث في هذه الخصومة:

فالإنسان إما نصي، وإما عقلي، ولا يحتمل الأمر حلًا ثالثًا.

ونشأ المحاسبي ليعلم هذا الحل الثالث.

لقد هاجم المعتزلة هجومًا عنيفًا، وألف كتابًا خاصًا كان من بين أهدافه الرد عليهم، سماه «فهم القرآن».

لقد رأى في نزعتهم العقلية طغيانًا لا يتناسب ومقام العبودية، ورأى أن نزعتهم تحكم العقل في القرآن وتجعله يسيطر على النص، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر: هو العقل لا الكتب المقدسة.

وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة، تتمثل في دفاعهم المجيد عنه، ورد هجمات أعدائه، وتأييده منطقيًا وعقليًا، فإنه مما لا شك فيه: أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم: «ما وراء الطبيعة» فيفسر لنا غامضه، ويوضح لنا من أمره ما انهم.

لا بد إذن أن يخضع العقل للنص.

ومذهب المعتزلة إذن، لا يسير في عالم: «ما وراء الطبيعة» على النهج الصواب.

هناك إذن: إفراط وتفريط.

والعبودية الحق - فيما يرى المحاسبي - هي المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحق.

•
ودخل المحاسبي المعركة، وسلاحه فيها: عبودية حقة، وإخلاص لآحد
له، وتقوى تغمر كل الجوارح، ومن قبل ذلك ومن بعده: دراسة مستفيضة
للدین: وسائله وغاياته، جزئياته وكلياته.

التقوى والعلم إذن كانا سلاحه في المعركة.
واحتدم النزاع، وكان لابد من أن يحتدم، وتار الفقهاء على المحاسبي،
وكان لابد أن يثوروا، فقد كان المحاسبي ينهج في درسه نهجاً آخر غير
الطريق العادي التقليدي:

كان يتحدث في الإخلاص، وفي الورع، وفي الزهد، وفي الخشوع
الخالص لله.

وكان يتحدث في هيبة الله، وجلاله وعظمته.
وكان يتحدث في محبة الله، والأنس به، والقرب منه.
وكان حديثه عذبا، طلقا، ساميا، فكانت تخشع له الأفتدة، وتلين له
القلوب، وتسيل له الدموع، ويتذكر الناس ما لله من فضل، فترق قلوبهم،
ويتعاهدون على الاستقامة.

وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة
الإسلامية المترامية الأطراف، وكلما أخذت شهرته في الازدياد، كلما كثر
خصومه وشائته!!!

ولكنه كان يسير في طريقه ثابت الخطى، لا يعنيه سوى أن يكون الله
راضيا عنه!!!

وتكشفت له الحجب، وزالت عنه المساتير، ووصل إلى المعرفة الحقة،
فأعلن طريقها.

وطريقها ليس حسا يخطى، وليس عقلا يضل، وإنما هو:

بصيرة وضاعة، وروح صافية.

واستمرت الخصومة بين النصيين، ويمثلهم الإمام أحمد، والبصيريين، ويمثلهم الإمام المحاسبى، والعقليين، ويمثلهم المعتزلة. ومن غريب الأمر: أن أية قوة من هذه القوى لم تحرّ صريعة، بل بقيت قوية، واستمرت في كفاح ونضال، حتى يومنا هذا.

تسلسلت فكرة المحاسبى، وتمثلت خير تمثيل في الإمام الغزالى، ثم في بقية الصوفية من بعده، حتى كان العصر الحاضر، فكان يمثلها في أسلوب جديد، وتعبير صادق، المرحوم: «الشيخ عبد الواحد يحى» الذى توفى في بداية النصف الثانى من القرن الحاضر.

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد، فتمثلت في الإمام: «ابن تيمية» الذى وضع لها المنطق، وأرسى لها القواعد والأصول، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر، وكان يمثلها المرحوم: «الشيخ رشيد رضا» تمثيلاً قوياً.

وتسلسلت فكرة المعتزلة، راكدة حيناً، وقوية حيناً آخر، حتى كان جمال الدين الأفغانى، فدفعها دفعاً قوياً إلى عالم الظهور.

وكان «الشيخ محمد عبده» من أهم العوامل في نشرها، ملطفة خفيفة تكاد تخفى، أو تكاد تلبس ثوب السلفية.

وحمل اللواء من بعده، المرحوم: «الشيخ المراغى» والمرحوم: «الشيخ مصطفى عبد الرازق»، وفكرة «الإمام محمد عبده» تتمثل فيها حقيقة، لا في الشيخ رشيد رضا، كما يظن كثير من الناس.

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا، ونعتقد أنها سنستمر، ذلك: أنها تمثل نزعات فطرية في بنى الإنسان: فبعضهم واقعى يتجه إلى النص، ولا يريد، أو لا يمكنه، أن يسير إلى أبعد منه؛ وبعضهم:

يحفظ بشخصيته، قوية جارفة لا تلين، فهو عقل أو اعتزالي،
وبعضهم: رقيق الشعور، مرهف الحس، ملائكي النزعة، فهو بصيري،
أو صوفي.

نزعات ثلاث، تقوم على فطر مختلفة، وهذه الفطر تستمر في بنى
البشر، ما دام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنساني. ومن هنا كان
خطأ هؤلاء الذين يجاربون التصوف، أو الاعتزال، أو النصيين، على أمل أن
يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات.



روى صاحب «طبقات الصوفية» بسنده، عن الحارث بن أسد
المحاسبي بسنده، أن رسول الله ﷺ، قال:

«أنقل ما بوضع في الميزان: حسن الخلق».

ولقد وضع المحاسبي هدفاً له في الحياة يسعى إلى تحقيقه، هو: «حسن
الخلق» لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه، ووضعه هدفاً يعمل على
تحقيقه في مجتمعه.

أما فيما يتعلق بنفسه، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية، على أساس
من القرآن الكريم، والسنة الشريفة، لا يحيد عنه.
وإنه ليمر عن شعاره في ذلك، فيقول هذه الكلمة التي تصفه حالاً
ومقالاً:

«إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجيب داعي الله؟

ومن استغنى بشيء، دون الله، جهل قدر الله».

ولم يجهل المحاسبي قدر الله، فلم يستغن بشيء، دونه سبحانه.

وأما فيما يتعلق بالمجتمع، فإن المحاسبي أخذ في نشر حسن الخلق فيه

بسمته، واتباعه للسنة، وبدروسه التي كانت تفعل الأعاجيب في القلوب، وبكتبه التي تبين حسن الخلق؛ وسائل وغايات، والتي لا يزال لها إلى الآن أربع عطري، بتجدد على مر الزمن، فيهدى الحيارى، وينير الطريق أمام السالكين.

ولكن من هو المحاسبي؟ ومالنا نتعجل، فنتحدث عن المحاسبي في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية؟

إنه الحارث بن أسد، وكنيته: أبو عبد الله.

ولقد نشأ بالبصرة، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها في يقين جازم؛ ثم ذهب إلى بغداد، ويبدو أنه ذهب إليها في سن مبكرة، واستقر به المقام فيها.

متى ولد؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده، إذ أن الكتب القديمة التي تحدثت عنه، لم تذكر ذلك، بيد أن الملاحظات ترشد إلى أنه ولد - على التقريب - في العقد السابع من القرن الثاني الهجري.

أما وفاته: فإن الكتب التي أرخت له تحدد سنة ٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة.

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً، وقد يمكننا أن نقول: «استنتاجاً» إنه قضى طفولته في شيء من اليسر والرخاء، ذلك أن والده حينما توفي ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم.

ويروى المؤرخون أن المحاسبي حينما توفي والده، لم يأخذ من الثروة شيئاً تورعاً، ذلك أن والده كان يقول بالقدر، أي أنه كان قَدَرِيًّا، يدين

بمذهب المعتزلة ويقول المؤرخون لحياة المحاسبي: إنه لم يستسغ أن يشترك في الميراث توسعاً في تطبيق القاعدة الإسلامية التي تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين.

ولكن المحاسبي - فيما يبدو - امتنع عن ذلك لمجرد الورع، والزهد فيما تجره الثروة، وتستتبعه من تفكير فيها، وتدهير لها، وتنمية وحفظ.

هذه الحادثة ترشد إلى أمور:

الأمر الأول هو: أن أسرة المحاسبي كانت أسرة ميسورة.

الأمر الثاني: هو أن والد المحاسبي كان من الذين اشتركوا في الثقافة الدينية والجدل الكلامي وساهم في ذلك بنصيب، وحدد المعسكر الذي يقف جندياً في جيشه.

وما من ريب في أن العامة حينئذ لم يكونوا في صف المعتزلة، وما كان الذي يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختيار، وأن الطريق التقليدي الذي كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة.

والأمر الثالث: الذي ترشد إليه الحادثة: هو ورع المحاسبي الذي حمّله على أن يزهد في الميراث مع حاجته إليه: تورعاً وتقوى.

ونبأ آخر نتبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبي يقول الجنيد: كنت كثيراً أقول للحارث: عزّلتني أنسى.

فيقول: كم تقول عزّلتني أنسى؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني، ما وجدت بهم أنسا، ولو أن نصف الخلق الآخر، نأى عني ما استوحشت لبعدهم.

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبي، والواقع أن

الظروف والأحوال الثقافية التي أحاطت بالمحاسبى، وموقف المحاسبى منها، وحديث تلاميذه عنه - وإن كان نادراً - كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية.

وبما يستأنس به تأييدا للقصة السابقة، وإشارة إلى ما للمحاسبى من شخصية إيجابية قوية، وبيانا عابرا عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه، ما رواه الجنيد أيضا بقوله:

كان الحارث المحاسبى يحى- إلى منزلنا، ليقول: اخرج معى نصحر (نذهب إلى الصحراء) فأقول له:

تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول:

اخرج معى، ولا خوف عليك، فأخرج معى، فكأن الطريق فارغا من كل شىء، لا نرى شيئا نكرهه.

فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى:

سلى: فأقول له: ما عندى سؤال أسأله.

فيقول: سلى عما يقع فى نفسك.

فتتال على السؤالات، فأسأله عنها، فيجيبنى عليها للوقت.

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتابا.

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى: «الطرقات والآفات ورؤية الشهوات»، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتت للفكر، كلا، إنه يجاهد الحياة محاولا السير بها إلى ما يراه حقا وإصلاحا.

أما فيما يتعلق بطريقته في التأليف: فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه، وهي طريقة حية؛ إنه استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأي الصريح فيه، إنها تتصل بالحياة الواقعية. ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق، فإن بعضها كان إسهاماً في الحركة المقاومة لحركة الاعتزل؛ وكان بعضها حلقات في التخطيط الذي رسمه المحاسبي للإصلاح الأخلاقي في المجتمع.

على أننا قد تمحلنا الحوادث مرة أخرى، فتحدثنا عن المحاسبي في اقامة، ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعياً. ولعد إلى المحاسبي أول مقدمه بغداد. كان ذلك فيما يبدو في سن مبكرة نسبياً

وكانت بغداد حينئذ بموج مختلف التيارات الفكرية: ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيدة متعالية.

وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ، وبما لهم من مال وثراء، وبما لديهم من ترف فكري، وبما في نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس - شاعراً أو غير شاعر - في صورة ثقافة تنافس اشقافة الإسلامية البحتة.

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى، تريد أن تجد حلاً للمتعرض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية.

وثقافة إسلامية بحتة، تحاهد في أن تفرض بقيادة المجمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهي.

وجاء المحاسبي بغداد متعلماً ومتثقفاً، أو مستزيداً من العلم والثقافة يبتغي السير على السنن المستقيم.

وأخذ في الدرس في جد واجتهاد؛ فتشعبت به الطرق، وتجاذبت له لثقافات المختلفة، تحاول كل منها، أن تتأثر به وحدها، ولكل منها مغرياتها، ولكل منها منطقها.

ووقف المحاسبي مسترعياً، متأملاً، متروياً.

هل طال به الوقوف؟

متى خرج من تأمله؟

متى استقر به الاتجاه؟

ذلك ما لا نعلمه، إذا نظرنا إلى الزمن.

بيد أن المحاسبي، وإن لم يكن بالتأريخ لحياته، تأريخاً زمنياً، فإنه ترك له أثراً نفسياً، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية، وعن أسبابها، وعن كيفية خروجه منها.

وهذا الأثر نعتبره، أساساً لكتاب «المنقذ من الضلال»، راسماً للإمام الغزالي تخطيطه، وموحهاً له إلى كتابته، بل ورأساً له الطريق في حياته الروحية.

ولعل التشابه بين هذا النص الذي نشبهه الآن، وكتاب «المنقذ من الضلال» يجعل بعض الناس يستنتج أن لتشابه هوى بين المحاسبي، والغزالي في حياتهما. ولما في ذلك رأى سيذكره فيما بعد إن شاء الله.

ولأهمية هذا النص بالنسبة للمحاسبي ولعصره، وبالنسبة لصلته بالمنقذ من الضلال صلة وثيقة، نشبهه بأكمله، وإن كان فيه بعض لطول، وقد كتبه المحاسبي مقدمه لكتابه «الوصايا» الذي طبع أخيراً بالقاهرة، بهول المحاسبي - في مفتتح كتابه الوصايا - بعد مقدمة موجزة.

«أما بعد. فقد انتهى إلينا، أن هذه الأمد تفرق عني بضع وسبعين فرقة، منها: فرقة ناجية، والله أعلم بسائرهما.

فلم أزل، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة، وأتسلسل المهاج
الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق
الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء،
وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت في مذاهبها وأقاييلها، فعقلت من ذلك
ما قدر لى.

ورأيت اختلافهم بحرّاً عميقاً قد عرق فيه ناس كثير، وسلم منه
عصابة قليلة، ورأيت كل صف منهم يزعم أن النحلة فيمن تبعهم، وأن
هالك من حالهم ثم رأيت أساساً أصنافاً.

فمنهم العالم بأمر الآخرة: لقاءه عسير، ووجوده عزيز
ومنهم الجاهل فالبعد عنه غيمة.

ومنهم المتشبه بالعلماء: مشغوف بدنيا، مؤثر لها

ومهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتزم بعلمه، التعظيم والعلو،
ينال بالدين من عرض الدنيا.

ومنهم متشبه بالنسك، متجر بالخبر، لا غناء عنده، ولا بقاء لعلمه،
ولا معتمد على رأيه

ومنهم حامل علم، لا يعلم تأويل ما حمل.

ومهم منسوب إلى العقل والدعاء، مفقود الورع واسقى.

ومهم موادون: على الهوى يتفقون، وللدنيا يتبادلون، ورياستها
بطلبون.

ومهم شياطين الإنس: عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون،

وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء،

وعن لعرب موتى، بل العرف عندهم منكراً، وأساءة معروف. فتفقدت في

الأصناف نفسى، وضفت بذلك درجاً

فقصدت إلى هدى المهتدين، بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النظر، فتبين لي في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه، وإجماع الأمة أن اتباع الهوى يعنى عن الرشده، ويصل عن الحق، ويظيل المكث في العمى!!!

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتاداً لطلب الفرقة الناجية، حذراً من الأهواء المردية والفرقة الهالكة، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسي.

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله للمرل، أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه، واورع في حلاله وحرامه وجميع حدوده، والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسي برسوله ﷺ، فطبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعاً واحتلافاً ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن: عند العلماء بالله وأمره، وأن الفقهاء عن الله، العاملين برصونه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله ﷺ؛ المؤثرين لآخرة على الدني، أولئك متمسكون بأمر الله وسنن المرسلين...

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المحتمع عليهم والموصوفين بقفا آثارهم، وأقتبس من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم مندرساً، كما قال رسول الله ﷺ:

«بدأ الإسلام عربياً، وسيمود عربياً، كما بدأ فطوبى للفرقاء»^(١).
وهم: اسفردون بديهم.

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأنقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئني

(١) رواد مسلم وابن ماجه والترمذى والطبراني.

على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة، فابكمت في طلب عالم، لم أحد
لى من معرفته بدءاً، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن^(١) فى النصيح.
فقيض لى الرؤوف بعباده، فوفاً وجدت فيهم دلائل الثقوى، وأعلام
الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا.

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، ووجدتهم
مجتبئين على نصيح الأمة، لا يرحون أحداً فى معصيته، ولا يقسطون أحداً
من رحمته

يرصون أبداً بالصبر على البأساء والضراء؛ والرصا بالفضاء، والشكر
على النعماء.

يحبون الله تعالى إلى العباد، بذكرهم أيا ديه وإحسانه، ويحثون العباد
على الإنابة إلى الله تعالى.

علماء بعظمة الله تعالى، وعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسنته، فقهاء فى
دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين التعمق
والإغلاء، مبغضين لجدال والمرء، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى،
محافين لأهوائهم، مالكين لجوارحهم، ورعين فى مطاعهم وملايسهم، وجميع
أحوالهم، مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، محترئين بالبلغة من الأقوات،
متقللين من المباح، زاهدين فى الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من
المعاد، مشغولين بشأهم، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكل امرئ
منهم شأن يغنيه.

علماء بأمر الآخرة، وأهويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب،
ذلك أورثهم الحزن الدائم، ولهم المصى، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها.

(١) لم أبطىء ولم أتوان

ولقد وصفوا للآداب صفات، وحددوا للورع حدودًا، ضاق لها صدرى،
وعلمت أن آداب الدين، وصدق الورع بحر لا يسجو من لفرق فيه
شبهى، ولا يقوم بحدوده مثلى، فتبين لى فضلهم، واتضح لى نصحتهم،
وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتأسون بالمرسلين، والمصابيح لمن
استضاء بهم، والهادون لمن استرشد بهم، فأصبحت راغبًا فى مذهبهم، مقتبسًا
من فوائدهم، قابلاً لأدائهم، محباً لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئاً، ولا أوتر
عليهم أحدًا.

ففتح الله لى علما افتتح لى برهانه، وأبار لى فضله، ورحوت النحلة لمن
أقر به، أو نتحلته، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن
خاله، ورأيت انتحاله ولعمل بحدوده واحباً على.

فاعتقدته فى سرى رقى، وانطويت عليه بضميرى، وجعته أساس ديبى،
وبنيت عليه أعمالى، ونقبت فيه بأحوالى.

وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به علىّ، وأن يقوينى على
القيام بحدود ما عرفنى به مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك، وأنى لا أدرك
شكره أبداً..

ووجد المحاسبى نفسه حينئذ فى معسكر أهل السنة على وجه لعموم،
وفى تيار الصوفية منهم، على وجه الخصوص.

وم يكن المحاسبى ذا طبيعة سلبية، فكان لابد من أن يدخل المعركة،
ودخل المعركة فى قوة فرية، مسلحاً بالعلم وانتقوى.

ومن أجل ذلك: كان ذا أثر مزدوج.

لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة.

وأثر باعتباره عالماً باحثاً.

أما كتبه . فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتي مصنف، حسب روى السبكي في «طبقات الشافعية»، والمناوي في: «الكواكب الدرية» وهذه الكتب - في أغلبها الأعم - إنما هي في هداية النفوس، وترقيى القلوب، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح: إنها في أغلبها في علم التصوف والسلوك.

بقول التميمي - كما جاء في الكواكب الدرية عن المحاسبى: «هو إمام المسلمين في الفقه، والتصوف، والحديث والكلام» ولقد كتب المحاسبى في هذه العلوم جميعها، بيد أن مسحة الظاهرة، وبرعته الواضحة والكثرة لكثيرة من كتبه، إنما كانت في التصوف والكلام. أما كتبه في الكلام فقد بقي منها أهم كتبه في هذا الموضوع، وهو كتاب «فهم القرآن» حققه ونشره حديثاً الدكتور حسين القوتلى بلبنان. ومنهجه في الكتاب، يفهم من عنوانه، إنه كان يرجع إلى القرآن في الرد ويتخذ منه مرشداً وهادياً

ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدها . هو حملة الإمام أحمد بن حنبل عليها.

يقول الخطيب البغدادي، في كتابه: «تاريخ بغداد» جزء ٨ ص ١١٤. «وكان أحمد بن حنبل، يكره للحارث نظره في الكلام، وتصنيفه الكتب فيه، ويصد الناس عنه».

ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالي في كتابه. «المنقذ من الضلال» ويفصل الرأى فيها، ويحسم المسألة بحل موفى فيقول:

«لقد أكر أحمد بن حنبل، على الحارث المحاسبى رحمه الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة.

فقال الحارث: «الرد على البدعة فرض».

فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولاً، ثم أحببت عنها، فهم يأمن أن يطالع لشبهة من تعلق بفهمه، ولا ينتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟ يقول الإمام القرطبي:

وما ذكره أحمد حق، ولكن في شبهة لم تنتشر، ولم تشتهر، فأما إذا انتشرت وجوب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها، لا بعد الحكمة»
اهـ

ولقد أصاب الإمام التوفيق في رأيه.

وما من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون حاهدين على شر بدعتهم، وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة

ومها يكن من شيء، فقد كان الإمامان: أحمد والمحاسبي متعاصرين، وحدث بينهما اختلاف في الرأي، يتعلق بالكتابة في المسائل الكلامية، وحمل الإمام أحمد على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام، فقلّ تداول الس لها - فيما يبدو - واختفت شيئاً فشيئاً، ولعل بعضها لا يزال موحوداً، ولعل من المحتمل أن يكشف المستقبل عنها كما حدث ذلك بالنسبة لكتاب: «فهم القرآن» على أن رأى المحاسبي في المسائل الكلامية معروف، تحدث عنه الشهرستاني وغيره، ممن كتبوا في المل والنحل، وهو الرأي السلفي، ولم تكن حملة الإمام أحمد عليه، لرأيه وعقيدته، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان، وإنما كان إنكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة التي ينصر بها الدين.

وما من ريب في أن ما قام به الإمام المحاسبي في الرد على المعتزلة وغيرهم، من أهل الانحراف، إنما هو في الوقت نفسه، انتصار للإمام أحمد بن حنبل، وتقوية له، وعون على بلوغه عايته رضي الله عنها

أما كتبه في أدب النفس وتركيتها، وفي الإنابة إلى الله، والرجوع إليه
وفي الرعاية لحقوقه، وفي التصوف على وجه العموم، فقد بقي منها كثير
عرفنا منه جملة صالحة لا تزال مخطوطة، وطبع البعض في أوروبا والقاهرة،
وسوريا. ومن كتبه المخطوطة في دور الكتب:

١ - كتاب المسائل في الزهد.

٢ - فصل من كتاب العظمة:

٣ - كتاب في المراقبة

٤ - أحكام التوبة.

٥ - كتاب العلم

٦ - كتاب الصبر والرضا.

ومن كتبه المطبوعة :

كتاب التوهم:

« أول ما طبع للمحاسبي: « كتاب التوهم » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٧ م
وقد عني الدكتور اح. أربري بتحقيقه وكتب مقدمته الدكتور أحمد أمين،
وفي المقدمة يقول عن الكتاب:

« نحافيه مسحي طريفاً يدس عليه اسمه، فلم يقتصر على ما ورد من
الأخبار في الخوف والرجاء، كما فعل غيره، بل استعمل توهمه ويعباره
أخرى حياله - في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار، وما يلقون من:
سعادة وشقاء، ونعيم وعذاب، وأسلس لخياله القياد، فتخيّل ما تخيل، وصور
ما صور، فهي لوحة جميلة لفنّان أجاد ألوانها، أروية رائعة لكاتب جمل
مظرها، وفصل موافقها، وصقل لغتها، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في
نفوس القارئ، والسامعين، أكبر الأثر وأبلغه ».

رسالة المسترشدين:

«وطبع له في حلب رسالة المسترشدين» حققه وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الفتاح أبو غدة».

وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها لمحاسبي الإرشاد للمسترشدين، الذين يريدون أن يكونوا من ذوي الألباب، العالمين بالله وبأمره... ومهاج ذوي الألباب كما تحدده الرسالة - إنما هو رعايته مصادر الشريعة، من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة، وهذا هو الصراط المستقيم، الذي دعا الله إليه عباده، وقال عز وجل:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكَمُ رِضَاكُمْ بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ:

«عليكم بسقي وستة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»^(٢).

والرسالة إنما هي إرشادات توصح بعض راويها هذا المنهج، فهي تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات والخوف من الله، والصبر والرضا، وغير ذلك من أحوال اللاتذنين إلى الله، السالكين إليه.

(١) آية: ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، وقار الترمذي

حديث حسن صحيح

كتاب الوصايا:

وطبع له في القاهرة أخيراً «كتاب الوصايا» تحقيق وتقديم:
عبد القادر أحمد عطا

والعنوان مكتوب هكذا: «الوصايا: أو الصائح الدبية، والنفحات
القدسية، لمفع جميع البرية».

وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق، وإن كان على صورة أوسع،
وبأسلوب بن الجدة، وهو أقل تعمقاً وجرأة من أسلوب الكتاب لسابق.

كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل:

وكتاب الرعاية، هو أكبر الكتب لتي بين أيدينا من كتب المحاسبي،
مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة، وربما لا يوجد فيها فقد من كتبه
ما هو أكثر منه، ويقع في حوالى أربعمائة وسين صحيفة وهو على كل حال
أهم كتبه في نظر القدماء والمحدثين، حتى لقد عرف به، وإذا لم يذكر أحد
المؤرخين القدماء من كتب المحاسبي إلا كتاباً واحداً؛ فإنه يكون الرعاية،
وهو بالنسبة للمحاسبي، كإحياء علوم الدين بالنسبة للغزالي، وقد حاول
المحاسبي أن يشرح فيه الطريق الذي يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى.
وقد بلغ في تحليل نزعت النفس ونزعات الهوى، حداً لا يجارى، يقول
الأستاذ «مستنيون» عن هذا الكتاب.

إن المحاسبي: سما فيه بالتحليل النفسى، إلى مرتبة، لا يجد لها مثلاً في
الآداب لعالمية إلا نادراً.

وحينما قرأه المرحوم «لشيخ راهد الكوثري»، قال معبراً عن حقيقة
ظاهرة:

لقد كان أثر الإمام المحاسبي على الإمام الغزالي كبيراً، لقد تبنى الإمام الغزالي كتاب الرعاية، في كتابه «الإحياء»

المسائل في أعمال القلوب والجوارح:

وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة، فحققه لأستاذ عبد القادر أحمد عطا، والكتاب بحوث مفصلة في الكلام عن إدخال السرور على المسلم والإسراع بالعمل والجهار به، وطلب الشهرة بالعمل أو لزوم المداراة، والكلام عن الغرور، والحديث عن النوازل، وأعمال القلوب، والمواعظ المصلوبة، والجدال المرذول، والتفويض إلى الله في كل أمور، والحديث عن النفس، وألوان الغفلة التي تعترها وحدود النظر الحائر من الحرام؛ رخته بحديث عن الدور.

وأسلوب الكتاب أسلوب علمي تحليلي، يسرى فيه الحماس، وتبدو روح المحاسبي الميطة المتوثبة.

كتاب أدب النفوس:

وهو كتاب يفهم موضوعه من عنوانه، أنه في أدب النفوس وفيه يشرح المحاسبي الطريق التي يتخذها الإنسان لتهديب نفسه وتركيتها وهو في رسمه لهذه الطريق يتبع السنن الإسلامية.

وإذا كان يرسم لطريق فإنه أيضاً يتحدث عن الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان حتى يكون في مرصاه من الله وفي نعمة منه.

كتاب فهم القرآن.

ولقد كان يظن، إلى عهد قريب، أن كتاب فهم القرآن قد فُقد، وكان لأسف عليه شديداً ثم كان السرور حينما أعلن أن الكتاب موجود وحينما

أخرجه الدكتور القوتلى فى ثوب أنيق معلقاً عليه ومقدمًا له وبشره مع كتاب «مأية لعقل» للمحاسبي أيضًا فى مجلد واحد وجزاه الله خيرًا.

أثر المحاسبي فى الفكر الإسلامى :

إن تأثير المحاسبي فى الأجيال التالية له لا ينكر، إنه من الواضح أن تلميذه الأكبر وإن لم يلتق به - كان الإمام الغزالى.

إن الإمام الغزالى، يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبي، قال ذلك فى كتابه: «المنقذ من الضلال».

ولقد قرأ أيضًا سيرة الحارث لمحاسبي، وتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل

ثم إنه نقل عنه فى كتابه: «الإحياء» أكثرًا من الآراء والنصوص. وفى كتاب: «الإحياء» يقول عنه الإمام الغزالى، دون محفظ ولا استثناء، هذا التقدير الهائل. «المحاسبي خير الأمة فى علم المعاملة». وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه»

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالى، كان له أثر كبير فى كتاب الإحياء، فإن كتاب الإحياء: تضمن تقريبًا كتاب: «الرعاية»، وكلمة الشيخ راهد لكوثرى، رحمه الله، سبق أن ذكرناها إذ يقول.

«لقد نطق الإمام الغزالى، كتاب الرعاية فى كتبه الإحياء» ولكن أثر المحاسبي كان أيضًا كبيرًا قبل الإمام الغزالى، يقول السبكي

عنه .

«عالم لعارفين في رمانه، وأستاذ السائرين، الجامع بين علمي الباطن والظاهر» ويقول الشعرا في عنه:
«إنه: أستاذ أكثر البغداديين».

لقد كان رحمة الله عليه أستاذ أكثر البغداديين، وعالم العارفين في رمانه، وامتد تأثيره إلى الإمام الغزالي، وإلى الصوفية من بعده، واستمر هذا التأثير قرناً تقريباً، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً تقريباً، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري، وكان المناوي صاحب التأليف الكثيرة المشهورة المعروفة كتب عن المحاسبي في كتابه: «لكواكب الدرية» يقول:

المحاسبي البصري: علم لعارفين في رمانه، وأستاذ لسائرين في أوانه، عالم سار بها فصله، وصوفي طار ببله، برع في عدة فنون، وتكلم على الناس فأراهم الجواهر المكون، وأحيا القلوب بوعظه، وشف الأسماع بدر لفظه، تصانيفه مدونة مسطورة، وأقواله مبنية مشهورة، وأحواله مصححة مذكورة، وكان في علم الأصول راسخاً راححاً، وعن الخوض في الفصول حانحاً، وللمخالقين الزائفين قامعاً وناطحاً، وللمريدن مربياً وناصحاً
قال التميمي:

«هو إمام المسلمين في الفقه، والتصوف، والحديث، والكلام».
وقال غيره:

«له المصنفات النافعة الحمة، بحيث تبلغ نحو مائتي مؤلف، وناهيك برعائه، وكتبه في هذه العلوم، أصول لمن صنف فيها».

وقال في الإحياء:

«المحاسبي حير الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين

عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأعوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه».

على أن التقدير الذي نحب أن نعيد تسجيله هنا: هو ما كتبه الأستاذ لويس مسييون عن كتاب: «الرعية، في كتابه مصطلحات التصوف»
«إن المحاسبي، سمافيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العامة إلا نادراً

رحم الله تعالى، الإمام المحاسبي رحمة واسعة، ونفعنا بما بركة لنا من تراث روحى مجيد.

البَابُ الأولُ

المحاسبي

- البيئه التي عاش فيها المحاسبي
- التأثيرات الأجنبية
- الأبحاث الخاصة بالمحاسبي
- منهجه في التفسير

البيئة التي عاش فيها المحاسبي

حياته وشخصيته:

ولد المحاسبي في البصرة بالعراق عام: ١٦٥ للهجرة تقريبا (٧٨١ م)، ولكنه قضى جل حياته في بغداد حيث توفي عام ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) ولعل دراسة البيئة التي عاش فيها المحاسبي وإيضاحها يعيننا على تفهم فكره (أستاذ السائرين).

الإسلام ليس دين العقائد الغامضة:

فآيات القرآن تتحه مباشرة إلى بقلب والروح، ولا تحتاج للحدل في النظريات التجريدية الضاربة في أغوار ما وراء الطبيعة

والأحاديث الشريفة التي تنير سبل المؤمنين لا يمكن أن يدعى أنها تنشئ أو تسهم في إنشاء مذهب مبتا فيزيقى حدلى بتناقض فيه هذا وذاك

ولا عجب، فالإسلام بعيد كل لبعد عن انقلسف العقيم، وجوهره إنما هو إسلام الإنسان وجهه لإرادة الله تعالى التي جاء القرآن وتحدث النبى ﷺ تعبيراً عنها، وإيضاحاً لها.

والمبادئ الإلهية فيها يختص بالعقيدة الإسلامية - تستخلص في يسر من القرآن والحديث.

والآيات القرآنية التالية تجمل جوهرها:

والمسلمون يحشون الله القدير، ويتقون العقاب الذي يزلّه من يعصى أمره.

والقرآن يقص عاقبة هؤلاء الدين خرجوا عن طاعته، ويحذر في العديد من آياته من مخالفة المبادئ الأخلاقية ومن غضب الله.

وتصوير جهنم فيه يبلغ من القوة حدًا لا يستطيع معه المتأمل فيه إلا أن يتحاشى ما يؤدي إلى غضب الخالق أو يخرج على شريعته - كذلك، فإن تصوير نهاية العالم ويوم البعث والشور في القفآن، لا بد وأن يثير القلق في النفوس الميالة إلى الشر من معة أعماله.

يهول أحمد أمين في تقديمه لكتاب التوهم للمحاسبي:

«وكتاب التوهم كتاب طريف في بابه، قد بني على أساس في الدين والتصوف معروف، وهو الخوف والرحاء، أو لرعب والترهيب، وقد نوه بهذا لأساس القرآن الكريم، فقد خوف حتى أرعب، فقال تعالى: ﴿إِنْ يَطْشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(١).

وكان من قبيل الترهيب ما ورد فيه من وصف النار وعذابها وفظائعها.. وفي الصحيحين عن أنس قال:

«حطّب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: لو تعلمون ما أُنعم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، فغطى أصحاب رسول الله وجوههم ولطم خيّن»^(٢).

ولهذا، فمن لسهل أن نعم كيف يبكي المؤمنون خشية عند تلاوهم القرآن، وكيف يكون القرآن التقوى والورع..

(١) آية ١٢ من سورة البروج

(٢) الخيّن: بكاء مع انتشاق الصوت من الأنف.

ولهذا - أيضا - نقدر كيف كان أبو بكر - رضى الله عنه - يود لو أنه خلق طيراً، بينما عمر يود لو أنه خلق عود قش^(١) أما الحسن البصرى فكان يود أن لم يخلق أبداً.

ولكن، ليس هذا كل ما فى القرآن.. فالخوف وحده يذهل الناس من التفكير فى أمر الجماعة الإسلامية، ويصرفهم عن العمل على تحقيق ما يدعو إليه نبي الإسلام، ولذلك فإنه إلى جانب الآيات السابق ذكرها تكثر أيضاً الآيات التى نبث الأمل فى النفوس وتصور الجنة بدع تصوير. بل إن آيات الوعيد فى القرآن، مقرونة فى غالبها بآيات الترغيب. فالله القادر على العقاب هو أيضاً إله الرحمة والمحبة، وإلى جانب المحيم بسرائره الملتهمه تفتح أبواب الجنة، يقول أحمد أمين عن القرآن الكريم:

«وقد أمل حق طمان فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾»^(٢)

وفى الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال:

(من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألهاها إلى مريم، وروح منه والجنة والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل).

والآيات التالية خير بيان لما قدم.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي

(١) المحاسنى: كتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها.

(٢) آية ٥٣ من سورة الرمر

الْوُجُوهَ يَشْسُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا^(١).

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، إِنَّ شَحْرَهُ الرُّقُومَ، طَعَامُ الْأَيْمِ، كَأَلْهَلٍ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلَى الْحَمِيمِ، حَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، فِي جَنَّاتٍ وَوُجُوهٍِ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ، كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينَ، لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْحَمِيمِ، فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

وفي القرآن غير الآيات السابقة الكثير الذي لا يقل عنها وعدًا ووعيدًا.

ولقد اتبع الصوفية - ويخص بالذكر منهم المحاسبي - المنهج القرآني في الدعوة، وسوف نعرض فيما بعد لهذا الموضوع تفصيلاً، ونكتفى هنا بإثبات أن هذا المنهج قد أتى بخير الشار في جذب القلوب إلى الإيمان. كان الناس في فحر الإسلام تنبض صدورهم بالتموى، وخشية الله، وبالأمل في الدنيا والآخرة، ولا يعيرون دقائق لمسائل فلسفية اهتماماً يذكر.

لم يكن يخطر في بالهم، أن يتساءلوا عندما يتأملون في الله تعالى، كيف؟
أو لماذا؟

(١) الكهف آية ٢٩

(٢) آية ٤٠ - ٥٧ من سورة الدخان

كانت عقيدهم البسيطة تتلخص في خشية الله وتفواه، وفي الأمل في رحمته، وإذا ما جرح البعض إلى الخروج عن الطريق لسوى كانت صلاة أبى بكر أو درة عمر كفيه برده إلى الصواب.

هذه البيئة الدينية يرحاها لأشدها، كانت وسوف تبقى أبداً المثل لأعلى للمجتمع الإسلامى، ومن يمارى مسلم فقط في أن خير اليهود وأعمها برأ ونهوى، كانت زمن النبى والخلفاء الأول.

عرضنا ما تقدم لبرر، ما طرأ على لإسلام في أعقاب فجره هذا من تيارات عاصرها المحاسبي، تيارات كانت من الأسباب الأولى لرد الفعل الصوفى الذى اردد تحمسا بزيادة تأثيراتها على الفكر الإسلامى ومجتمع المسلمين.

ولعل هذا يعيننا في إدراك ما أراده المحاسبي، وما عمل من أحله، وهو المفكر الذى حتل مكان صدارة بين الرعيل الأول من صوفية الإسلام.

* * *

كان مولد المحاسبي في مغرب خلافة المهدي، وهو من أوئل الخلفاء العباسيين، وكان قد بلغ من عمر خمس سنوات، عندما تولى الخلافة: هارون الرشيد، وكانت الأمة الإسلامية حينئذ غنية بالمفكرين البارعين، وخاصة في رحاب العاصمة بغداد.

نذكر منهم على سبيل المثال:

مالك: المتوفى سنة ١٢٩ هـ.

وأبو يوسف: المتوفى سنة ١٨٢ هـ.

وابن الحسن: المتوفى سنة ٢٠٤ هـ.

والشافعي: المتوفى سنة ٢٠٤ هـ: في الشريعة.

وتذكر منهم:

العلاف: المتوفى سنة ٢٢٦ هـ.

والنظام: المتوفى سنة ٢٣١ هـ.

والجاحظ: المتوفى سنة ٢٢٥ هـ: في الإلهيات والأدب

وأبو نواس: في الشعر.

والكرخي، والحاي، وذو النون في التصوف.

ولا ننسى عدو المعتزلة للدود الإمام ابن حنبل: المتوفى سنة ٢٤١ هـ.

ومجرد ذكر هذه الأسماء يكفي للدلالة على عمق الحياة الفكرية في هذه
الفترة.

وإننا لندهش عندما نتصفح كتاب المهرست، لكثرة الكتب التي ألفت،
أو ترجمت، سواء أكتا بصدد الطب أم بصدد الفلك، وسواء أكتا بصدد
الدراسات المادية أم الروحية، فإن الدراسات والبحوث تسير في محاسن
بالغ متواصل.

إننا نشير بذلك إلى العوارق بين البيئة الدينية في هذا العصر الذي أخذ
في الدراسة الدقيقة المعقدة، فابعد في حو لعقيدة الإسلامية عن الروح
المهله التي سادت في بيئه فجر الإسلام..



لم يهتم المحاسبى بالعلوم المادية أو العلوم البحتة التي ليس من ورائها
تهذيب أو إصلاح للنفس، ولم تدخل هذه العلوم في مجال تفكيره وتأملاته،
وإنما اشتغل قلبه بكل ما كان من الأمور التي تتعلق بالبيئة الدينية
فماذا كانت عليه تلك البيئة؟ أو على الأصح: ماذا كان في تلك البيئة
من عوامل أثارت نائرة الضمائر الثقبة، وأنبئت هذا القدر الوافي من
المتصوفين؟

لقد كانت بيته بالغه انتعقيد، ودات مفارقات كثيرة
 لم تخل من مدعى الألوهية على غرار «بابك الخراساني»^(١) لدى
 وصلت أصداء الحدل بين أنصاره ومؤيديه حتى بغداد
 ولم تخل من الشيعة المتطرفين الذين يرفعون علياً إلى درجة الإله، ومن
 الشيعة المعتدلين، الذين برغم اعتدالهم - يعتبرونه أرفع درجة من بي
 البشر، وأحق بالخلافة من الخلفاء الثلاثة الأول.
 وكانت تعص بالعرق الدينية إلى حد أحصيت معه بثلاث وسبعين،
 طبيعاً من مؤرخی الملل ولنحس للحديث المعروف.

والذي يهنا على الأخص من كل هذا هو شأن الفريقين الدينيين
 الذين دخلوا في جدل عنيف بالغ العنف، وانقسمت الأمة من ورائها حزبين،
 وانتهى الخلفاء أنفسهم إلى التدخل تأييداً لفريق منها أو للآخر.
 وعلى سبيل المثال. كان الخليفة المأمون نفسه يكتب ويبرهن، ويقدم
 الحجة دفاعاً عن أحد لفريقين، بينما يرمى بأنصار الفريق الآخر في
 غياهب السجون.

هؤلاء كانوا: المعتزلة من ناحية، وأهل الحديث من الناحية الأخرى.
 وقد نسير إلى القول بأن هذا الخلاف يكاد يكون خلافاً طبيعياً كل من
 يجد في نفسه ميلاً إلى الفلسفة والفكر الخاص فهو معتزل.. وكل إنسان
 يحافظ بحترم البصوص ولا يقبل استفكير الخاص فهو من أهل الحديث
 وكانت جماهير الأمة بطبيعة الحال في حاب أهل الحديث
 وبدأ الصراع في بداية عهد الخلفاء لأموين، ولكنه لم يبلغ ذروته إلا في

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٨ - ص ٤٨٣ ط القاهرة ١٣٤٨ هـ

خلال الفترة التي عاشها المحاسبي، عندما دخل في حلبة المعركة ضد المعتزلة العنيد: أحمد بن حنبل.

وتاريخ الفريقين لا يمتنا هنا، وكذلك عرض آرائهما تفصيلاً، فسوف نتناول تلك الآراء في الفصول الخاصة بالنظرية الدينية، ولكننا نريد على الأخص إيضاح التعارض، بين هذه البيئة التي عاش فيها المحاسبي، وبين بيئة عصر الإسلام الأول.

ولقد رأينا كيف بلغت تقوى الله وبساطة لعقيدة أرفع الدرجات لدى المسلمين الأول، وكيف وصلت لروح الدينية إلى القمة في بيئتهم ولا غرو أن كانت تلك البيئة غاية رجاء لضمائر المتدينة. على العكس من ذلك - في عصر المحاسبي - اندفع المعتزلة إلى النظريات المجردة في الإلهيات، وأرادوا - فيما رعموا - تصحيح مفهوم الإله، وفي رأيهم أن المفهوم الديني لدى الجمهور مفهوم فاسد يجب تصحيحه، وراحوا يعملون في سبيل هذا الرأي واستخدموا المنطق، وكانوا أهل منطق يوناني مجيد، وتحمسوا لفكرة التطهير، فلم يتورعوا عن إثبات النتائج العجيبة لمنطقهم هذا، وادعوا أنها غاية لفكر الرفيع، وإن بدت لجاهل الأمة ولأهل الحديث، وللمتصوفين، تناقضات وبدعاً وكفرًا كانت بعض هذه النتائج تقول.

«إن خالقهم الله قد انتهت إلى حد لا يقدر أن يخلق شيئاً آخر». وكانت تقول.

«إن العبد قادر على أشياء لا يقدر الله عليها».

وتقول: «يجب على الله أن يعمل لعبده ما هو خير له»^(١).

(١) اعتقادات فرق المسلمين لعمر بن عبد الرزاق ط القاهرة سنة ١٩٣٨

ولقول يمثل ذلك - والقاتلون به من قادة الفكر - كان أمراً لا يقبله صير ديني مشيع بخشية الله وتقواه، خاصة وأن الأمر لم يقتصر على تلك المقولات:

فالإله في تصوير المعتزلة ليس له من صفات، إنه لا يمكن أن يرى، ولا يمكن أن يلمس... وهو ليس إلى أعلى، وليس إلى أدنى، وليس في اليمين ولا في اليسار، وليس له يد أو عين.

ولقد صاح رجل من الناس عند سماعه لهذه النظريات على لسان أحد المعتزلة:

«لعل هؤلاء أن يزعموا بعد ذلك أن لا إله في السماء».

وهذا الرجل - ولا شك - كان يعبر عن مكنون رأى جماهير لأمة، وبعدها انتهت المعتزلة في هذا شأن إلى تطهير مفهوم الله بزعمهم اندفعوا بحماسهم إلى مجال آخر، إلى أصحاب السبي عليه السلام، هؤلاء الذين قال عنهم:

«أصحابي كالتجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

هؤلاء الصفوة الذين يولاهم لجميع أرفع مقامات الاحترام، والذين تروى في مناقبهم أحاديث لا تحصى ولا تعد، سواء منها الصحيح أو لمؤلف عن طبيب قصد.

فماذا فعل بهم المعتزلة؟

لقد اندفعوا في الهجوم عليهم، وانتقاد أعمالهم، والتهجم على سيرتهم. وكان هذا العمل - في حد ذاته - غاية في الإثارة، فما باله وهو طرف من أطراف عديدة في نسيج أعم وأشمل.

وكان أيضاً - في حد ذاته - كافياً لإثارة إسماعيل بلع من رقة الإحساس ما بلغه المحاسبي الذي كان يخشى الله ويتقبه ويحبه، والذي كان يقول عن

أصحاب النبي ﷺ. إنهم سرح الأرض ومصايبها، ورهرة الدنيا وريسها، المقدمون بالفصل على خواص لأمم السالفة، والساكنون عدداً بالطاعة في الآخرة حنف لأنبياء عليهم السلام، وثمة الحق، وحمدة العلم، ومعاد الحكمة، وماهل التقوى، والقوام بأركان الدين وشرائعه، لذين بين الله عز وجل فضلهم بباطل الحكمة على لسان نبيه ﷺ، فقال عز وجل:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَنْزِلِ السُّجُودِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خَشْيَتُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (٣).

فمدح أصحاب رسول الله ﷺ، في مواضع كثيرة من كتابه، وهم أفضل أهل الأرض بعد الأنبياء عليهم السلام، وأعمالهم أفضل لأعمال وأشرفها، ومقاماتهم أرفع المقامات وأعلاها، ولذلك قال النبي ﷺ:

«لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه».

وقال النبي ﷺ:

«خير أمتي أولها»..

وقال ﷺ:

«خير الناس قرني، ثم الذين يلوهم، ثم الذين يلوهم»

(١) آية ٢٩ من سورة الفتح

(٢) آية ٦٤ من سورة الأنفال

(٣) آية ١٨ من سورة الفتح

وقال ﷺ:

«إن الله اختار أصحابي على جميع الأمم».

وقال ﷺ:

«خير الناس القرن الذين بعثت فيهم»..

وهذا يكثر في السنة عن رسول الله ﷺ.

وهذا ما كن يذكره المحاسبي عن الصحابة مضيئاً إليه أن الأحاديث في شأنهم كثيرة. وكان يشهد لأحدهم - وهو أبو بكر - بأنه: أدى الأمانة التي حملها بمثل ما أدى الأنبياء أماناتهم..

وفي جانب الآخر كان أهل الحديث أهل اتباع محافظون، يسرون على نهج التفسير الذي يكاد يكون حرفياً للنصوص - ولا يستطيعون - وذلك في رأي الصوفية على الأقل - النفاذ إلى الروح العميقة للكلمة الإلهية ولحديث لنبي، فلا يرون منها سوى الثوب الخارجي، رغم حماسهم لبالع وصلابتهم.

كن هناك - إذن - في جانب فريق يزع إلى الفلسفة، بل يعال في التفلسف، وفي الجانب الآخر فريق النصيين

وعلى الفريقين ثارت المضامير الدينية الرفيعة، ومنها نشأ كل هؤلاء الصوفية في ذلك العصر. وكان المحاسبي من الأممهم.

ولسوف نجد في بيئة لاجتماعيه والبيئة الدينية اللتين عاش فيها محاسبي سبباً آخر لاردهار التصوف، ولكن عينا قبل ذلك أن نزيل شيئاً من اللبس الذي قد يمشأ من حديثنا السابق ذلك أننا جعلنا لصوفية في موقف الاستقلال تجاه أهل الحديث.

وهناك بعض العلماء يقرب بين الاتجاهين ولواقع أن لصوفية أقرب،

في كثير، إلى أهل الحديث منهم إلى المعتزلة، وإنما لوجد بين صفوف الصوفية بعض المحدثين، وتفرقتا، إذ إما هي بين لصوفية والمحدثين الشكليين أو من يسمون بالحشويين.. ذلك أن ميولها كانت معارضة متلبها يتعارض أهل الشكل وأهل الروح، ومثلها يتعارض المتشددون وأهل الرفق واللين. والصوفية - على النقيض من أهل الحديث الشكليين - يستطيعون بما أوتوا من إدراك عميق لأسرار القلوب أن يتفهموها، وينفذوا إلى عللها ويجدوا لها المعاذير وكلمة الحلاج عند قتله معروفة ولا زالت حير البرهان على ذلك: «اغفر لهم» -.

وبالإضافة إلى ذلك فإن أهل الحديث الحشويين كانوا أعداء الصوفية عبر التاريخ.. يقول الأستاذ ماسينيون متحدثاً عن المحاسبي: «ومنذ عام ٢٣٢هـ - ٨٤٦م اضطر إلى التوقف عن اشتد رس بسبب رد الفعل العنيف الذي كان يحرم كل اتصال بعلم الكلام، ولو جاء الأمر من رجال مثل المحاسبي لم يلجئوا لأساليب المعتزلة في المطلق والجدل إلا ليقاوموهم».

أما السبب الآخر في نشأة الكثير من المتصوفة فهو ما نسميه هنا بـ (الصراع) - الصراع العنيد من أجل السيطرة السياسية والدينية، أو من أجل لقضاء على العقبات التي تحول دون الملذات، تلك التي وجدت تربتها الخصبة مع الفتوحات الجديدة..

أما في المجال السياسي، فقد كان الصراع بين الفرس والعرب يريد فيه كل فريق أن يكون له اليد العليا في أمور الدولة، وخدمت بسببه المؤامرات والدسائس في بلاط الخلفاء..

كذلك كان هناك صراع الشيعة للقضاء على الخلافة القائمة نفسها، وهو صراع صامت خفي ولكنه بالغ النشاط.

وأما في المجال الديني فالأموف أكثر تعقيداً.

كان لمعتزلة يريدون السيطرة، وكان أهل السنة يريدون السيطرة، وكان الخوارج يريدون السيطرة، كما كانت كل العقائد الدينية اتى بدت وكأن الإسلام قضى عليها - تنزير في أثواب جديدة، وتصبو هي الأخرى إلى العودة للحياة

كل ذلك كان يعنى في مرحل المناقشة والحصام والمجدل، وانتهزت مختلف الفرق كل فرصة مواتيها، وحررت لخليفه نفسه إلى التدخل في فتنها، وكان من العسير على الخليفة نفسه أن يفرض رأيه، بل كثيراً ما كان عاجزاً عن ذلك العنف المعارضة وصلابتها

وكانت هناك أيضاً طرقاتاً في الصراع، «الشعبوية»، ونظرياتها تدور حول أفضلية لأحسان أو الشعوب.. من الأفضل ومن الأكفأ العرب أم اللاعرب؟^(١)

في هذا الموضوع كتبت الفصل ودراسات المطولة، واشترك الأدباء والشعراء في الجدل بشجعهم على ذلك الأمراء والفداة..

ولعل المجدل الذي بهم بحثنا أكثر من غيره كان هذا الذي دار بين هؤلاء الذين تعرفوا على رجاء الحياة الجديدة بعد الفتوحات فانغمسوا في ملذاتها، وأغرقوا فيها، وبين أصحاب الزهد والخلق الصلب الذين هبوا لمقاومتهم.

فقد كان هناك شعراء على شيء كبير من المحون - أمثال أبي نواس - يحبون الحياة ملذاتها الدنيوية، وحولهم تلتف حاشية من أناس كرهوا الترمت - فيها رعموا - واشتدوا في الأخلاق، ولكمهم بسبب

(١) أحمد أمين صمى لإسلام ج ١ ص ٤٩ فما بعدها ط القاهرة ١٩٣٣

مراكرهم الاجتماعية لم يستطيعوا الكشف عن حقيقة نفوسهم .
لذلك عاوبوا وأيدوا الشعراء سرًا، وشاركوا من ورائهم في الخلعاء في
المعركة ضد صلاة المتكلمين والفقهاء، ولا أدل من ديوان أبي نواس -
على مجون الشعراء - وعلى حصونة خيلهم فيما يتعلق بالملذات، وكذلك
على تنوع أساليبهم في الهجوم على الفقهاء، فهو يقول مبتدئًا إحدى
قصائده:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوي بالتي كانت هي الداء
وكانت هذه الصراعات الشاملة للسيطرة في المجال لسياسي أو ادبي،
ثم تلك الحرب الضروس بين أهل المادة وأهل الروح سبب في نشأة كثير
من النزعات الصوفية أو في إحيائها.



كان رد الفعل الصوفي في هذه البيئة شيطانيًا غاية في النشاط، وكان
الندوات والخطب والكتب بالإضافة إلى القدوة العملية، وسيده الصوفية إلى
بلوغ الهدف.

ولكن: ما هو هذا الهدف؟..

لقد كان هدفهم أن يعيدوا المسلمين إلى حظيرة الإيمان الصحيح، إن
محمدًا ﷺ هدى الوثنيين وجعل منهم أهل دين، ورفع إلى أسمى الدرجات
قيمهم الأخلاقية، وبعث فيهم الإيمان بمثل التقوى الخالصة، وكان مجتمع
لمسلمين في عهده لمثل الأعلى، ولكن هذا المثل الأعلى شابه الشوائب
من بعده، ووجب إنقاذه وإعادة بهائه إليه بمثل ما كان له في سابق الزمان
وهذا ما أراده أهل التصوف: إعادة المسلمين الناهيين إلى الإيمان، وإلى
أصول دينهم لتقويم..

تلك هي الأمانة التي ابتغوها لأنفسهم، وتلك هي لغية التي جاهد من أجلها المحاسبي.

وقد حضر ابن حنبل نفسه إحدى الندوات التي كان يتحدث فيها هذا الصوفي، حضرها متخفياً، ويروى أنه انفعل لحديثه بالبكاء، واهرت له مشاعره حتى إنه فقد الوعي^(١).

وكان المنهج الذي اتبعه المحاسبي في تأليفه لتحقيق عاينه مهجاً مردوجاً امتثالاً بالقرآن: «الترهيب» و «الترعب»، ومؤلفه «كتاب التوهم» مشبع بذهبه هذا، يصور فيه، في قوة لعقاب الشديد الذي يستظر أهل الشر في هذه الدنيا، ولكنه في مقابل ذلك يبدع في ذكر ما خصص في الجنة من نعم لدخيرين، وهذا المنهج القرآني المخصب أتى أيضاً بشعاره الواهية عند لجوء المحاسبي إليه، فكانت كتبه - على حد تعبير معاصريه «كتب عبرة»^(٢).. ولكنه في مهجه لم يقتصر على الترهيب والترغيب، بل إنه لبيدع في إنشاء أساليب الشفاء والوقاية للنفس الإنسانية في سعيه إلى تطهير القلوب من كل أغماط النفاق والرديئة، من كل ما هو شر لا يرضاه الله - وإلى تحصين المؤمن ضد خبائث النفس وسبلها الملتونة، وإلى الكشف عن منابع الشر، وكيف يتردى فيه الإنسان، وإلى البحث عن الوسيلة لاتقائه إن أمكن، أو للخلاص منه والنجاة..

ولن يسرك العارئ مدى نفاذ بصيرته المباحة، ومدى معرفته بخبيا اسفوس، إلا بالإطلاع على مؤلفيه «كتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها» و «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى»..



(١) تاريخ بغداد، ج ٨ ص ٢١١ - ٢١٨ ط ٠، القاهرة

(٢) ابن الجوزي تليس إبليس ص ١٦٦ ط القاهرة سنة ١٩٢٨

وبعد أن عرضنا فيما سبق للبيئة التي عاش فيها المحاسبي، نود هنا أن تأمل شيئاً في شخصيته وحياته

أما عن حياته الخارجية، فلا يعرف عنها - للأسف - شيئاً كثيراً، وطفولته وشبابه فترتان مجهولتان.

وأما عن الرجل في نضجه شيخاً وكهلاً، فلم تصلنا سوى نوادر قليلة، ولكن شخصيته رغم النقص الظاهر في الوثائق بشأنها، تبرز لنا من خلال هذه النوادر، وتشف من ثياب تعاليمه إن أمعنا فيها النظر، وشخصية الرجل ساطعة مسيطرة فهو صاحب عبقرية خلّاقة، وهو رجل أصول^(١)، وهو إسان صريع بالغ الصراحة، ومخلص عميق الإخلاص ولرو في هذا المقام بعض النوادر التي تتعلق به:

كان الحميد مثال الصوفي التقى المحافظ المتعزز، وكان يميل إلى حياة العزلة بعيداً عن ضوضاء المجتمع، فراده المحاسبي يوماً ودعاه إلى السير معه وبعض الرفاق في الصحراء، فكره الحميد الدعوة خشية الاتصال بالناس والسير معهم، ولكن المحاسبي انطلق به غصباً وقال له: كم نقول لي: أسبي في عزلتك، لو أن نصف الخلق بقربو مني ما وجدت بهم أنسا، ولو أن النصف الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم^(٢).

وكان لمحاسبي شديد الحاجة فاجتاز بالجنيد يوماً وهو جالس على بابه، قال الحميد: قرأيت في وجهه زيادة الضر من الجوع، فقلت له: يا عم، لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا فقال: أو تفعل؟ قلت: نعم، وتسرى بذلك وتبرفي، فدخلت بين يديه ودخل معي، وعمدت إلى بيت عمي، وكان

(١) أهر نعيم لأصفهاني حلية الأولياء، ج ١ ص ٧ ط. القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٨.

(٢) حلية الأولياء ج ١٠ ص ٧ ط. القاهرة

أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا سريماً، فبحث بأنواع كثيرة من الطعام، فوضعته بين يديه، فمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيت يلوكها ولا يرددها، فخرج وما كلمني، فلما كان ابعد بقيته، فقلت: يا عم سررتني ثم نعصت علي، فقال: يا بني أما الفاقة فكانت شديدة، وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذي قدمته إلي، ولكن بيني وبين الله علامة، إذا لم يكن عبد الله مرضياً ارتفع إلى أنفى منه قودة، فلم تقبله نفسي، فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت.

ودعا المحاسبي تلاميذه يوماً إلى بيته، وكان عنده عصفور يصفر أحياناً صغيراً جداً، ودخل أحد التلاميذ، فبعث العصفور بصفيره الحاد، فانزعج التلميذ وصرح، وعندئذ قام المحاسبي وتناول سكيناً، وسار إلى التلميذ يريد ضربه به. وتدخل التلاميذ الآخرون وهددوا من ثائرة أستاذهم^(١).

ولكن على ماذا كان غضب الأستاذ وثورته؟..

لقد ض إذا خاف التلميذ من صغير العصفور أنه ممن يؤمن بمذهب الحلول وأراد يقتله في الحال أن يقضى على الكافر.

الحلول؟..

إنه المذهب الذي لا يمكن السكوت عليه.

إنه المذهب الذي يثير لدى المحاسبي رد فعل هوري بالغ العنف وهذه لنادرة الأخيرة تبين - في حلاء - مدى إحساسه المرفف بكل ما يتعلق بأمور الدين، كما تبرز سرعة تأثيره فيها يسمع أو يشهد - بكل ما من

(١) الهجویری. كشف المحجوب ص ١٨٢ ١٨٣ من ترجمة نيكولسون ط.

بین سنه ١١١١.

شأنه أن يحرح معتقداته الدينية المتأصلة، وكذلك مصارعته دُنياً إلى الرد
العملى الحاسم.

وكان المحاسبى أيضاً صاحب عبقرية نابهة

إنه أول من أنشأ ونظم ما يمكن أن يطلق عليه: «علاج النفس» و
«للاج النفسى للشر»، وإنه لأسناذ فى هذا المجال ومعرفة العميقة
لأسباب وآثار ووسائل علاج الرذائل التى تنتهى إلى ارتكاب الذنوب قد
تدعو إلى الظن بأن المحاسبى فى شبابه صارع مثلها، وعلب عليها.
ولما بلغ ما بلغ فى العمر والنهوى تحدث عنها عن تجربته وإدراك شخصى
للعوامل النفسية كيف تتور وكيف يمكن للإنسان أن يتغلب عليها بعون الله
دون أن يقع فيها

ولكن شيئاً من هذا لم يثبت لدينا، ولو أن الأمر كان هكذا لانهر
أعداؤه هذه الفرصة المواتية للنهجم عليه، ولكنهم لم يفعلوا، ولم يحدوا إلى
النيل منه فى سيرته وأخلاقه سبيلاً.

وإننا لنصطر إلى القول بأن بصيرة المحاسبى النفاذة - فيما يتعلق بخبايا
النفوس البشرية - هى السبب الحقيقى لكل هذه الألعية فى تناول
موضوعاتها..

وكان الحسن البصرى قد لمس فى بعض مؤلفاته محال النفس البشرية،
ولكن ما قاله عنها لا يمكن وصفه بأكثر من أفكار مشتتة لا وحدة أو
اتصال يذكر بينها.

وكما يقول الأستاذ ريتز، وهو على حق:

« إن المحاسبي في الواقع هو منشئ مبادئ التحكم لأخلاقي المنظم في الذات في إطار التنوي الإسلامية^(١) ».

وتنسب أيضا إلى محاسبي صفة أخرى: أنه كان: « حل الأصول » يقول ذلك ابن خلكان^(٢) ويحدد البغدادي بك الأصول بأنها « أصول الديانات »^(٣) ومن المعروف أنه إذا أطلقت كلمة الأصول فإنها تدل على البحث في علم الكلام، بيد أن المحاسبي بسبب علاجه للأصول وبألفه في علم الكلام قد اكتسب عقلية تنظم وتستوعب، وتخرجنا من هوضي التفاصيل المشتتة إلى الأحكام العامة، وهذه الأحكام قد تظهر عرضاً في مناسبة ما عند بعض المفكرين، ولا يكون لها من مغزى خاص، ولكنها لدى محاسبي وفيرة مواتية، وتدلل على عمق وشمول إدراكه للموضوع الذي يتناوله بالبحث، وعلى معرفته اتامة الدقيقة به، وعلى أن النتائج التي يخلص إليها صادرة عن تفكير ناضج متروى بعد ألمي، لذلك أصبح هذه لنتائج من بعده أحكاماً أساسية.

إنها أحكام عبقرية مبتكرة لاتحدها - على حد علمنا - عند أحد سواه ولنضرب بعض الأمثلة تدعيماً وتوضيحاً لما نقول

« لفرض » أمور معلومة في الإسلام. وروحيات المسلم قد حددت في غير ما غموض.

فالفرض ليس فيه من متشابهات أم « الفل » فهو شيء عام وليس

(١). هلموت ويتر: الإسلام جـ ٢١ ص ٣٢.

(٢) ابن خلكان رعيات الأعيان (طبعة بولاق سنة ١٢٢٥ هـ).

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ ٨، ص ٢١١ - ٢١٨.

هناك إجماع تام فيما يتعلق بما كان يقوم به النبي ﷺ نفلاً، أو بمدى حنة المسلمين على هذا.

يبد أن المحاسبى يحسم المسألة بطريقة قاطعة جذرية فيقول .
كل فرض مقرب بنفل، والنفل أنشئ أساساً لكمال الفرض.
وإن إثبات مثل هذا الحكم يقتضى دراسة شاملة للديانة الإسلامية
ومعرفة بها في كل تفاصيلها، تدعو إلى الإعجاب. وقد أثبتته المحاسبى في
قضية طال هبها المجدل حول الخوع^(١) وسوف نعود إليها في لفصل الخاص
بالزهد من هذا الكتاب

وإلى القارئ مثال آخر بشأن تمكير المحاسبى المشبع بإرادة التقنين.
نذر المجدل حول مسألة ما يؤذن للمؤمن بسماعه في غير إثم. فحسم
المحاسبى المجدل إذ رجع بالقضية إلى قضية أخرى أكثر وضوحاً، فقال:
«ما لا يؤذن لك بقوله فلا يؤذن لك يعض بسماعه»

وهكذا، وفي غير ما إسهاب أو إملال، فصى على النميمه والغيبه
وغيرهما من المحرمات صراحة في القول.

وختاماً لحديثنا في هذا الشأن نسوق حكماً أخيراً للمحاسبى، إذ يقول.
«واحمل لنفسك غاية من كل عمل تحب فيه أن تلافى الله»

وكنية «المحاسبى» لم تعلق بالحارت عشواء، بل إنها الكنية التى تشير
في وصوص إلى لطريق الفكرى، لهذا الإنسان المخلص العميق الإخلاص
وإخلاصه في رأينا - من أبرز جوسب شخصيته. ولهذا نتوقف عنده
قليلاً.

(١). امحاسبى. كتاب المسائل في الزهد (مخطوط حار الله) ص ١٥

وكيف لا يكون المحاسبي مخلصاً؟

أحباً في المال وراحاء اندسوى؟ إنما نعلم يقيناً أنه رغم فقره قد رخص ميراثاً لا يستهان به من أبيه لأسباب دينية رآها^(١).

أم حماية لنفسه من الاضطهاد؟

لقد حورب في عنف عنيف ولم يتنازل عن آرائه.

وبعد اضطهد سنوات طوال، وحرم من التدريس في الفترة الأخيرة من حياته.

لا إن المحاسبي كان يخشى الله ولا يعرف لشاق. وأسلوبه في الحديث إلى القلوب أقوى برهان على ما نقول.

ويتحدث المحاسبي في كتبه عن - «الإخلاص» ويؤكد ضرورته للإنسان باعتبار أنه أساس كل خير، وفي رأيه أن لا ثواب عند الله لعمل لم يصدر عن نية خالصة.

أما «الرياء» الذي يعرض له في فصول مطولة من كتابه «لرعاية» فالمحاسبي يرحق منه ويقبحه ويعصم بكل وسيلة، وبكل قواء، على انقضاء عليه في المجتمع، وهو دائم التردد في كتاباته لحديث:

«إنما لأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لذيها يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٢).

وكذلك لحديث:

عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، ذات يوم إذ

(١) اسمعني: كتاب الأنصاب، ص ٢٠٩ (طبعة لندن ١٩١٩)

(٢) رواه البخاري ومسلم

طلع عليهما رجل شديد بياض الثياب: شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على مخذبيه. قال يا محمد: أخبرني عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ:

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.

قال: صدقت.

قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟

قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك

قال: فأخبرني عن الساعة؟

قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرني عن أمارتها؟

قال: أن تند الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان.

قال: ثم اطلق، فليثُ ملياً ثم قال لي:

يا عمر أتدرى من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم

قال: «جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١)

والمحاسبى يعتبر «العصق» وسيلة إلى مرضاة الله. ولندكر هنا بعضاً من أحاديثه الوفيرة في هذا الشأن:

«علامة الرجل الذى أدرك إرادة الله:

أن يبتغى خير من عمه، عمله خير من كلامه، وهو دائم التأمل في الله»^(٢)

«عدم أن الحكيم الذى رشح عهده برعى في لصدق بحاجبة عصب الله»^(٣)

«تحريف الدين من انحراف القلوب»^(٤).

ولا حاجة بنا فيما نطس - إلى تأكيد إخلاص المحاسبى أكثر مما فعلنا، فإخلاصه واضح للعيان، ساطع في كل مؤلفاته وفي كل أعماله.

وقد تغرى بعض الدراسات الصوفية السطحية بالمقارنة والقرن بين المحاسبى والغزالي، والنظر إلى الشئ منها، على أنه تأثير بالأول تأثيراً فائقاً فعلى غرر «كتاب الوصايا» للمحاسبى ألف الغزالي كتابه الرائع. «المنقذ من الضلال».

والواقع أن الغزالي يفدر المحاسبى حق قدره. وقد قرأ كتبه، وهو يستشهد بالكثير من نصوصه في مؤلفه: «إحياء علوم الدين». غير أن

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه.

(٢) المحاسبى: «رسالة المسترشدين» ص ٢٤.

(٣) المحاسبى: «رسالة المسترشدين» ص ٢٤.

(٤) المحاسبى: «رسالة المسترشدين» ص ٢٥.

الغزالي، قرأ ودرس أيضًا مؤلفات متصوفين آخرين أمثال أبي طالب المكي، والجنيد، والشبلي والبسطامي^(١).

والمسائل المتصلة بين المتصوفين كثيرة، وقد تلتقى عبرية لغزالي في طريق البحث والإشياء مع فكر المحاسبي النابه، أما فيما يتعلق بكتابي الوصايا، ولتخذ فميل المفكرين إلى التأريخ لحياتهم الشخصية ميل طبيعي يرتبط بفطرة حب البقاء والرغبة في تحديد النفس.

أما فيما يتعلق بشخصيتها، فالغزالي والمحاسبي مختلفان إنه لا يمكننا تصور الغزالي إلا أشعرياً صوفياً، أو شاعراً عاطفياً، إنه إنسان وديع لطيف رقيق الإحساس، متردد بعض التردد، احتاج إلى ستة أشهر ليحدد قراره الرحيل عن بيئته، وإن رسخ اليقين لديه بوجوب ذلك، ثم لم يرحل إلا حين اضطر إلى الرحيل اضطراراً، وتردد كثيراً في الإفصاح للناس عن نيته الحقيقية في هجرة بغداد حيث كان يقيم، وتعلل بالسفر إلى مكة بينما كان 'غرضه الشام'^(٢).

وعلى العكس من ذلك، كان المحاسبي مثال الثوري، ولقائد المطاع. كان رجل الانفعال المفجئ، ولقرار الحاسم، والروح المسيطرة اقوية المراسي؛ فلما حملته مقاديره إلى التصوف لم يشب أن نفذ فيه إلى مصاف لرعاية الأولى، ومع كل ذلك فإنه لا يمكن إنكار أثر المحاسبي في الغزالي، والغزالي نفسه يعترف بذلك ولا ينكره.

ومهما كان بين الصوفية من اختلاف في كثير من النواحي فإن وجوه التشابه بينهم كثيرة ومن هنا كان بين الغزالي والمحاسبي اختلاف وشابه وهذا طبيعي.

(١) الغزالي: المسند من الضلال، ص ١٢١ ص ١٢٣ (طبعة دمشق سنة ١٩٣٤).

(٢) الغزالي: المسند من الضلال ص ١٢٦ - ص ١٣٠.

التأثيرات الأجنبية

ثبت لدينا بقبيا من قراءة مؤلفات المحاسبي، أنه كان ذا ثقافة عربية إسلامية خالصة، ولا تقل هذه الثقافة في أصالتها العربية الإسلامية، عما كنت عليه ثقافة ابن حنبل مثلاً، وهو الذي يتهم قط - على حد علمنا - بأى تأثيرات أجنبية.

ونذكر بادئ ذي بدء، أن المحاسبي عربي أصيل ثم إنه يبني أحكامه على الدوام على كتاب الله، وأحاديث النبى ﷺ، وكان شعاره: شعار الحسن:

«إن أردت أن تعرف نفسك فاخترها بالقرآن».

كان هد الشعار في قلبه على الدوام، يعلنه ويردده، ويستوحيه وبطيقه كان على معرفة عميقة بالقرآن، يتوهم ويرجع إليه في كل حين يسترشد به ويحتكم إليه، ومع ذلك فقد طر بعض الذين كتبوا عن المحاسبي أنه وقع تحت تأثير بياراب فكرية وأجنبية مسيحية على وجه الخصوص، ويعبر بروكلمان عن ذلك بقوله:

«أول نموذج أدبي معروف لدينا في التصوف من النزعة المسيحية القديمة إلى الزهد، يتشمل في أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي^(١)».

ويستشهد أوتوسنبيس من ناحيته بكتاب لمستشرق نيكولسون:

«تراث الإسلام» فيقول:

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٩٨ (طبعة ١٩٨٨)

«الأستاذ نيكولسون يقدر لكتاب الرعاية، رفته وأفكاره المبكرة، ولكنه يقرر أن المحاسبي في هذا الكتاب يستمد الكثير من المصادر اليهودية والمسيحية في سبيل الهداية^(١)».

وتؤمن الأستاذة: مارحاريث سميث أيضا بذلك^(٢)، كما يؤمن به لدكتور زكي مبارك^(٣)، الذي أثار رأيه اهتمام باعتباره رأى عربى فى عربى، ولكن تبين لنا أن زكى مبارك لم يدرس المحاسبي إلا من خلال بعض النصوص التي وردت في مؤلفات الغرالى.

وبريد هنا أن نفصل القول في هذه القضية التي أثارت حول المحاسبي وهي قضية تتعلق عامة بالتأثيرات الأجنبية في التصوف الإسلامى، وعلماء المستشرقين لم يتفقوا على مصدر هذه التأثيرات الأجنبية، وإن قالوا إنها كانت السبب الرئيسى في نشأة التصوف الإسلامى.

بعضهم يرى غلبه التأثير الفارسى، والبعض الآخر يضع لمسيحية في الصف الأول من المؤثرات، وهناك من يقول بسبق الأثر الهندى وعلى الأخص منه أثر البوذية.

ولا يخفى الأمر من دعاة الزعم بنبوذا الأفلاطونية الجديدة إلى التصوف الإسلامى.

إلى آخر النظريات الكثيرة المعروضة أمامنا في هذا المجال. ولكن ما هي حقيقة الأمر؟ وما هو مصدر التصوف لإسلامى؟ لا نريد هنا مناقشة النظريات المذكورة، فذلك عمل يخرج عن نطاق

(١) أوبوسبيس: إسلاميات ج ٦ ص ٢٨٣ ص ٢٨٦

(٢) مارحاريث سميث «صوفى من أوائل الصوفية في بغداد، ص ٦، ص ٨٢

(٣) زكى مبارك التصوف الإسلامى ج ٢ ص ١٧٧، ص ١٧٩

دراستنا، ولكننا نود أن نذكر في هذا المقام بـ أثبته الأستاذ ماسينيون في قوة ومستنداً إلى البراهين اللغوية، والتاريخية الفاصلة، من أن التصوف الإسلامي نشأ أساساً من التأمل في القرآن^(١)

أما فيما يتعلق بالمحاسبى بالذات فقد تأملنا طويلاً في السبب أو الأسباب التي يمكن أن تكون قد حمت الدين تعرضوا له إلى القول بوقوع تأثير مسيحي عليه.

لم يثبت لدينا أنه عاشر المسيحيين بصفة خاصة، لم يعاشرهم على أي حال أكثر مما عاشرهم رجال من أمثال الإمام بن حبل

ولم يثبت لدينا أنه درس الأناجيل بصفة خاصة، فهو في ذكره لها إنما يورد النصوص التي جاء بها سابقوه من الكتب المسلمين، وعندما يتحدث عن المسيح بطريقة مباشرة، فإما يسند حديثه من لقرآن.

والإمام أحمد بن حبل في مؤلف واحد من مؤلفاته، هو «كتاب الزهد» يجمع من كلمات المسيح أكثر مما اجتمع في كتب المحاسبى كلها

وقد أورد ابن حبل بين دفتري الملف المذكور فصلاً في صفات المسيح، وفصلاً آخر في حكمة المسيح، وثالثاً في زهد المسيح.

ومن الأمور ذات المغزى أن الأحاديث المنسوبة إلى المسيح في الزهد أقل رفعة وقررة من تلك الواردة من مصادر عربية خالصة

والمقارنة في كتب ابن حبل بين الفصول التي تعتمد على أحاديث عربية خالصة وبين تلك التي تعتمد على مصادر مسيحية، درسه تفيد الكثير في هذا المجال.

(١) بوس ماسينيون دراسة في أصول المصطلحات الفنية للتصوف الإسلامي، طبعة باريس سنة ١٩٢٢

وقد رأينا أن السبب في القول بالتأثير المسيحى لدى المحاسبى أسباباً ثلاثة هي:

- ١ - قضية الكسب الحلال.
- ٢ - كلمة: «حكما» التى كثيراً ما يستخدمها المحاسبى.
- ٣ - الأمثال والمواعظ المسيحية كحكاية باذر الحبوب.

أما قضية الكسب الحلال فسوف نتناولها تفصيلاً فيما بعد، ونكتفى الآن بالقول: بأن الصوفى أى كان، وفى أى بيئة وجد، يستنهم على الدوام، فى كل خطأ حبه لله، ويوقن على الدوام بأن كل ما فى هذه الدنيا إلى زوال، وفى إحساس الصوفى المخلص عداوة طبيعیه دائماً بكل ما هو: حاه مادى، أو غنى دىوى.

والصوفى يثور بطبعه على كل ما يرى فيه عقبة مباشرة أو غير مباشرة - تعوقه عن الاتصال بالله.

إنه يكره العوامل التى تهيه عن التأمل فى ذات لعبود، وحياته محب أن تتركس كلها وعلى الدوام للعبدة، والصوفى لا يطلب - أو على لأصح يجب أن لا يطلب لنفسه شيئاً من هذه الدنيا، بل عليه أن يفهر نفسه، ويكبح حماح شهوته ليتحرر من كل طمع فى لدية، فيخلو إلى الله

لذلك يرى أنه من طبع الصوفى بحماية القيم المادية لهذه الحياة الدنيا، وأخصها بالذكر: السعى الخثيث إلى المال وليس هذا فيما نعتقد - بالأمر المقصور على المسيحيين وهو ما يدعون إلى القول بأن القضية المذكورة ليست دليلاً يعتمد عليه أو يؤخذ به

ومسألة «الحكماء» تسم بشىء من لغموض. وقد يرى البعض أن لكلمة معنى لفلاسفه أو المسيحيين، ويتناول الأساد ريتز مثلاً هذه لفصبة

فيقصرها على معنى معين وينفى من معاني الكلمة لكثير^(١)، وإنا لا نرى هذا اِرْأى، والسبب ساطع الوضوح. فالقرآن يحدثنا عن الحكماء، في آيات كثيرة مثل قوله تعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢)

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿... وَادْكُرُوا اللَّهَ عَنِّيكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعَظِّمُ بِهِ، وَتَقُوا اللَّهَ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)

وعبرها.

ومترجمو معاني القرآن الكريم، إلى اللغات الأوربية يقابلون كلمة: «الحكمة» بلفظ عام لا يترجمها على وجه الدقة، وعلى أى حال، فهذه الكلمة لا تعنى ما يقصد بالحكمة الفلسفية سواء منها المفهوم لروقي أو غيره.

وإذا جمعنا آيات القرآن إلى فيها ذكر للحكمة، فسوف يتضح لنا أن المقصود معنى خاص هو: المعرفة الدينية الصادرة عن بعناية الربانية.

(١) هلموث ريتز، مخطوطات الحارث بن أسد المحاسبي ص ٥

(٢) سورة البقرة ٢٦٩

(٣) ١٢٩ من سورة البقرة

(٤) ٢٣١ من سورة البقرة

ولقد أدرك المفسرون ذلك، وصرح به بعضهم؛ وهذا في رأينا هو المعنى الحقيقي للحكمة في القرآن

ولكن ماذا كان يقصد المحاسبى منها، وهو القائل عن القرآن: «.. أنه يحوى تفسير وعلم كل شيء، ويجب استذكاره ليل نهار، والعمل على تفهمه وتطبيقه»^(١).

ونريد أن سبه القارئ إلى مسائل ثلاث يرى ضرورة عرضها في هذا المقام:

الأول. أن المحاسبى ألف كتاباً في «أخلاق الحكيم»، والكتاب للأسف ضائع، ولكن المحاسبى يخبر في موضع آخر^(٢)، أنه عرض فيه «تفصيلاً» لية ارتكاب الذنوب، وهل هذه الية ذنب أم لا.

وفي هذا الكتاب المخصص للتعريف بالحكيم يحكم المحاسبى في القضية بجلاء ووضوح حسب المفاهيم الإسلامية، ونحن على يقين من أنه في وصفه لأخلاق الحكيم ودراستها وتحليلها، أو في عرضه لها مثلاً لكمال اشخصية الحالية من شوائب الشر، لم يستمد بحثه من خلال أوصاف حكماء المسيحية أو الفلاسفة، وإنما - وكان هذا أمراً طبيعياً - وحد صفات الحكيم في القرآن، ووجد مثاله في النبى والصحابة

والثانية: أن المحاسبى في كتابه «المسائل في أعمال القلوب والجوارح» يعرض القضية. «هل الكلام خير من السكوت» فيذكر رأى زيد، ومفاده أن الكلام خير، ثم يضيف «قال حكيم عن رأى زيد: إن زيدا عرف أن

(١) المحاسبى كتاب ادب النفوس ص ٩٠ (مخطوط جاز الله).

(٢) المحاسبى: كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص ٩٢ مخطوط جاز الله.

كثرة الكلام ضرر، ولكن صردها أقل من ضرر السكوت»^(١).

هل ناقش المسيحيون والفلاسفة آراء زبداً وهل وصلت أصداء نقاشهم حتى المحاسبى؟ إننا نشك في ذلك كثيراً

والمسألة الثالثة: أن المحاسبى يقول في مناسبة أخرى:

«إذا نوى رجل عمل خيراً، أثابه الله حسنة واحدة إن لم يتمه، فإن أتمه أثابه الله عشر حسات وهذا ما يقول به بعض الحكماء»^(٢).

والأمر هنا يتعلق بمسألة محددة في الإسلام. وفي رأينا أن المحاسبى لم يكن ليصدر في معالجتها عن آراء فيلسوف أو مسيحي، هذا بالإضافة إلى أن كلمه: «حسنة» الواردة هنا كلمه إسلامية خالصة.

وإننا لتساءل بعد ذلك: ماذا كان يعنى المحاسبى بكلمة «حكيماء» إنه يروى في بداية كتاب الوصايا كيف وحد القوم الذين همتهدى بهم بعد طول معاناة وقتق:

«قوم رأيت فيهم علامات التقوى، وغنى النفس، يرعون حقوق الله ويفصلون الحياة الأخرى على الحياة الدنيا».

ويواصل المحاسبى سرد فضائل هؤلاء القوم. والذي يعنينا هنا: أنهم كانوا من المسلمين، وإن لم يذكر أسماءهم كما أنه لم يورد أسانيد الأحاديث المروية في كتابه

بيد أن هؤلاء القوم كانوا هداة له فيما يتعلق بأمور الدين الإسلامى، رخصيلة تعاليمهم - التى صمناها كتاب الوصايا - رخصيلة إسلامية خالصة. ويقول المحاسبى:

(١) محاسبى كتاب المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ص ١٣٢ مخطوط جازاه.

(٢) محاسبى: الزهد ص ١٣.

إن النجوم المذكورين كانت تهديهم «المعرفة لصادرة عن العناية الربانية في أمور الدين».

وقد ذكرنا فيما سبق أن هذا هو المعنى القرآني لكلمة: «حكمة» فهل هؤلاء هم الذين يعنيه المحاسبي بالحكماء؟

إننا لا نقطع بذلك، ولكننا نريد هنا فقط أن نبطل حجة القائلين بأن الحكماء ليسوا سوى المسيحيين، أو الفلاسفة، وعلى أي حال، فإن كلمة «حكمة» بمعنى المعرفة الصادرة عن العناية الربانية» يستخدمها المحاسبي في كتاب «الرعاية»، كما يذكر في هذا الكتاب حديثاً للحسن البصري يعطى للكلمة نفس المعنى

ولو سلمنا بأن من بين الدس الدين تعنيهم كلمة حكماء. بعض المسيحيين، فهل يفرض هذا أن المحاسبي قد تأثر بالمسيحية؟ إنه أمر لا نقره؛ فالأحدث التي بنسبها إلى الحكماء، إما إسلامية حالصة، أو هي حاملة لمغزى عام مستخدم في البيئة الإسلامية ولبنة المسيحية على حد سواء.

وقد يعتمد البعض، أمثال الأستاذة مارجريت سميث^(١)، إلى التعلل في هذا الصدد باستخدام المحاسبي للأمثال والمواعظ مستنديين بالذات إلى حكاية باذر الخبواب.

ولكن هذه القصة في الواقع لا تدل على اتجاه بعينه، بل إنها تروى عبرة شائعة، ذاعب في سائر الأمم، وبالإضافة إلى ذلك، فإن المحاسبي لم يوردها إلا توصيحاً لأرائه.

إنه لا يتخذ قط الأمثال أساساً للرأي، وإنما يذكرها لمحض التفصيل والإيضاح.

(١) مارجريت سميث: صوفي من أوائل صوفيه بغداد ص ٨٣

وكل الأمثال التي ترد لديه فهو قد استمدّها من مسلمين آخرين.
 فأسباب لقول بالتأثير المسيحي على الصوفي الذي يعيننا يست إدن
 بالأسباب المقنعة، لذلك نعتقد أنه لا مناص من تأكيد ما سبق أن عرضناه
 بشأن ثقافة المحاسبي: من أنها كانت ثقافة عربية إسلامية خالصة.
 ونضيف إلى ما تقدم أن من الأمور ذات المعزى: أن المحاسبي لا يرى
 في المسيحيين غير قوم ضلوا عن سبيل الله^(١)، ثم هو - مع تقديره الرفيع
 للمسيح نبياً - يرى أنه لم يبلغ من مراتب السمو الروحي أعلاها، معتمداً
 في ذلك على الحديث التالي:

«لو أن إيمان عيسى كان أقوى لطار في السماء بدلاً من أن يمشى على
 الماء».



ومع ذلك كان صاحبنا محل نقد عفيف؛ وقد اضطر في أواخر حياته أن
 يتوقف عن التدريس.

وثبت هنا أولاً أن الانتقادات التي وجهت إليه لم تتعرض في شيء إلى
 إحلاصه، ثم إنها لا تحمل أي اتهام له بالخروج عن الدين.
 وإنا لنرى في هذه الانتقادات تشريفاً للمحاسبي، ولا أدن على ذلك من
 تلخيصها، وهي أساساً من شقين:

الأول منها القول بأن مسج المحاسبي في علاج النفس يعتبر نوعاً
 من الاستحداث لأشياء لم يقنارها سابقوه أمثال مالك أو الثوري.
 وهذا النقد - إجمالاً للقول - لا يثبت إلا أنه كان ذا عبقرية مبتكرة
 المعية^(٢).

(١) المحاسبي، مختصر كتاب فهم الصلاح ص ٥٤ مخطوط جاز الله.

(٢) ابن الجوزي: تليس إبليس ص ١٦٦ ط القاهرة سنة ١٩٢٨.

والثاني: وكان ابن حنبل على رأس المنتقدين للمحاسبى فى هذا الصدد - بوجره فى أن المحاسبى فى دفاعه عن لعقده وحربه على الدين يعتبرهم من الخارجين على الدين، استخدم نفس أساليب المتكلمين فى الجدل.

وموضوع المقدى نظر مستفده أنه عنى فى كتاباته بأن يعرض نظريات أعدائه قبل أن يشرع فى هدمها

وكن الرأى عندهم أن عرض آراء هؤلاء القوم الخارجين على الدين ولو من أجل تيسير إبطال حججهم - أمر غير مقبول^(١)، وهذه الانتقادات فى الواقع مردها إلى حماس المحاسبى وإخلاصه للدين دفاعاً به إلى عرض الآراء الخارجة قبل كل شئ ليجاج أصحابها فى غير ما تحس أو تصلل.

(١) ابن الجوزى تلبس إبليس ص ١٦٧ ط القاهرة ١٩٢٨، وكذلك لعل
المسند من الضلال ص ١٠٩

الأبحاث الخاصة بالمحاسبى

كتبه وترتيبها التاريخى:

يقول الهجويرى، مؤلف: «كشف المحجوب».

إن المحاسبى رعيم إحدى الطرق الصوفية الاثنى عشر وأنه مفكر د،
قدر كبير.

ورغم ذلك: فالمحاسبى لم يثر اهتمام المستشرقين بشكل ملحوظ، ولهم
العذر فى ذلك، فأهدافهم لا تتفق مع دراسته، إذ هو على طرف نقيض من
نظرياتهم حول أصول التصوف الإسلامى، ولما كانت التأثيرات الأجنبية
بعيدة عنه كل البعد برز لديه وتجلت فى صورته ملفته الثقافة العربية
القرآنية الإسلامية.

لذلك رأوا تجنبه وإبقاءه فى الظلام، وإن بذل الأستاذ ماسينيون بعض
الجهود المشكورة لبيان فصله وقدره.

ومن الأمور ذات الدلالة الواضحة فى هذا الصدد أن الأساد
بيكولسون ألف أربع كتب فى إسلام ولعرب^{١١}، منهم ثلاثة فى التصوف،
والرابع فى تاريخ لأدب العربى وهذا الأخير يتناول أيضاً التصوف فى
مناسبتين منه . ولم يذكر مرة واحدة اسم المحاسبى وهو يعرض له فى

١١) بيكولسون صوفيه الإسلام - دراسات فى التصوف الإسلامى - فكرة الشخصية فى
التصوف - تاريخ أدب العرب

كتاب خاص «تراث الإسلام» ولكن في سطور مختصرة للغاية. والمستشرقون عامه لا يتحدثون عن المحاسبي سوى عرض، يتحدثون عنه في كلمات سريعة لا تعتمد على دراسة مطولة، أو براهين قوية، ومفادها: أن نزعته الصوفية كانت على الأخص متأثرة بالمسيحية. يقولون هذا وينتقلون إلى مواضيع أخرى، وكأنهم يهربون من المحاسبي لأنهم يشعرون في مكور سرهم أن الإقاضة في دراسته تبطل هجتهم.

وكان للأستاذ ماسينيون - قبل غيره من المستشرقين - الفضل الحقيقي في التعريف بالمحاسبي، لقد عرض له في مواضع كثيرة من كتابه «مأساة الحلاج» ثم خصه بقدر كبير من البحث في كتابه «دراسات في أصول المصطلحات الفنية للتصوف الإسلامي»

وفي عام ١٩٣٥ نشرت الأستاذة مارجريت سميث كتاباً شاملاً عن المحاسبي، أهدا كثيراً من قراءته، حيث أنها قامت بأبحاث واسعة في مختلف مكاتب المخطوطات وانتهت إلى اكتشاف وثائق هامة عن هذا الصوفي أدت إلى اتجاهات جديدة نحو مصادر الدراسات الخاصة به. وقد عرضنا - وسوف نعرض فيها إلى من بحثنا لبعض الأفكار والآراء التي بنت عليها مؤلفها.

وبشر الأستاذ أوتوسبيس ورقات ثلاث، من مخطوطة من كتاب للمحاسبي اكتشفت في المكتبة الشرقية لباركليور بالهد^(١).

كما أصدر الأستاذ هلموت ريتز كتاباً من ثلاث عشرة صفحة ينضم

(١) أوتوسبيس في «دراسات إسلامية» الجزء السادس ص ٢٨٣ - ٢٨٦

مخطوطاً آخر له وجد بمكتبة إستانبول، وعنوانه: «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى».

أما الأستاذ آرثر آربري فقد حقق ونشر «كتاب التوهم» للمحاسبي. هذا مجمل ما قام به المستشرقون منذرارات فيما يتعلق بالمحاسبى، وهو ليس بالكثير إن قورن بإسماجهم الأدبى والعلمى الهائل بشأن ابن عربى مثلاً.

وقبل أن تنتقل إلى بيان مؤلفات المحاسبى، ونساؤها بالتحليل مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً وموضوعياً، نريد أن نعرض الملاحظات التالية بشأن بعض هذه المؤلفات.

١ - سب إلى المحاسبى: «كتاب البعث والشور»^(١) ونحن على يقين من أنه ليس للمحاسبى، وذلك للأسباب الآتية:

(أ) لقد ألفت المحاسبى فى نفس الموضوع كتابه الرائع المشوق «التوهم» وليس من المعقول أن يكون قد سطر إلى جانبه مؤلفاً فى مثل هزال: «كتاب البعث والشور» المنسوب إليه.

(ب) كتاب التوهم يعمد إلى وصف القيامة والحساب والرحيم والجراء المخيف المخصص لمن عصى الله، ثم يأخذ فى بيان السعادة التى تنتظر فى الجنة كل من رعى حقوق الله وبعد ذلك يأخذ بيد القارئ فى روى وتهل لمسير فى موكب الأظهار إلى مشهد الصفاء، مشهد لذات الإلهية التى بها وحدها تكمل السعادة^(٢).

أما فى كتاب «البعث والشور» المنسوب إليه فترتيب لأحداث مختلف

(٢) لويس ماسيوس: دراسات ص ٢٢٣

(١) مخطوط بمكتبة باريس

وغير منطقي، والحديث عن رؤية الذات الإلهية يأتي في انفصول الوسطى منه، وكان الأولى أن يكون وصف هذه المرتبة الأسمى من السعادة في خاتمة.

(ج) وأخيراً، فالكتاب بالغ الهزال، يدعو إلى السخرية، فيه من الخرافات عن المسلمين ما لا يصدق عقل عاقل، وبالتالي لا يجرؤ على تسطيره رجل رشيد: حبريل يبكي على أمة محمد ﷺ - وجههم تعطف عليها، ومالك حارس الجحيم يسأل عن أخبارها، ولا ندرى كيف تتحمل لبيب النار. لا أليس ذلك من فكر وعمل المحاسبي، وهو ما يدعونا إلى الجرم بأن «كتاب البعث والشور» لم يصدر عنه، وبأن سبته إليه محض تجن واعتراء.

٢ - يذكر الأستاذ «ريتر» في بحثه لذي أشرنا إليه سابقاً أن «كتاب النصائح» منسوب إلى المحاسبي، وأن أمر هذه النسبة يحتاج إلى مزيد من الدراسة.

ولقوله سبيان قد يدعوان للشك في نسبة المخطوط إلى المحاسبي:
الأول منها: أن بالصحيفة ٢٢ للمخطوط أمر يسترعى الانتباه، إذ نقرأ فيها أن جلساء المحاسبي قالوا له عندما رأوه سكت عن الحديث:
«يا أخانا - وأنت البر ياخوانه - لقد احتهدت في النصيح لنا، وقولك الصدق» ثم طلبوا إليه أن يزيدهم من حديثه، وأن يفصل لهم ما تحب معرفته لتطهير إيمانهم.. «عندئذ قال لهم عبد الله» إلخ..

والأمر الذي يسترعى الانتباه هنا هو ذكر المحاسبي في سياق الحديث، مما يدعو إلى الظن بأن الكتاب صدر عن أحد تلاميذ المحاسبي ممن حضر جلسته، وسجل مختصراً لحديثه.

ولكننا نعلم أن المحاسبي دأب على كتابة ما كان يلقى من دروس، محتفظاً فيها بالأسئلة التي تلقى إليه وبأجوبته عليها، وليس أسلوب الحوار هذا بفريد أو مستغرب في مؤلفاته

والسبب الثاني: الذي قد يشكك في نسبة «كتاب النصائح» إلى المحاسبي، أن به هجوماً على ابن عوف الذي كان من صفوة أصحاب النبي ﷺ. ومثل هذا الهجوم من رجل مثل المحاسبي يحرم ويحب هؤلاء الصحابة في عمق وإخلاص أمر عجب. ولسوف نتحدث فيما بعد عن تفصيل هذا الهجوم ومبرراته، ولكن الشك في نسبة المؤلف إلى المحاسبي لهذا السبب يتلاشى سريعاً، إذ نجد أن العراقي - وهو أيضاً يحترم ويحب أصحاب النبي ﷺ في عمق وإخلاص - يورد ذكر هذا الهجوم بالذات على ابن عوف في كتابه الإحياء^(١).

إنه يورده، ويوافق عليه، ويمتدح له المحاسبي في حماس وكان العراقي حجة في النقد لفلسفي، وإذا هو متدح المحاسبي لفصل من كتاب النصائح، فقد أثبت نسبة الكتاب إليه، وهذا في رأينا فصل الخطاب في القضية، ولكننا نحب أن نضيف ما يلي:

إن ذكر المحاسبي لنفسه في مؤلفاته أمر حري عليه أسلوبه في النقاش والعرض، وله أمثلة كثيرة غير الذي ذكرناه.

- إن الأفكار التي يعبر عنها في كتاب «النصائح» لا تخرج عن الإطار المعروف لاتباعهاته.

٣ - وقد تفضل الأستاذ «ماسبيون» باطلاعنا على بضع ورفات من

(١) العراقي: الإحياء ص ٢٢٩ ط: الحلبي ١٣٤٦ هـ

مخطوط «كتاب فهم القرآن»^(١) جمع فيها المحاسبي آيات من امران تتعلق بموضوع يبحث فيه، وهو يفسر ويشرح الآيات لى يراها أكثر مطابقة لأحاديث النبی.. ثم يأخذ في شرح الآيات الأخرى التي قد تبدو لأول وهلة غير مطابقة، والتي قد يرى فيها محادلوها حجة لهم.

إنه في الواقع بحث في الإلهيات.

٤ في النصوص الخاصة بمؤلفات المحاسبي نجد ذكر الكتاب له بعنوان «كتاب الكف عما سحر بين الصحابة» ولكننا لا نرى معنى لكلمة «سحر» ونعتقد أنه يجب قراءتها «شجر» ليستقيم المعنى.

ويروى السمعاني^(٢) نقلاً عن ابن شدهان أن المحاسبي ألف كتاباً يقال له «كتاب الدماء» وأنه يشرح فيه كيف أن الدماء التي سالت بين أصحاب النبي لم نصر بوحده العقيدة للأمة الإسلامية. ويروى ابن شدهان أيضاً - أنه وإخوان له اعتمدوا على كتاب المحاسبي هـ.

وإننا لنرى - كما ترى الأستاذة «مارجاريت سميث»^(٣) أن «كتاب الكف عما سحر بين الصحابة» و«كتاب الدماء» المذكوران، ليسا في الواقع سوى مؤلف واحد من مؤلفات المحاسبي، رغم اختلاف عنوانيهما..

وتدل تسمية الكتاب في الحالين على أنه يعرض للخلافات التي ثارت بين الصحابة في الفترة الأخيرة من عهد عثمان وأدت إلى قتله، ثم إلى الترع بين علي من ناحية، وبين عائشة ومعاوية من ناحية أخرى.

(١) ذكره المحاسبي في فصل من كتاب العظمة المخطوط ص ٢٧

(٢) السمعاني. كتاب الأنصاب ص ٥٣٩

(٣) حوى من أوائل صوييه بعداد ص ٥٨

وكانت هذه الخلافات في عصر المحاسبي موضوع نقد مرير، وعلى الأخص من جانب المعتزلة الذين ألغوا باللوم على أصحاب النبی.. ويمكن التعرف على موقف المحاسبي بالنسبة إلى هذه القضية من خلال مؤلفاته الأخرى، إذ لا شك في أنه أراد تبرئة دمة الصحابة، وتطهيرهم من كل ذنب.

فهو يقول - مثلاً - عن الذين يتهمون على عائشة «أم المؤمنين» «إنهم قوم ضلوا»^(١).

وهو يثور لعثمان ثالث الخلفاء، ويذكر نقلاً عن أبي قلابة أن فلة عثمان إنما قتلوه غيرة»^(٢).

ويكرر العبارة في نفس الصحيفة دونما داع حقيقى إليها في المعنى. ثم هو يروى بعد ذلك في نفس الكتاب، نقلاً عن قائل لم يذكر اسمه: «مارجوت شراً لعثمان إلا وقع على الشر، ولو رجوت قتله لقتلت أنا»^(٣) وكان المحاسبي لا يذكر علياً إلا على أنه من أصحاب النبی ذوی الفضل الكبير..

وقد رأينا فيما سبق كيف كان تقديره لصحابة عامة.

٥ - يروى ابن الحاج^(٤) أن المحاسبي في كتابه «رساله الإرشاد» يقول: إن الفناء حرم على المسلم كتحریم أكل الدابة ابيته التي لم تذبح ذبْحاً شرعياً.

ولقد استنتجت من هذا أن رسالة «الإرشاد» المذكورة هي نفس كتاب

(١) الرعاية ص ١١١

(٣) الرعاية ص ١٤٥

(٢) الرعاية ص ١٤٠

(٤) المدخل ص ٢٦٦ ط: القاهرة

المسترشد» المعروف، للمحاسبي.. وأعدنا قراءة الكتاب الأخير فوجدنا فيه تأكيداً لاستنتاجنا من نص الكلمات بذاتها التي استشهد بها بن الحاج.

٦ - نشر الأستاذ «أوتوسبيس»^(١) الورقات الثلاث الأخيرة المتبقية من مخطوط بعنوان «كتاب لصبر والرضا» للمحاسبي؛ ويقول المباشر بشأنها.

«لم نجد في المصادر المتاحة لي أي ذكر لكتاب الصبر والرضا هذا» ونحن نعتقد أن الكتاب المذكور لم يكن يحمل هذا العنوان، وإنما سمي أصلاً بـ «كتاب الرضا».

ولما كان البحث في الصبر مقروناً بالبحث في الرضا، فالأرجح أن العنوان قد حُرف، يدلنا على ذلك أن المحاسبي في كتابه «المسائل في أعمال القلوب والجوارح» ص ١٢٨ يقول:

إله ألف «كتاب الرضا» ولا نعمل أن يكون - بعد ذلك - قد ألف كتاباً آخر في الصبر والرضا.



وبعد الملاحظات التمهيدية السابقة بشأن مؤلفات المحاسبي، نورد فيما يلي لمحات موجزة لما وصلنا إليه منها:

- ١ - كتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها؛
نسأله يوماً: لو فقدت سائر مؤلفات المحاسبي باستثناء «الرعاية» فهل يكفيك هذا الكتاب دليلاً على فكر مؤلفه؟

(١) دراسات إسلامية ج ٦ ص ٢٨٢ - ٢٨٦

وكاد الحواب على هذا التساؤل أن يكون بالإيجاب..

فالواقع أن كتاب «الرعاية» يحتوى على الخطوط العريضة لكتب المحاسبى المسماة بـ «التوهم» و «الزهد»، و «المكسب»، و «بدء من أناب إلى الله»، وهو يحتوى على كتابيه «لمسائل فى أعمال القلوب» و «آداب النعوس» ليس فقط فى خطوطها العريضة، ولكن فى بسط أكثر تنظيمًا، وأكمل منطقًا.

ثم هو يحتوى أيضًا على جوهر الآراء التى عر عنها فى كتاب «الوصايا» يحتويها مع ريادة فى الحرص على تحديد المعانى وترتيبها.

ومن خلال هذا المؤلف وحده، يمكننا التعرف على المحاسبى فى علوم الدين، وعلى احساسه فى الأخلاق، وعلى المحاسبى فى معرفة النفس الإنسانية.

ولو فقدت «الرعاية» لأمكننا التعرف من كتبه الأخرى على المحاسبى فى مجال النظريات الأخلاقية، بيد أن هذه الكتب الأخرى لن تغنيها شيئًا كثيرًا فى تحديد ووضاح قدر المحاسبى كمستكشف لأسرار النفس الإنسانية، ومعالج لها.

لقد كتب المحاسبى مؤلفه هذا مبتغيًا هدفًا جوهريًا هو: أن يبين للإنسان ما يجب عليه اتباعًا وتنفيذًا لإرادة الله

ولكنه لم ينفذ إلى هذا الموضوع مباشرة، وإنما اعتقد أن الإنسان يحتاج، بادئ دى بدء، إلى نصائح رشيدة قبل لسير به إلى العاية لمرجوة، نصائح يتفتح لها قلبه، ويطلق عقله واعيًا لتحديث.

لهذا يقدم لكتابه بنصائح فى حسن الاستماع، ثم يعرض موضوعه،

لا شارحاً مفسراً، ولكن مبيناً ضرورة إخضاع الإنسان نفسه لإرادة الله، وهو الأمر الذى يسبغ من «التقوى» ويؤدى بالإنسان إلى القيام بما أمره الله به، وبجانبه ما نهاه عنه؛ وما أمر الله به من معروف وكذلك ما نهى عنه والمحاسبى فى «الرعاية» لم يحاول حصر وسرد الوجبات والمحرمات، وإنما أهتم قبل كل شيء بـ «المنهج» الذى يهجه الإنسان فى تطبيقه للأوامر والنواهى عملياً بإخلاص وتطهر.

وللوصول إلى هذه الغاية التى يلاحظ المحاسبى أن الناس يتعدون عنها شيئاً فشيئاً على توالى الأيام وفى كل مكان، فهو يرسم لهم طريق التوبة وما يتبعها من عودة الإنسان إلى الله.

وعندما يصل الإنسان إلى مدارج التوبة، وينوى مخلصاً الطاعة لله يكون مع ذلك فى صراع دائم مع ما يمكن أن نسميه بـ «عناصر الشر» التى قد تضلّه فى غفلة منه عن سواء السبيل. فهذه العناصر دائمة الیقطة، وهى دائمة التلمس لهريستها فى الإنسان الضعيف بطبعه.

ويرى المحاسبى أن عنصرى الشر هما: النفس عنصرياً داخلياً، وإبليس العنصر الخارجى الذى ينقذ من النفس إلى الإنسان ليوحى له بالشر، والمحاسبى يحذر منهما، ويبين شدة مكرهما، ولا يكتفى بذلك، بل يحذر الإنسان من عوامل الضلال، مثل إخوان السوء، أو مجتمعات الفساد،

ومعرفة عناصر وعوامل الشر لا تكفى - فى رأى المحاسبى - لأن تجعل الإنسان أهلاً للقيام بالعمل كما ينبغى له، لذلك فهو يعرض الأساس الذى يدونه لا يثاب المرء على عمل؛ ذلك لأساس هو «الإخلاص» ومقابلة للإخلاص، هو يتحدث أيضاً تفصيلاً عن الشيء الذى يلغى ألا وهو الرياء.

والرياء فيها يحدث عنه لا ينغى العمل بحسب، وإنما هو إلى جانب ذلك من أكبر ما ينقص البشر.

والمحاسبى بهم ما ينقص البشر، ويذكر منها أهمها، وهى فى نظره بعد الرياء: الكبر والعجب والغرة. والحسد

ثم هو لا يكتفى بشرح العواقب الوحيمة لهذه السيئات، وإنما يبين أسبابها وكيف يكون تجنبها والعلاج منها.

وفى الفصل الأخير من «الرعاية» يرسم المحاسبى للإسان برنامجاً يسير عليه «فى الليل والنهار» وينهى كتابه بالنصيحة التى يمكن استخلاصها من الحديث التالى:

«مادنيان جائعان أرسلا فى غم بأفسد لها من حب الرجل للمال والشرف فى دينه».

وهكذا، فإن فرحة الرجل بتكريم الناس له لما يظهر من بره وتقواه هى الخدعة الكبرى.

ويوضح مما سبق أن المحاسبى هتم فى كتابه أكبر الاهتمام بمعرفة أسرار القلوب.

ويمكن القول بأن المحاسبى لم يسطره ألا لتطهير القلوب وتخليصها من الآفات، وتحريرها من كل ما عدا الله، أو من كل ما يعوقه عنه تعالى.

وختاماً لهذا الموجز عن الرعاية، نعود إلى ذكر الأستاذ ماسينيون فى تقديره لها، إذ قال بعد ذكر «قوت لقلوب» للمكى، و«الإحياء» للعرالى

«... ولكن أيا منها لم يصل إلى ما وصل إليه المحاسبى، فى تسلسل أحوال النفوس وفى منهج علم النفس لتجريبى»^(١)

(١) لويس ماسينيون: دراسات ص ٢١٦

٢ - كتاب الوصايا^(١):

يتكون هذا المخطوط من ٥٦ ورقة، وهو من بعد «الرعاية» أصحح مؤلفات المحاسبى، الموجود بين أيدينا، أما من ناحية قيمته لأدبية فلا نرى أنه جدير بأن يوضع فى الصف الأول من كتبه، والعصر النفيس فيه، أن المحاسبى يعرض لمحات من حياته، ويشف عن حيرته وقلقه خلال بحثه عن الطريق الذى ينبغى عليه اتباعه، ثم هو يتضمن نقداً عنفاً لاذعاً للغنى عامة، وغنى ابن عوف بالذات ولكنه مع ذلك نقد مشوش، يفتقر إلى المنطق وبراهينه ظلت ضعيفة رغم اجتهاده. وقد لوحظت بعض التناقضات فى هذا الجزء من الكتاب.

ومن الأمور ذات المفردى الواضح أن أحاديث كثيرة يعتمد عليها فى هذا المقام، ليست بذات سند قوى، ولا تعد من مجموع الأحاديث الصحيحة.

وقد خصص المؤلف قرابة الثلث الأول من الكتاب للموضوعات السابقة، ويستقل بعدها مباشرة إلى مسألة التشف فى الحياة معابلاً بها الفصول الخاصة بأعلى.

وهذا الموضوع بطبيعة الحال فرصة مواتية لهجوم محدد على لغنى لم تكن لتفوت صاحبها، ثم هو يتحدث عن الإسراف الذى ينهى الله عنه فى مختلف أشكاله، وعن البخل، فيقول:

«إن البخيل بعيد عن الجنة».

وينصح بالاعتصام فى مخالطة الناس فهى مصدر لارتكاب الذنوب

(١) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٧٩٠٠ وطبع حديثاً بالقاهرة.

إلا من تعاونوا بالمخالطة على الر والتقوى.

وفصول الوصايا تتوالى بعد ذلك: فيوصى المحاسبي بأن يأخذ ابرء حظه من المتاع الحلال، وأن يحذر إبليس، وأن يتجنب أفات القلوب مثل الكبر ولعجب، وأن يتأمل في حقوق الله ويرعاها، وأن لا ينساق في الجدل أو يتهور في البحث في قصايا لإلهيات التي بعثت الفتنة بين المسلمين، وأن يبتغى الأحاديث التي تصل العبد بالله، وأن يجتهد في أداء ما يرضى الله، وأن يلزم نفسه بالصلاة في موافقتها، وبالصوم والمحج، وأن يطهر بيته، ويجتنب ارتكاب الذنوب، ويدعو الله سرًا، ويتفكر في كتابه على الدوام، ويتخلص من المال الحرام.

وبعد ذلك يعود المحاسبي للمرة الثالثة - مما يدعو الدهشة - إلى حديث الغنى، لا للهجوم والنقد، ولكن لبيان حوائب الحرام منه، ويذكر في هذا الصدد قول أحد الصحابة:

«إذا كان الكسب حلالاً فالعمل طاهر»^(١).

والفصل مبحث في نفس الفضية وفي حقوق الله في المال ووجوب الإنفاق في سبيل الله.

ويحتم الكتاب بحديث الشكر الواجب لله، ويوصى بأن يكون العمل خالصاً لوجهه لا ابتغاء الثناء والتكريم

٣ - كتاب أدب النفوس^(٢):

وهو مخطوط يبحث في نفس مباحث «الرعاية» وتحليل الحوائب

(١) ص ٣٤ من مخطوط الوصايا

(٢) مخطوط جاز الله بمكتبة إستامبول رقم ١١٠١

النفسية فيه أقل عمقاً، وإن كن يزرع إلى التصوف بصورة أوضح من «الرعاية».

٤ - كتاب المكسب والورع والشبهات^(١):

وهذا المخطوط من المؤلفات الأساسية للمحاسبي. لقد كتبه في فترة متأخرة من عمره لذلك فهو يعكس آراءه في القضايا الكبرى بعد طول اختصار لها في فكرة:

قضية الكسب الذي لا يرقضه إن كن حلالاً.
وقضية الورع.
ثم قضية الشبهات.

وأهمية الكتاب الخاصة ترجع إلى ما يظهر فيه من معرفة صاحبه الواسعة لآراء الغير، وإدراكه التام لها، بحيث يحل لنا ما بينها من دقائق الخلاف.

إنه يذكر فيه أربع مرات الإمام أحمد بن حنبل، وهذا دليل إحصاء المحاسبي، وصفاء نفسه، فهو قد اختلف مع ابن حنبل، ولكنه مع ذلك ينظر إليه نظرة المقدر لأهمية آرائه.

ويبرز لنا المحاسبي أيضاً في هذا الكتاب قلق أهل اتقوى في عصره بالسبب إلى ما هو حلال وإلى ما هو حرام أو متشبه

(١) مخطوط حار الله بمكتبه إستامبول رقم ١١٠٦.

٥ - كتاب ماهية العقل ومعناه^(١) :

يبحث هذا الكتاب في جوهر العقل، ويشرح ماهيته ووظائفه وفائدته. وقد نشر أخيراً في لبنان تحقيق الدكتور حسين القوتلي.

٦ - كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح^(٢) :

ويبحث في القضايا الخاصة ببعض مشاعر القلوب وبعض أعمال الجوارح، ولا توحد وحدة بين المسائل التي تناولها

إنه يعرض لعمل الخير ابتغاء مساعدة لغير وإسعادهم، ويعرض لعمل الخير سرّاً، ولأثر الملبس وغيره في التفريق بين الناس، ولتقوى الله، ولوسائل تطهير العمل، وللنوافل وللتفويض، ولمعرفة ومراقبة النفس، وللغرة، ولنسيان الفروض أو المحرمات ولما هو حلال أو حرام في النظر إلى المرأة.

وينتهي الكتاب بمسألة الذرقة وما يتصل به من أحكام.

٧ - كتاب التوهم^(٣) :

وقد سبق أن تحدثنا عنه.

٨ - كتاب المسائل في الزهد^(٤) :

قد يوهم عنوان الكتاب بأن المحاسبي خصه للبحث في الزهد فقط.

(١) مخطوط جاز الله بمكتبة ستامبول رقم ١١٠١

(٢) مخطوط جاز الله بمكتبة ستامبول رقم ١١٠١.

(٣) مخطوط بمكتبة أكسفورد رقم ٦١١ وطبع حديثاً.

(٤) مخطوط جاز الله بمكتبة ستامبول رقم ١١٠١ وطبع حديثاً

ووقع الأمر أنه يبدأ بعرض مفهوم الزهد وأصوله وأسبابه ودوافعه، ثم يتطرق إلى الموضوعات التالية:

القصد في الكلام.

لتأمل بأنواعه.

ما يجب على العبد من الشكر لله.

الفروض والنوافل

الفقر.

إبليس ومكره، وكيف يكون لتخلص منه.

الحسد والكبر وأسبابها

الصدق في صورته المختلفة.

الرياء ومظاهره.

طاعة الله وكيف يعمل الإنسان لتقويتها وتطهيره، ولعوامل التي

تقوصها، مثل سوء رغبة النفس.

ويبحث بعد ذلك في أفضل العبادات.

وفي هذا المقام يخصص المحاسبى دراسة هامة لمسألة العطف على

المقراء ومساعدة من يحتاج إلى الرعاية، ويقول:

«ن لله في غنى عن عبادتك، وتفضلها عنده مساعدتك للغير».

ثم ينتقل المؤلف إلى إسداء نصائحه النفسية للمعلم والتلميذ.

وعرض الصلاة ومكانتها، وكيف تقام في مواقيتها، وللنزوع إلى الشر

أو إلى الخير، والتعريف بهما تعريفاً دقيقاً.

ثم يعود إلى ذكر إبليس، هل هو يعلم بعمل الإنسان مستقبلاً أم لا؟

هل هو يدعو إلى الخير أم لا؟

وفي نهاية الكتاب يأتي حديث الزهد للمرة الثانية تحقيقاً لعنوان الكتاب، فيخصص بالحديث فصلاً عن الزهد فيما يتعلق بالطعام.

٩ - كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى^(١) :

وهو كتيب صغير الحجم، نافذ الفكرة عميقها، ويتناول بالبحث الطريق الذي يجب أن يسلكه للوصول إلى الحق، هؤلاء الذين ارتكبوا الذنوب وقست قلوبهم لخلوها من التقوى، وعصوا أمر الله، كما يعرض للوسائل والمبادئ التي تعين على مقاومة النفس وتدفع بالإنسان إلى الصراط المستقيم.

وميزة هذا الكتاب: أن المؤلف يدرج فيه للنفس فصلاً غاية في الأهمية، وهو يصورها وكأنها كائن مستقل يزرع بطبعه إلى الشر، وفي مقابلة النفس تقف إنية الإنسان، وهي التي تفلق وتضطرب لابتعاد النفس عن سبيل الله، والمحاسبي لها يعمل في براعة باهرة على تحذير الإنسان من مكر النفس حتى تسيطر الأولى على الثانية تسجيها عبث الحياة الدنيا، وتعيدها إلى سبيل الله، وهو الفاية العظمى.

وقد صور هذا الصراع بين الإنسان ونفسه في تعبيرات تبلغ أحياناً أقوى درجات لتأثير.

١٠ - فصل من كتاب العظمة^(٢) :

مختص هذا المخطوط بمسألة وحدة الله، والله واحد، ليس في الإمكان أن يكون اثنين ولا ثلاثة.

(١) مخطوط حار الله بمكتبة استامبول رقم ١١٠١

(٢) مخطوط حار الله بمكتبة استامبول رقم ١١٠١.

وبراهين المؤلف على ذلك: تعتمد على وحدة ونألف الخلق، وكل مخلوق له مكانه المعلوم، وغرضه المعلوم.

إن كل مخلوق يعتمد على مخلوق غيره، وهذا «مخلوق يعتمد بدوره على آخر».

فالعالم سلسلة، وإن تكسرت إحدى حلقاتها تكسرت السلسلة. وهو الدليل على أن خالق الخلق واحد. وهذا هو البرهان المعتاد للمحاسبى في التدليل على وحدة الله

والانسجام الذى يسود العالم جميعه سببه واحد، وهو الله وما وقع من كوارث على الشعوب القديمة التى رفضت التوحيد هو البرهان فى رأى المحاسبى على هذا التوحيد.

١١ - مختصر كتب فهم الصلاح^(١)؛

وهو مخطوط يبحث فى شعائر الصلاة، والإعداد الروحى لها من المؤمن، حتى يحقق الغاية المطلوبة، ألا وهى تقوى الله.

١٢ - كتاب فى المراقبة^(٢)؛

وهو مخطوط يتعلق عمسأه المراقبة، وقد قسم المؤلف هذه المسألة إلى بنود أربعة:

(أ) معرفة الله.

(ب) معرفة إبليس.

(١) مخطوط جاز الله مكتبة إستانبول رقم ١١٠١.

(٢) ويسمى أيضاً بـ «شرح المراقبة» مخطوط القاهرة ت ١ س ٣.

(ج) معرفة النفس.

(د) معرفة ما يجب عمله وكيف يكون الإخلاص في العمل.

وعرض أيضاً للصفات العشر التي يتصف بها أهل المراقبة، والتي يصلون بواسطتها إلى مدارج روحية عليا، كما يحدث عن الية وعن التوبة.

١٣ - كتاب إحكام التوبة^(١)؛

وهو يبحث في قضايا التوبة، كما يدل على ذلك عنوانه. وسوف نعرض له تفصيلاً فيما يلي من الفصول:

١٤ - كتاب المسترشد^(٢)؛

وهو كتاب يمكن وصفه بأنه مجموعة نصائح لا يكاد يرتبط بعضها ببعض وتهدف إلى إنارة السبيل في مسائل الدين لمن يتغنى ذلك.

١٥ - كتاب العلم^(٣)؛

ويمكن أن نسميه بـ «كتاب المعرفة». والمحاسبي يقسم هذه المعرفة إلى ثلاثة أقسام:
(أ) معرفة الحلال والحرام.
(ب) معرفة ما يتعلق بالحياة الأخرى.

(١) مخطوط القاهرة ت ٣ س ٣

(٢) مخطوط القاهرة ت ٣ س ٣، وطبع بيروت طبعة أنيقة فاخرة تحقيق (عبد الفتاح أبو غدة).

(٣) مخطوط بمكتبة ميلانو رقم ٢ م ٤٦٠.

(ج) معرفة الله.

والمؤلف يقسم المؤمنين أيضًا فريقين: فريق ظاهره التقوى وهم عدم، وفريق الدين يسعون إلى التطهر من كل ديب خفى. والخلاصة التي يؤكدونها: أنه لا يمكن الجمع بين حب الحياة الدنيا ومحبة الله، فلا بد من الاختيار. ما المحاسبي: فقد اختار الله منذ البداية.

١٦ - كتاب الصبر والرضا^(١):

وهذا المخطوط يبحث في أهم مبادئ الزهد: الصبر على ما يكتبه الله، والخضوع التام لإرادته، وقد فقد هذا المخطوط فيما عدا الورقات الثلاثة الأخيرة منه التي نشرت.

١٧ - «المعرفة»:

وأوله. «ما استعان أحد على نفسه وإحراز ديه بمثل المراقبة»، شرح فيها المعرفة لله ولغيره» ووجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر.

١٨ - رسالة في التصوف:

بالمكتبة لبلدية بالإسكندرية ضمن مجموعة هي الحادية عشرة منها.

مؤلفات مفقودة:

هناك كتب للمحاسبي لم يتبق منها شيء يذكر مثل:

(١) مخطوط بالمكتبة الشرقية بمدينة بانكيور رقم ١٠٥.

«كتاب التنبيه» الذي تحتفظ مكتبة إسامبول بربع ورقة مخطوطة منه.
أما الكتب التالية فهي مفقودة بأكملها.
«كتاب أخلاق الحكيم» الذي ذكره المحاسبي في «المسائل في أعمال
القلوب والجوارح» و«كتاب الدماء» الوارد ذكره في كتاب «الأنصاف»
للسمعاني، والذي تحدث عنه فيما سبق.

وقد ذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء «فقال. على
هذا الكتاب عول أصحابنا في أمر الدماء التي حرب بين الصحابة»^(١). وفي
هذا الكتاب يتحدث المحاسبي عما وقع بين لصحابة من القتال، وقد ذكره
أبو علي الفضل بن شاذان المتوفى سنة ٣٥٠ هـ في كتابه: «الكف عما شجر
بين الصحابة» الذي قرأه الذهبي واقتبس منه اليافعي كثيراً عن ثروة ابن
عوف في كتابيه (دوض الرياحين في مناقب الصالحين) و«كتاب «نشر
المحاسن الغالية» جـ ٢ ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

و «كتاب التفكير والاعتبار» لمشار إليه في (الفهرست) لابن النديم

الترتيب التاريخي لمؤلفات المحاسبي:

ترتيب مؤلفات المحاسبي ترتيباً تاريخياً، أمر تعترضه عيوب كثيرة
فالقديماء لم يذكروا شيئاً مما قد ينير أسسها في شأن هذا الترتيب.
والمستشرقون لم يحاولوا القيام به أصلاً.

أما المؤلفات ذاتها فلا نجد فيها إشارات تعيساً أو تاريخاً يستدل منه على
الفترة التي كتبت فيها.

وبن عرض هنا محاولتنا لوضع هيكل هذا الترتيب التاريخي، وكان

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢١١، ونهذب أسهيب جـ ٢ ص ١٣٤، ١٣٦

هدفت منها تفسير التناقض - أو على الأصح، التطور في موقف المحاسبي الخاص بالكسب وإنما لنعترف بأنها محاولة مبدئية، ولكن عذربا في ذلك بأنها أول محاولة من نوعها بشأن كتب الهدى الصوفى.

ولفكرة الأولى الى أسسها عليها هذا التصنيف تصدر من أن المحاسبي لم يولد صوفياً، لقد تصوف على مراحل: ميل الى التصوف، ثم نعمة صوفية تقوى شيئاً فشيئاً، ثم الوصول الى قمم التصوف بعد سنين طويلة يقول الأستاذ ماسينيون في هذا:

«يبدو أن المحاسبي تدرج في تكوينه على يد معلمين مختلفين، ولم يتعق بأحد منهم تعقلاً خاصاً، كما يبدو أنه لم يتحول الى التصوف إلا في فترة متأخرة، ونحت تأثير أزمة نفسية^(١)

وبن برى أن المحاسبي لم يتحول فجأة وبطريقة حاسمة الى التصوف، فكتبه لا تدل على شيء من هذا، ولكننا نعتقد مع ذلك أنه لم يرتفع الى أعلى مدارج تصوفه إلا في فترة متأخرة

وفي رأينا أن المحاسبي سار في بدء حياته، كمؤلف، على الأساليب الشائعة لدى كتاب عصره، ولم يخرج عنها في شيء كثير

ورغم ظهور النزعة الصوفية لديه في هذه السنين المبكرة، فإن المؤلف يعذب عليه طابع الكتاب من علماء الدين، وقد اتخذنا نموذجاً لكتب هذه المرحلة كتابه. «فهم انفرآن» وهو الذى يناقش فيه قصاصا الدين والإلهيات.

إنه كتاب جدل لا يفتري عن غيره من كتاب علماء عصره. ويتقدم المحاسبي في مسالك التصوف، ويتقدم في العمر، فيصل إلى

(١) لويس ماسينيون - دراسات ص ٢١٢

مرحلة التضوح، تلك التي يعتمد فيها الإنسان على حصيلة وافرة من التجارب وتشرف فيها قوه الفكرية على أوج قدراتها.

ويصل حينئذ إلى درجة عالية من النصف، اسمي - بكل تأكيد - مما اتصف به في بدء حياته الفكرية،

ولكن الأمر الذي يميز لفترة الثانية هذه، هو ما يبرز في مؤلفاته من مقدرة رائعة على التحليل النفسي.

والمودج الجلي لكتبه حينئذ هو: «الرعاية» والتصوف فيه ليس بالشمول الذي نجده مثلاً في كتاب «الوصايا»، ولكن براعته الفائقة في تحليل الآفاق التي تفضل النفوس، وقدرته الفكرية البالغة أرفع الدرجات في تناول هذه الآفات، ودقة إدراكه لأسبابها وآثارها، ووسائل علاجها، كل ذلك لا يتأتى معاً لرجل في مقتبل شبابه الفكري، أو في مرحلة كهوله القوي العقلية.

وفي السنين الأخيرة من حياته، يصل تصوف المحاسبي إلى أعلى قممه. وتتسم مؤلفاته في هذه المرحلة بطابع الوصايا الصوفية الموجهة إلى هؤلاء الدين يسعون نحو السبيل لسوى، وهي لا تقتصر إلى التحليل النفسي، بيد أن هذا التحليل يصبح وكأنه رجع الصدى لمؤلفات المرحلة السابقة.

والمودج الذي يمثل كتبه حينئذ هو: «الوصايا» الذي يقصد في بدايته كيف يصل إلى الطريق المستقيم، ثم يأخذ في النصح بما يجب عمله، وما يجب تجنبه للوصول إلى هذا لطريق.

والكتاب لا يوحى في تأليفه وأسلوبه بالكثير من الجهد لمنظم المتواصل.

إن المحاسبي لا يعنى فيه حتى بإثبات أسانيد الأحاديث التي يرويها هل يكون ذلك لضعف في الذاكرة لديه؟ أم لأنه أصبح هو المرجع الذي

لا نزاع فيه، والذى لا يبازع، يؤمن الناس بمجرد كلمته، ويؤمن هو نفسه أن لا حاجة به إلى البحث عن الأسانيد وذكرها؟

مهما يكن من أمر، فكتاب «الوصايا» أقل عمقاً من كتاب «الرعاية» نرى إذن أن المحاسبي تدرج في مراحل ثلاثة:

الأولى منها: كانت تأليفه خلالها على نهج تأليف معاصريه.

والثانية: مرحلة التحليل النفسى الذى يبرز، ويتطلب الجهد والتحرية ونضوج الفكر.

ثم أخيراً فترة: التأمل الدينى والصوفى

ولم تخل أى من هذه المراحل من التصوف، ولكن التصوف تدرج فيها بشكل واضح غاية الوضوح.

ولا نقول بأنه كان هناك تحول مفاجئ جذرى من مرحلة إلى أخرى، فلا شيء يدس على هذا فى مؤلفات المحاسبي، بل ندحظ وجود علائق قوية، تربط كل مرحلة بالأخرى

كذلك لا نقول بهذا التقسيم على فترات متسوية.

ونرى أن المرحلة الأولى استغرقت من بدء حياة المحاسبي الأدبية لذى لا نستطيع تحديده - إلى حوالى سن الثامنة والثلاثين من عمره وقد يكون هذا الرأى محالاً للجدل، وقد نتهم فيه بشيء من المجازفة ولكننا أدخلنا فى الاعتبار عاملاً هاماً هو ظروف التعليم والدراسة فى عصر المحاسبي، والعقبات التى كانت تعترض طريق طالب العلم، خاصة فيما يتعلق بالحصول على الكتب.

أما المرحله الثانیه، فنميل إلى ترجيح أنها امتدت حتى سن الخامسة والستين، أو أكثر قليلاً، ذلك أننا نعلم أن المحاسبي عاش حتى الثامنة

والسبعين، وغاب الظن أنه كان على صحة طيبة.

وعرض فيما يلي بعض الملاحظات التي سوف تدعم ما ذكرناه، وإن لم تعط الحجة القاطعة:

فهاك قصبتان تتناقض فيهما مواقف المحاسبي، ولا تفسير لهذا التناقض إلا لم تأخذ في الاعتبار المبدأ الذي يسا عليه تصنيفنا:

القضية الأولى: قضية الكسب فهو يجيز الكسب في كتاب، ويتحرج منه في آخر. وسوف نعرض تفصيلاً هذه المسألة في مناسبة تالية والحل الذي اهتدينا إليه يقوم على ضوء من هذا الاختلاف في الفكر.

أما القضية الثانية: فهي تختص بالجدل في الدين والإلهيات، وكان هذا النوع من الجدل السبب الأكبر في الخلاف مع الإمام أحمد بن حنبل، ولكننا ترى المحاسبي في كتب أخرى يوصي بتجنب الجدل في الدين والإلهيات ويذمه، فما تفسير ذلك؟

كان هذا الجدل أمراً شائعاً في عصر المحاسبي، وقد شارك فيه خلال المرحلة الأولى من حياته الأدبية، ولكنه فيما بعد - وبفصل التجربة التي عاشها - اقتنع بأن الجدل لا يزيد الناس إلا خلافاً.

وهذا التحليل المنطقي للاختلاف الظاهر في آراء المحاسبي يؤيد - ولا شك - ما قلنا عن ترتيب التاريخي لمؤلفات المحاسبي.

كتاب الوصايا:

وهو يروى فيه كيف ألمه بعد النظر في عدد لا يحصى من الطرق المختلفة، وبعد أن درس تفسيرات وشروح العلماء وأطّل التأمل في أحوال الأمة والمداهب الشائعة، وبعد أن كاد يستسلم لليأس لما رآه من هتن بين الناس ودعاء لدى أصحاب الرأي، ولكنه لم ينقطع عن التفكير والتأمل

وعن امتحان الناس وتجربة أمورهم، ولم ينقطع بحثه عن المرشد الهادي، وهو لم يوفق من أول وهلة في التعرف على هذا المرشد، فانتابته القلق وحشية أن يفوته العمر قبل الوصول إلى العاية، واستنحت نفسه حاداً في اببحث أكثر من ذي قبل:

وفي النهاية: براه يلتقى بقوم أهل تقوى، ويتخذ منهم أدلاء إلى الهداية، ويداوم على محالطتهم لينهل من لدنهم المعرفة.

وقد جعل مما تعلمه منهم شعاراً له، فلما انتهى أجلهم بالموت، رأى من واجبه وحثاً عليه أن يواصل الدعوة التي أقاموها بأن ينشر من حوله ما تعلمه على أيديهم.

إنها في الواقع حياته كلها، تلك التي يقصها عليها المحاسبي في هذا الكتاب، ولا ماص من أن يكون قد خطه في آخر سنيها.

وهناك دليل آخر ممدى في كتابه «الرعاية» الذي اتخذناه مثالا لمؤلفات المرحلة الثانية.

ذلك: أنه يذكر فيه بابك، ويعهم من حديثه عنه أنه مات، ونحن نعلم أن بابك توفي عام ٢٢١ للهجرة، وبالتالي فالمحاسبي كتب هذا المؤلف بعد أن بلغ السادسة والخمسين من عمره.

وهذا الدليل بطبيعة الحال لا يحدد لنا تاريخ التأليف تمام التحديد، ولكننا نكرر هنا ما سبق عرضه من أن «الرعاية» تمتاز بشاط فكرى متدفق لا يتأق في إساج رجل يشرف على الكهولة الفكرية

والملاحظ من ناحية أخرى أن الكتاب لا يتضمن أى إشارة إلى أحداث لاحقة للتاريخ المذكور.

ولا يريد هنا أن نحاطر بترتيب كل مؤلفات المحاسبي، فهذا الأمر

محتاج إلى أدلة أخرى أكثر دقة من تلك التي ذكرناها، كما يحتاج إلى دراسة أعمق لأسلوب المؤلف حتى يمكن تحديد ما نسميه بـ «الكتب الانتقالية» أي تلك التي تصل بين مرحلتين من مراحل حياة الصوفي.

ونحن نكتفي بأن ثبت تصنيفنا التاريخي لما نجده من مؤلفاته أكثر إيصاح لمرحل حياته الأدبية الثلاثة التي عرفنا بها.

مؤلفات المرحلة الأولى:

إن إنتاج تلك المرحلة التي نتحدث عنها من حياته، هي بانذات هذا النمط من الجدل في الدين والإلهيات الذي شغله فترة ما، وأثار عليه حملة ابن حنبل، والمحاسبي يستكرها في كتبه الأخرى التي وصلتنا وفي رأينا أن موقفه لا يختلف عما قام به الكثير غيره من علماء المسلمين. انشغلوا خلال فترة من حياتهم بمسائل الإلهيات والجدل فيها، ثم تركوا هذا الأمر في مرحلة تالية، وبدموا على ما عملوا، ومن ذلك الإمام الرازي.

ما هي مؤلفات هذه المرحلة؟

إن التمثيل لمؤلفات هذه المرحلة من لصعوبة بمكان وذلك لعقد كثير من كتب المحاسبي.

من مؤلفات المرحلة الثانية.

- «المسائل في أعمال القلوب والجوارح»

- «الرعاية»

- «بدء من أُنْب إلى الله تعالى»

- «كتاب دُب النفوس»

ملاحظات بشأن كتابي: «المكاسب» و «التوهم»:

«كتاب المكاسب» للمحاسبى، يقدم لنا براهين تبلى الغاية فى قوتها المنطقية.. والأدلة التى يعرضها تأييداً لنظرياته، أو تلك التى يستخدمها لبيان خطأ غيرها من النظريات، تعتمد على تنظيم وتسلسل نادريين. والكتاب عامة يتحلى فى تأليفه تركيز ذهنى فائق، ونشاط فكرى متصل، وهو يحوى من الآراء المختلفة المتنوعة - مع بيان درجات تفاوتها الدميعة، ومن ذكر لأسماء ومراحىح لا تحصى - ما يدل دلالة واضحة على أن عقل المحاسبى فى فترة كتابته كان فى أوج نشاطه.

لذلك ترى أنه ليس من مؤلفات المرحلة الثالثة، وهو أيضاً ليس من مؤلفات المرحلة الأولى بالدليل القاطع؛ والمحاسبى يذكر فيه الخليفة المأمون على أنه قد مات، ونحن نعلم أن المأمون توفى عام ٢١٨ للهجرة، وبالتالي يكون المحاسبى ألف كتابه بعد الثالثة والخمسين من عمره، ولم يبق لنا سوى ترجيح أن «المكاسب» من مؤلفات المرحلة الثانية من حياته كاتباً..

أما كتاب «التوهم» فهو ممتاز بأسلوبه البليغ، وإن الوصول إلى مثل هذه المرتبة من البلاغة، مع اليسر فى التعبير، يحتاج إلى ممارسة للكتابة زمناً طويلاً، وهو الأمر الذى دعانا إلى عدم اعتباره من مؤلفات المرحلة الأولى..

ويدفعنا هذا الاعتبار إلى ترجيح أن الكتاب أنشئ فى بداية المرحلة الثانية من حياة المؤلف الأدبية..

من مؤلفات المرحلة الثالثة:

«كتاب الوصايا»..

منهجه في التفسير

نرى الكثير من المتصوفين يخالفون الفقهاء في بعض الآراء، ويراد فربق منهم أن يصفى شرعية على منهجه في التفسير، فأشأ ما سمي بالمعنى «الظاهر» والمعنى «الباطن»... وأرجع بالبحث - في سبيل ذلك - إلى قصص الخضر وموسى، وتاريخهما في القرآن - في رأى هؤلاء المتصوفين يبرر هذا الموقف من التفسير، ولكن يتضح مما قالوا أنهم غالوا وشطوا في الاعتماد على: «المعنى الباطن».

فأين عربى - مثلاً - كن بارعاً في ذلك، وتفسيره في «ديوان ترجمان الأشواق» نموذج حالى للمنهج المذكور...

ونريد هنا أن نتيين ما إذا كان المحاسبى يلتزم بمعنى النصوص، أم هو على العكس من ذلك يحاول أن يفرص عليها ما يراه.. فإن ما يسمى بالمعنى «الباطن» ليس في الواقع سوى تفسير للنصوص بما يتفق والآراء الشخصية، وكان هذا منهج الإسماعيليين والباطنية عامة، كما نريد حسم قضية التأثيرات الأحنفية لدى المحاسبى فإن كان يلتزم بأسنة التراماً صريحاً فلا محل - إطلاقاً - فيما يخصه للقول بها أو التساؤل عنها.. يذكر المحاسبى في كتابه «المسائل»، في أعمال القلوب والحوارج «الجملة المالية عن أبي الأحوص:

«لكل آية من القرآن ظهر وبطن، وحد ومطلع^(١)».

(١) محاسبى المسائل ص ١١٦ تحقيق عبد البار عطا سنة ١٩٦٩

ويفسر هذا بقوله:

أما ظاهره فبلاوتها، وأما باطنها فتأويلها، وأما حدها فمنتهى فهمها..
وعند هذه الخلة فرق الله سبحانه بين الكاديين والصادقين فمن تلاها، أو
من صادق بلغ منتهى فهمها، لأن أقل الصدق من المرید المؤمن بعد الإيمان
بآية أن يفهمها عن ربه، وإن لم يعمل بها.. وإنما قصر الناس عن فهمها
لقلة تعظيمهم لقائنها..

وأما مطلعها. فمجاورة حدها. بالغلو والتعمق، والفجور والمعاصي
فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾^(١).

وتبين لنا هذه الفقرات من كتاب المحاسبي كيف كان المؤلف يشرح
لفظ «لباطن» شرحاً يختلف كل الاختلاف عما سبق ذكره...

وفي بعض لصفحات من كتابه «أدب النفوس».. يتحدثنا المحاسبي من
الأعتماد على العقل فيما يتصل بالسنة، فالسنة لا تكتسب بالعقل، إنها
تكتسب بالتمثل بالرسول ﷺ، وبالحضوع لكلمات أقرآن، وبتأني
استنـ الشريعة، والاسترشاد بسير الخلفاء..

ولا أدل على مدى تمسك المحاسبي بالنص من الفقرات التالية من
فصل من كتاب الرعاية نعتبره النموذج الأمثل لمنهج هذا الصوفي، وهي
لا تبين عظم احترامه للنص فحسب، وإنما يعرض مبدأ الحق الواجب
الللجوء إليه في حال الشك.

ويتحدث المحاسبي في هذا الفصل عن سرور العبد عندما يظهر عليه
من عمله قبل قرائعه منه وبعد فراغه، وهل يحبط هذا السرور ثواب العمل
العمل عبد الله أم لا؟ ثم هل هو مدموم أم محمود؟..

(١) آية ٢٢٩ من سورة البقرة

والفقرات التي نوردتها من الفصل المذكور تتعلق خاصة بسرور العبد لثناء الناس عليه قبل الفراغ من العمل، وهي على شكل حوار مثلها في ذلك مثل سائر فصول الكتاب، يقول المحاسبى.

قلت: هيا اطلع عليه من قبل أن يفرغ من العمل فيسر بذلك
قال: ذلك مختلف فيه أحيث أم لا؟، إن كان سروره من حب المنزلة
والحمد...

قلت: أفليس قد روى عن النبي ﷺ في الحديث أن رجلا قال
يا رسول الله، أسر العمل لا أحب أن يطعم عليه فيطلع عليه فيسرقني
ذلك.

قال: لك أجران، أحر السر وأجر العلانية.

قال: هذا الحديث لم يقل فيه فيطلع عليه بعد فراغى منه أو قبل فراغى
منه، وقد يجوز أن يكون علم به قبل أن يفرغ منه، ويجوز أن يكون بعد
فراغى، فإن يكن قبل الفراغ من العمل فذلك أشد، وقد اختلف في ذلك؛
فقال طائفة: لا شيء عليه، لا يضره السرور منه بالعزم المتقدم لله عز
وجل بالإخلاص الذى به دخل العمل، وروى هذا الحديث، وحديثاً عن
الحسن أنه قال: نهى سروران، فإذا كانت الأولى لله عز وجل لم يضره
الثانية

وقالت فرقة: يحبط عمله إذا كان قبل الفراغ منه، لأنه قد نقض العزم
الأول وركن إلى حمد المخلوقين، ولم يحتم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العمل
بخاتمته..

وكذلك يروى عن معاوية رحمه الله، عن النبي ﷺ: «إن العمل

كالوعاء، إذ طاب آخره طاب أوله». أى العمل بخاتمته، وبالله استوفيق.
والحديث قد روى. «من رأى بعمله ساعة حبط ما كان قبله»،
ولا معنى لهذا عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هذا بالرياء قبل أن
يفرغ من العمل، فقد رأى بعمله ساعة فحبط ما كان قبله، ولا معنى لهذا
عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هذا قبل أن يفرغ من العمل، فقد
رأى بعمله، فقد حبط ما مضى منه وما بقى إلا أن يتمه على غير ذلك
العقد.

وأما حديث الحسن، فإنما روى. إذا كانت الأولى لله فلا تهدمه الثانية..
أى لا تكسره..

وأما ما روى في الحديث الآخر: لا يضره، فهذا معناه. ألا يدع العمل
ولا تضره الخطرة وهو يريد الله عز وجل، ولم يقل: إذا عقد على الرب
بعد عقد الإحلاص لم يضره.

وأما حديث ابنى ﷺ فليس في مسألة السائل، فإن. برسول الله،
فيسرني من قبل حب المحمودة، فيكون فيه حجة، وقد يمكن أن يكون
إذا لم يصرح لم كان سروره - لمعان كثيرة.

قلت: فما تقول أنت؟

قال. كنت لا أقطع عليه بالحبط، وإن لم يتزايد في العمل، ولا آمن عليه
الحبط، فكنت أفف لاختلاف الناس في ذلك، والأغلب على قلبي أنه يحبط
إذا ختم عمله بالرياء.

وأما اليوم فقد تبين لي ذلك، فأنا أقطع به، لأنه عمل على الرياء من
أول قدم، وختم عمله به، وقد أحبطت السنة عمل المرائي، وهذا قد حتم
عمله بالرياء..

قلت. فما تقول في الحديث الذي روى عن النبي ﷺ؟

قال: قد أحبرتكم بما يمكن أن يكون به سروره لاطلاعهم، وإن يكن للثمة أو لطاعتهم فيه أو للقدوة فله أجران: أجر للعمل، وأجر سروره، لأن سروره طاعة بربه عز وجل إذ ظهر عمله، فسر ليقتدى به، فأحبره النبي ﷺ أن له أجر ما ظهر من عمله فسر ليقتدى به.

وإن كان سروره لحب الحمد والثناء فذلك عقد الرياء فلا أجر له بصح في الكتاب ولا في السنة تأويل من تأوله

وإن السائل سأل عن ذلك فأجابه النبي ﷺ، وإن الأمة مجمعة على الكتاب والسنة أنه ليس فيها أن الله عز وجل يأجر على الرياء، ولا يقول ذلك أحد من علماء الأمة.

وإن أحسن حال المرائي أن يعفى له عما اعتقد من الرياء ويبقى له أجر عمله ولا يحبط، كما تأول من ترخص في ذلك واحتج بحديث الحسن أن ذلك لا يضره، فأما أن يقول أحد له أجر عمله وأجر سروره بالرياء فذلك مالا يقوه أحد، فإن احتج بالحديث فإنه لا يحتاج أن الله عز وجل يأجر على الرياء.

والنبي ﷺ قد جعل له أجرين: أجر أسر، وأجر العلانية، فأحسن أحواله أن يكون قال له. لك أجر ما أسررت، ولا يضرك ما ظهر..

وأما أن يكون له عى عقد لرياء أجر ثان فالذى لم يراء بعدما اطلع عليه، وأخلص لله قلبه، وتقى خطرات الرياء عن قلبه، أخس أجرا، والمرئى أعظم أجرا: له أجران على قياس هذا القول، وذلك مالا يقوله مسلم بعقل.

فلولا أن الرجل كان في مسألته ما يدل على أن سروره كان طاعة لربه وإن لم يكن له بذلك علم، وأشفق من اطلاعهم، وسروره به لقلّة عمه، فلا يمكن أنه كان سروره إلا ببعض ما ذكرنا من النعمة أو لطاعة من طلع عليه فيه. أو لأن يقتدى به

وقد روى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال: إنما معنى هذا الحديث أنه أراد القدوة، وقوله: أجر العلانية يدل على ما قال عبد الرحمن، لأن سروره سرور بما أعلى من فعله عندهم، فإن اقتدوا به كان له مثل أجرهم كما قال النبي ﷺ «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له مثل أجر من يعمل بها» والله أعلم بما أراد.

غير أن الكتاب والسنة لم يدلّا على أن له أجراً على الرياء، وأن الله عز وجل لم يجعل المرائي أعظم أجراً من المخلص.

ونأول بعضهم في ذلك، منهم عبد الرحمن بن مهدي، أنه قال: إنه ندم على ما اعتمد من الرياء، فلذلك جعل له النبي ﷺ أجرين. أجراً على طاعته، وأجراً على توبته.

وقد أخطأ من قال ذلك، لأن المرائي إذا ندم على ريائه أجر على توبته، وحبط عمله إذ قد أخطأه بالرياء، والحديث مع ذلك علمه من يرويه غير متصل، لا يرفعه إلى أبي هريرة، وأكثرهم يوقفه على أبي صالح^(١)، ومنهم من يرفعه إلى أبي هريرة، والله أعلم بحقوق الحديث أم لا؟، فإن كان محفوظاً فلا وجه له إلا ما ذكرنا، وإلا تركنا السنن بالتناقض له، وخرجنا من إجماع العلماء..

وقد يمكن أن يكون اطلع عليه بعد العمل فسر به، ولم يعلم لم كان

(١) وأبو صالح: كذاب

سروره؟ فأخبره النبي ﷺ أن سروره بذلك لا يضره، وأن له أجرين جر له على عمه، وأجر له فيما ظهر للعباد أن يعملوا بمثل عمله، فيؤجر فيهم إذا اقتدوا به، فدعاه النبي ﷺ إلى أن يكون سروره بالأحر فيهم لا بالرياء.

وإننا لنترك للمارئ أن يستخلص من هذا النص من «الرباعية» ما يراه، ولكننا نود هه إثبات الملاحظات لتالية.

• إن المحاسبي في عرصه للقضية يذكر مختلف الآراء.

لا يقطع في المسألة بغير يقين، فإذا ما ثبت لديه الرأي لا يتردد في الحسم.

- يربط القضية الخاصة محل المناقشة بقضية أخرى أكثر شمولاً ولا ثقل الجدل، وهى هنا حبط عمل المرائى

- إذا رأى في تفسير معين للحديث ما يخالف لسنة عامة، وناقض ما جاء بكتاب الله عمداً إلى شرحه، دون إخلال بقواعد التفسير، بحيث يتفق مع المبادئ الثابتة المأخوذ بها.

- يهتم اهتماماً واضحاً بالإسناد..

هذه الدقة في التفكير، وهذا الإخلاص في العرض، يبينان لمدى تعلق المحاسبي بالسنة، وتطبيقه لها في غير انحراف أو إعراض

المَبَابُ الثَانِي

فِي الْعَقِيدَةِ

• اللَّهُ

• مَوْقِفُ الْمُحَاسِبِي مِنَ الْفِرْقِ

• الْمُحَاسِبِي وَالْمَذَاهِبُ

• الْفَرَضُ وَالنَّفْلُ

• الْقِيَامَةُ فِي تَصَوُّرِ الْمُحَاسِبِي

الله

(أ) مفهوم فكرة الله:

كتب المحاسبى كثيراً في مسألة وجود الله. ولكن البراهين التي عرضها في هذا الشأن لم تصلنا بكامل تفاصيلها.

وفي القرآن نجد دليلين على وجود الله:

الأول منها: يخاطب العقل، ويقوم على أن لكل معلول علة وأن الخلق لا بد له من خالق.

والثاني: كأنه يخاطب الصمير فيسأل مثلاً:

﴿فِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

ونحن لا نعلم إن كان المحاسبى قد أتى بغير ذلك من البراهين، ولكنه على أى حال كان يرى أن شرط النجاة الأول للإنسان هو معرفة الله بالوسائل التي مكنه الله من معرفته بها.

وهذه الوسائل في رأى المحاسبى تكمن في خلق العالم وفي تنظيمه وفي قدره الله على منح الحياة لمخلوقاته وإماتتها.

أما ما وصلنا مما كتبه المحاسبى عن وحدانية الله، فهو كثير. ويبدو أن هذه المسألة كانت من شواغله الكبرى، مثله في ذلك مثل الكثير من

(١) آية ١٠ من سورة إبراهيم

المسلمين. وعظم شأن هذه المسألة لدى المسلمين عامة يرجع إلى ما أولا،
إياها القرآن والنبي من صدارة

وكان لابد للإسلام من أن يهتم بقضية وحدانية الله، لأنه قد نشأ في بيئة
الوثنية الشائعة بين عرب الجاهلية، ولذلك. حارب الإسلام تعدد الآلهة،
وسأل الكثير من مداد العلماء في الحديث عن قضية التوحيد؛ ومن أجل
القضاء على كل الآثار الوثنية، وندفاعاً منهم في تطهير مفهوم توحيد الله،
رفض المعتزلة القوم بصفات الله، محالفين في ذلك رأى أهل السنة، بل
اعتبر المعتزلة هذه الصفات بالشكل الذي صور به أهل السنة نوعاً من
تعدد الآلهة، إن المعتزلة اعتبروا الذات والصفات وحدة واحدة.

ويتحدث المحاسبي عن مسألة الوجدانية في الكثير من مؤلفاته وعلى
الأخص في الفصل المتبقى من «كتاب العظمة» الذي يتناولها بصورة
خاصة، والصفحات المحفوظة من «كتاب التبيين» التي يخبرنا فيها. بأنه
بحث الموضوع أيضاً في كتابه «فهم القرآن».

وهناك برهان يعتمد عليه المحاسبي في أغلب ما كتبه حول الوجدانية:
وهو البرهان المبني على الانسجام لدى يسود العالم في سائر أرجائه.

إن كل الموجودات في هذا العالم إنما وجدت لغرض محدد، وكل جزئية
منه إما هي أساس لجزئية أخرى ترتبط بها، وهذه بدورها أساس لأخرى،
فكل جزئية مخدوم أخرى وتخدمها أيضاً جزئية غيرها.

فالثبات مثلاً إذا كان الغرض منه وجود الحيوان، فهو نفسه لا يمكن أن
يكون له وجود إلا بالتراب ولا توجد له حياة إلا بالماء. وبالتالي؛ فالكل
سلسلة، وكل حلقة من السلسلة لازمة حتماً لتألف المجموع.

ويتحدث المحاسبي في استفاضة عن ارتباط الكل بالكل، فيشمل بيانه

السماء نفسها وما في السماء، كما بضمن الأرض، وما على الأرض من الأشياء:

ثم بين أن هذا التالف لا بد من أن يكون به خالق واحد، إذ لو كان هناك خالق ثان لما وجد التالف بهذا اجتماع اثنين وحد الاختلاف بالضرورة بين إرادتيها حيث يطلب كل منها أن يكون به الملك كله ولا يتأق بعير ذلك الكمال

ومن لم يطلب ذلك منها فهو إذن يقبل الوصف بأسفصان، ولناقص محتاج، والمحتاج مخلوق.

ومن ناحية أخرى، فمن أراد منها لملك و لكمال وأدركهما مع الآخر منها، وبالتالي فليس ممكناً أن يكون هذا الآخر هو الإله

وهذا الآخر، إذ أراد الملك والكمال ولم يدركهما فهو عاجز، ولو كان عاجزاً عما يريد لنفسه فلا بد وأن يكون عاجزاً عما يريد به بالسبب إلى الغير.

وإذن فنحن أمام أمرين لا يصح إلا واحد منها إما أن يكون كلاهما قادراً، وإما أن يكون أحدهما قادراً وفرص إمكان أن يكون الاثنين قادرين محال، لأن كلا منها يطلب الكمال بنفسه وتحقيق إحد الإرادتين يستلزم قضا الأخرى، وتحقيق الإرادتين معاً محال، لأن كلا منها يتطلب الملك كله

إذن، فليس إلا إله واحد، والقول بالتوفيق بين اثنين محال فيها يتعلق بالإله، لأن التوفيق لا يتأق بعير تنازلات متبادلة، أي أن يتشارك كل طرف عن شيء ما

وهذا محال بالسبب للإله، وهو من أمر المخلوقات.

ويقدم المحاسبي دليلاً آخر على وحدانية الله من الكوارث التي حلت بالشعوب الأولى وجاء ذكرها في القرآن، وقد حلت الكوارث بهذه الشعوب لأنها لم تصدق بما جاء به الأنبياء وهم يدعونهم إلى التوحيد. فالمحاسبي يؤمن بوجود الله وبوحدانيته وهو أيضاً يؤمن بخلوده، ويؤكد هذا الخلود دائماً ولكن براهينه على ذلك لم تصلنا في المؤلفات المتبقية عنه



أما فيما يختص بصفات الله، فلم نجد في كتبه التي وصلتنا تفصيلاً صريحاً مواقفه من الجدل الذي ثار حول هذا الموضوع بين المعتزلة وأهل السنة، ولكن رأيه مع ذلك يتضح لنا في يسر لسبيين:

الأول منهما، أنه يرفض ما قال به حهم في هذا الأمر^(١).

ومعروف أن جهماً كان ينكر الصفات ويرى أنها متضمنة في جوهر الذات الإلهية^(٢)، ويرفض المحاسبي أيضاً آراء المعتزلة الذين أخذوا بهذه الفكرة.

أما السبب الثاني: فهو موقفه المحدد كل التحديد من الجدل الخاص بخلق القرآن، وهي المسألة التي سوف نعرض لها فيما بعد.

وإن رفض آراء حهم والمعتزلة في صفات الله، ثم الأخذ بالرأي القائل بأن لقرآن غير مخلوق، أمران لا يدلان إلا على أن المحاسبي كان يؤمن بوحود الصفات مع الذات، ويتفق في موقفه مع أهل السنة وعلى أي حال، فالشهرستاني يؤكد لنا هذا، حيث يذكر أن المحاسبي من الذين جاهدوا

(١) المحاسبي، رعاية، ص ٢٤

(٢) الشهرستاني؛ كتاب الملل والنحل ج ١ ص ٩١

صد المعتزلة بشأن الصفات، وأنه اعتمد في ذلك على الآيات التي تقول بها، وأنه يتفق في الرأي مع مالك وابن حنبل^(١).

ولم نجد كذلك في مؤلفات المحاسبى التي وصلتنا تفصيلاً لموقفه من المشبهة.

ولكننا نرى إمكان تحديد هذا الموقف بما يلي

إنه يرفض رأى حهم الذى يعارض المشبهة.

ولكنه في نفس الوقت يرفض رأى المشبهة ويؤمن بأن الله لا شبيه له.

وكان هناك رأى وسط مثله مالك وابن حنبل، لا يأخذ بما يقول به

المشبهة، ولا ينقيض ما يقولون به، أى يرى حهم. وهذا الرأى الوسط

يتلخص في أن الله في القرآن يقول: بأن له اليد والعين فمن نصدق بذلك

كما أنه ليس هناك ما يدعو إلى تفسير هذه الآيات بالمجاز، ونحن

لا نعرف ما أراده الله بقوله هذا! والإيمان لا يحتم علينا أن نعرفه.

إن ما يحتمه الإيمان هو التصديق بأن الله لا شبيه له، وهذا ما نصدق به.

فإذا رفض المحاسبى رأى المشبهة ونقيضه لم يبق له إلا أن ينضم

إليهذا الرأى الوسط وهو الأمر الذى يؤكد لنا الشهر ستانى بقوله: إن

المحاسبى في هذا المجال يتفق في رأى مع مالك وابن حنبل^(٢).



هل الله في كل مكان؟

كاست هذه المسألة مثار جدل بين المعتزلة وأهل السنة.

(١) الشهر ستانى، كتاب الملل والنحل ج ١ ص ٣٦، ٣٧.

(٢) لشهر ستانى كتاب الملل والنحل، ج ١ ص ٩٧.

أما فيما يتعلق برأى المحاسبى بشأنها، فقد تفضل الأستاذ ماسينيون، باطلاعنا على نص لهذا التصوفى يحدده^(١).

و في القرآن آيات كثيرة فسرت تفسيرات مختلفة، وفي النص المذكور للمحاسبى نرى - يجمع لآيات التي تقول بأن الله في أعلى، أو في السماء، ويتحد هذه الآيات أساساً لمذهبه، ثم يفسر الآيات لأخرى - إلى تقول مثلاً: بأن الله معنا حبشاً كما - تفسيراً يتمشى مع هذا المذهب والمحاسبى يرى أن الله في السماء على عرشه، وليس الله حالاً في الأشياء أو المخلوقات هو مالك، لديك، فوق العالم، لا نظير له في جلاله ورفعته، وقوله إنه معنا، لا يعنى كونه معنا بذاته، وإنما هو معنا بعلمه



وفي نفس الفصل المذكور، يقول المحاسبى صراحة بأن الله ليس في أى من مخلوقاته

وهذا بغير لنا الطريق، ويفسر موقفه من وحدة الوجود.

وهو في كتابه: «المسائل في أعمال القلوب والحوارج» يروى الحديث التالي:

«من عادى لي ولياً فقد اذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالموافق حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعبدنه»^(٢).

(١) فصل من كتاب «هم لمراس» شرح من كتاب «تبيين لبيبه والغيبى» في الرد

على المدراس والحنبلية المطبوع بالقاهرة ص ٣٦٧

(٢) رواه الإمام البخارى.

ويقول المحاسبى. إن الحديث معناه أن الله يزيد عقل العبد وجسمه قوة حتى يريد من عبادته له بطاعته، ولكنه لا يعنى بأى حال أن الله كائن بذاته فى سمع العبد أو فى بصره: تعالى الله عن ذلك وقد رأى البعض تعميم فكرة وحدة الوجود لدى أغلب المتصوفين المسلمين.

ويسرنا هنا بوجه خاص أننا نستطيع نفيها نفيًا قاطعًا بالنسبة إلى المحاسبى على الأقل.

وما سبق ذكره يتبعه أيضًا أن المحاسبى لا يؤمن بحلول الله فى الإنسان. وهذا الرأى بالنسبة إليه ليس بالرأى العارض، وإنما نراه يكرره فى مواضع أخرى.

ونذكر على سبيل المثال تفسيره للحديث القدسى.

«يا بن آدم إن تقربت إلى هنرا تقربت إليك شبرًا، وإن تفرقت إلى شبرًا تفرقت إليك ذراعًا، وإن تقربت إلى ذراعًا تفرقت إليك باعًا، وإن أتيت سعيًا أتيتك هرولة». يقول المحاسبى فى هذا الحديث.

«وإنما هذا على حسن المعونة، وسرعة الإجابة، والهداية بالعدد والتوفيق، والاكتداف بالعصمة^(١)».

ويذكر نفس الحديث فى موضع آخر^(٢) فيقول إنه يعنى العون والتوفيق، ثم يضيف أن الله لا ينزل إلى أحد سواء كان العبد تقياً أم كان عاصياً.



(١) من «الرعايه» ص ١٢

(٢) فى المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ص ١٢٨

والمحاسبى يرى أن الله الاختيار فى كل ما يريد. ولا حق لخلقه عليه وهو يقصد بحديثه هذا المعتزلة الذين يقولون بأن للناس على الله حقوق، وبأن الإنسان الذى فعل الخير سوف يكون له ثواب، وبأن الله ستحتم عليه منح أفضل ما عنده للمخلوقات البشرية إذ يعرض عليه ذلك العدل والحكمة. «فكرة الصلاح والأصلح».

أما المحاسبى فيقول: إن الله يفعل ما يريد. يعفر أو لا يعفر حسب ما يشاء. فالعالم من خلقه، والعالم مكنونه، وموقفه من هذه المسألة هو - فيما يبدو - الموقف لتقليدى.

فهو يقول بأن الله هو الكمال لمطلق وبأن عدل الله لا بد أن يكون كمال العدل، ثم يكرر أن الله هو الرحمة وهو الكرم لا يبتلى العبد إلا ليريده تقوى فيريده قريباً، فالأمراض مثلاً ليسبب لا وسيلة تطهير الإنسان من ذنوبه والمحسن التى نرى به هدفها أن تفتح قلبه على البحث عن سبل الالتجاء إلى الله.

ولكن إذا كان الله هو الرحمة، فكيف يكون البلاء العظيم.
وهو عصيان الله الذى يؤدى بالإنسان إلى الجحيم؟

يتحصى المحاسبى من هذه المشككة بقوله مثلاً: إن من ملك الله، وإذا تصرف الإنسان فى شيء من ملكه فلا يقال له هذا ظالم أو هذا شر، وعلى أى حال فقد حقق أهل السنة لتوفيق بين القول بعدل الله، ولقول بأنه يفعل ما يشاء، فقوا. إن العدل الإلهى معناه: أن الله يفعل ما يشاء، بإرادته وبعلمه فى ملكه ولا كان الأمر كذلك فظلمه إذن محال ونحن نعتقد أن المحاسبى لم يخرج عن هذا الرأى.

هناك انجاء إلى الموازنة بين مفهوم المسلمين لله ومفهوم المسيحيين له

فيما يختص بحبه لمخلوقاته: حيث يبرز لله في المفهوم الإسلامي - كما يرعمون - إلهًا شديد العقاب، بعيدًا كل البعد عن مخلوقاته، ويبرز في مفهوم المسيحيين إله رحمة وعطف لا ينفى ويبعث عن لسان الضالة لمهديها.

والواقع أن القرآن يسخدم - في سبيل استعادة العاصي إلى الطريق السوي - التهديد بالجزاء والوعد بالثواب. وإن وُصف الله بأنه شديد لعقاب، فهو إلى جانب ذلك لغفور الرحيم المحب لعباده ولا يدري لأي عرض يد أب البعض في عرضهم للمفهوم الإسلامي، على تفصيل جانب الوعيد فيه، وكتمان جانب الوعد الحميل، فيزداد الخلاف بين أتباع الدين الإسلامي وأتباع المسيحية.

وليس لنا هنا أن نشرح هذا الأمر أو أن نقول فيه رأينا الخاص، ولكننا نريد فقط أن نعرض لما قاله المحاسبي في هذه القضية، إذ يحدثنا بما يلي في كتابه: «ماهية العقل»^(١) فيقول عن الله سبحانه:

بدعوك إن أدبرت، ويقبلك إن رجعت، ويحمدك على حظك، ويشني عليك عما وهب لك، ويحضك عن الطر لنفesk.

إعما يُرضك ليُصْحَك - إن عقلت ويفقرك ليغيبك. ويمنعك ليعطيك يمنحك لقليل الفاني لترضى فيعطيك الجريل الباقي، ويحبك ليُحببك، ويفيك ليبيك، ويداويك بالأمراض لتبرأ من سقم الدوب، ويعمك بالأوحاع ليعسلك من درن الخطايا ويعركك بالبلاء ليلين قلبك لطلب لقوز.

ابتدأك بالنعم قبل أن تسأله، وثأها بعد ما ضيعت شكره، وأدامها بإحسانه مع دوام الإعراض منك عنه^(١).

(١) ماهية العقل للحارث المحاسبي ص ٢٣٧

ولسوف نزيد من إيضاحها لموقف المحاسبي عند عرضنا لفهوم الحب لديه فيما يلي من هذا البحث

ويرى المحاسبي: «أن العقل عن الله تعالى لا عاية له، لأنه لا غاية لله عز وجل عند العاقل بالتحديد، بالإحاطة بالعلم بحقائق صفاته، ولا بعظيم قدر ثوابه ولا عقابه، إذ لم يعانها.

ولو عاين الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه بصفاته لما أحاط به علما. ولكن قد يقع اسم الكمال على الأغلب في الأسماء في العقل عن الله تعالى، لا العمل بكمال الذي لا يحتمل الزيادة.

الا تراه عز وجل يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١) وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٢).

وروى عن الملائكة أنها تقول يوم القيامة:

«رب ما عبدناك حق عبادتك».

فلا أحد يساوي الله عز وجل في العلم بنفسه، فيعرف عن عظمته تعالى كمال صفاته كما يعلم الله عز وجل عن نفسه.

فأعظم العاقدين عنده، العارفين عقلاً عنه ومعرفة به، ان الذين أقروا بالعجز، إنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته»^(٣).

وفي القرآن:

﴿إِلَهُ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

(٣) العقل وفهم القرآن ص ٢١٩، ٢٢٠

(١) طه آية: ١١٤

(٢) طه آية: ١١٠

أَيَّدِيهِمْ وَمَا خَلَقَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا نَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ^(١)

(ب) الله والعالم:

خلق الله العالم لا من شيء^(٢)، والعالم ليس بحالد، والدليل على عدم خلود العالم عند المحاسبي هو الدليل الشائع المؤسس على القول: بأن الحركة الملازمة للمخلوقات ليست بحالدة.

فهو إذن يبرهن على عدم خلود العالم بعدم خلود الحركة^(٣).

وخلق الله اناس في العالم، ولم يتركهم لعقلهم يهديهم ويرشدهم إليه، بل أرسل إليهم الرسل، هداة للحق وخاتمهم النبي محمد ﷺ.

وهؤلاء الرسل جميعاً من البشر، وهم خير البشر، ولكنهم لا يتصفون بغير صفات البشرية. والمحاسبي لا يرى في محمد سوى بشراً وحى الله إليه بالرسالة طبقاً لما جاء في القرآن والحديث؛ ولم يطر إليه قط على أنه أكثر من بشر، إن محمداً ﷺ كان عبد الله ورسوله اصطفاً، لوحيه وختم به أنبياء^(٤).

جاء بالرحمة لبني الإنسان جميعاً، الذين يتبعونه منهم والذين يتولون عنه على حد سواء.

فأما الذين اهتموا بهديه فلهم الجنة ورضوان من الله، ومن كان منهم يرتكب الذنوب فسيديقه لله العذاب، ثم يعفو عنه وهو الغفور الرحيم بعباده.

وأما الذين تولوا فلم يرل الله بهم في حياتهم الدنيا من الكوارث مثل

(٣) كتاب العظمة، ص ٢٧

(١) البقرة: ٢٥٥

(٤) المحاسبي: استرشده، ص ٢١

(٢) الرعاية، ص ٥

ما أنزل بالشعوب الأولى التي ضلت عن سبيله وعصته^(١).

والأدلة التي يعتمد عليها المحاسبي إثباتاً لنبوة محمد ﷺ، هي الأدلة الشائعة لدى المسلمين، فالقرآن معجزة، لم يستطع بشر أن يأتي مثله أو مثل سورة منه.

ثم هناك المعجزات الأخرى التي حصلت خلال حياة النبي ﷺ، وذلك التي وقعت بعد مماته، أي الأمور التي تنبأ بها وتحققت فعلاً. وقبل ذلك كله فهناك ذكر الله لمحمد بأوصافه في الكتب السماوية السابقة على القرآن^(٢).

ولكن المعجزات في هذا العالم لا تقع في كل مناسبة وبغير مناسبة والمحاسبي يصع لها حدوداً. ورأيه هذا جدير بالتقدير والإعجاب؛ خاصة إذا علمنا أن أنصار الصوفية بالذات كانوا أكثر الفائدين بالكرامات تحملاً، وكانوا يرونها في كل أمر، وإذا تصفحنا الكتب الجامعة للتراجم ولا سيما تلك التي ألّفت في عصور تدهور التصوف الإسلامي - لوجدنا أنها لا تكف عن ذكر الكرامات بغير حساب.

أما المحاسبي فيرى أن الأنبياء وحدهم يختصون بالمعجزات وهي من دلائل نبوتهم، وأنه ليس للبشر من غير الأنبياء أن يأتوا بالمعجزات، ويتحدث عن إبليس في «كتاب المسائل في الزهد»، فينكر معرفته بأسرار قلوب الناس:

«... لأنه لا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلا الله رب العالمين، فهذا علم وصف الله به نفسه، فلا يعلمه أحد إلا من وصف من رسله. قال الله تعالى:

(١) المحاسبي: كتاب العظمة، ص ٢٨

(٢) المحاسبي: كتاب العظمة، ص ٢٨

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾^(١).

وليس الشيطان من رسل الله عز وجل.

وقال عيسى عليه السلام:

﴿وَابْتَئِكُمْ بِمَا تَكُلُونُ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(٢) فما في القلوب أحصى

بما في البيت.

ومن حجج المبين عليهم السلام أنهم يخبرون من يدعون بما يحدثون به أنفسهم بما يعلمهم الله عز وجل، ولو كان الشياطين يعلمون (دخائل الناس) ما ثبتت حجج المبين، معاذ الله أن نقول هذا، ولو علمت ما في القلوب، كان ما في الأرحام أظهر مما في القلوب»^(٣).

ويقول المحاسبى في «كتاب المراقبة»: إن من يزعم أنه رأى أمورا تتعلق بالحياة الأخرى أو بالله أو بعرشته، ومن يزعم أنه رأى الله فهو كاذب، ومن زعم أنه رفع إلى السماء وكلم الله، أو زعم أنه أوحى إليه فهو صال يريد أن يصل الناس، ومن زعم أنه رأى الملائكة والجنات فهو كاذب.. وعليك محاجة من يقول بمثل ذلك.

ويكرر المحاسبى نفس المعنى في كتب أخرى له



عن القرآن:

أنزل الله القرآن على محمد ﷺ، والقرآن ليس بمخلوق، وهنا يتجلى

(١) سورة الجن آية: ٢٦، ٢٧

(٢) آل عمران آية. ٤٩

(٣) المسائل في أعمال القلوب والجوارح ص ٨١، ٨٢

موقف محاسبي من مسألة الصفات، التي منها تتفرع مسألة خلق القرآن، وهو يرى أن القائمين بخلق القرآن قوم ضالون^(١).

ويقول لكلا باذی:

إن رأى لمحاسبي في كلمات الله أنها من صفات الله القديمة ولم تحقق^(٢)، ولكن محاسبي الذي يؤمن بأن القرآن لم يخلق يرى في نفس الوقت أن الأحرف التي تكون كتاب الله مخلوقة^(٣).

وفي القرآن تفسير كل شيء^(٤)، والفرق بين القرآن وبين كلام البشر كالفرق بين الله وبين المخلوقات^(٥).

والمحاسبي يوصي على الدوام بالتأمل في القرآن، وبالخضوع لأحكامه وأوامره في الأعمال.

وهو يرى في القرآن والرسول بياناً من الله للبشر، كما يرى أنهم تحذير منه حتى يعلم المالكون حقيقة أمرهم^(٦).

ولكن، هل نحن أحرار في اختيار سبل نجاتنا، وهل في إمكاننا أن نهندي إلى معرفة ما هو خير لنا؟

أما فيما يختص بإمكانية المعرفة، فالمحاسبي يرى أن لعقل الذي منحنا الله قادر على الفكر، وعلى معرفة حقيقة ما أنزله الله، كما يرى أن كل إنسان بلغ سن الرشد، ومن الله عليه بالعلم والكتب، وأبصره بخلقه الذي

(١) الرعية ص ١١١

(٤) أدب النفوس: ٩٥

(٢) التعرف: ١٩

(٥) أدب النفوس: ٧٠

(٣) مسألة الخلاص للمسيحيين ص ٢٩

(٦) رسالة المسترشدين ٢٦

يشهد بالخالق، قد تحمل مسئولية ناتجة من أنه عاقل^(١) والله لا يهلك قوماً إلا ويذكرهم ويخاطب عقلهم بما يفهم من غير..

وإذا كان الله قد من علينا بالعقل فلكي يحاطبنا برأسطته^(٢) ولكن المحاسبي يرى أن عمل العقل بالنسبة للوحي يجب أن يقتصر على التبشير بما أنزله الله، وأن دوره ليس أن يستبد بالفكر، ولكن أن يثبت صحة ما أنزله الله^(٣)

هل لنا الاختيار في العمل والسلوك عامة؟

هل لنا الاختيار في الخير والشر؟

أم أننا لسنا سوى آلة في يد المقادير؟

لواقع أن إيضاح موقف المحاسبي من هذه التساؤلات أمر شاق: كان كل نشاطه وعمله ابتغاء لإصلاح الظروف الأخلاقية للناس، فهل كان للناس اختيار في اتباعه هو بالذات؟

وإن لم يكونوا كذلك، فلماذا بذل جهده لإصلاحهم؟ ومن ناحية أخرى فهو يذم المعتزلة لفولهم بالاختيار؛ ثم هو يقول.

«وسوف نعرض لهذا الموضوع تفصيلاً فيما يلي من بحث»

إن الله علة كل عمل، وإنه لا شيء إلا من الله وبه^(٤). بل إننا نجد من بين كتاباته ما يعنى أن مصير الإنسان أرادته الله له، وحدده أولاً حيراً كان أو شراً^(٥).

(٤) لرعاية ص ٩٧

(١) ماهية العمل: ١٠٥

(٢) المحاسبي: ماهية العمل ص ٢٠٦، ٢٠٧، (٥) ماهية العقل ص ١٠٩

(٣) المحاسبي ماهيات العمل ص ١٠٨

ومن الأمور ذات المعزى: أن المحاسبي في رفضه لتذهب جهنم دم شطره الخاص بوحدة الدات والصفات لا ذلك الذي يتعلق بالخبر والاختيار^(١) وبالإضافة إلى ذلك، فالشهرستاني - الذي يضم المحاسبي للسفيين - يخبرنا بأن السلفيين كانوا جبريين، يؤمنون بأن كل نعمة وكل كربة من الله^(٢).

ومع ذلك نجد المحاسبي مصرّاً في دأب على السعي لإصلاح الناس، ونجده يهتم اهتماماً فائقاً بالوعظ والإرشاد، ويصرح بأن ذلك قرص واجب على المسلم.

فلا مأس وأمره هذا من القول بأنه لم يأخذ بالجبرية على إطلاقها

(ج) ما ينتج عن معرفة الله:

رأينا فيما سبق أن قدرنا على معرفة الله محدودة، ولكن ما هو نتائج هذه المعرفة في الحدود المتاحة لنا؟.

يقول المحاسبي:

«إذا تم عقل المؤمن عن ربه أمره عز وجل بالوحد له في كل المعاني، فعلم أنه مالك له لا غيره، وأن عتيق من سواه، فتواضع لعظمته، واستعبد وخضع لجلاله، ولم يدل لم سواه، وعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات، المنتزه من كل لافات، منعم بكل الأيادي والإحسان، فاشتد حبه له، لما يستأهل لعظيم قدره، وكريم فعاله، وحسن ياديه.

وعقل عنه أنه لا يملك معه وضره في دنياه وآخرته إلا هو، فأمره

(١) الرعاية ص ٢٤.

(٢) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل ج ١، ص ٥٤.

بالخوف والرجاء وحده، وآمن به، وأيس من جميع خلقه
فهو مَوْحِدٌ له إِدْ عَقْلٌ وحدانيته وتفرُّده بكل معنى كريم، ووصف
جميل، وجلال وعظْمة، ونفاد قدرته، ومضى إرادته، وإحاطة علمه، وقديم
أرليته وأوليته.

فإِذْ كان كذلك رايل الكبر على (العبد) خضوعه خلال مولاه فتواضع
للحق، ولم لا يحقر مسلماً لشده معرفته بصغر قدر نفسه، ولما حى من
لديوب على نفسه، ولعلمه بأن خواصم الأهل بسوء العواقب وحسن
لحاجة من الشقاء والسعادة، قد سبق بهما العلم، وتقدت فيهما المشيئة.

فقد آمن من عرفه كبره وبعيّه، وقد عفل عن الله حلّ وعر حججه على
حلفه وأعداره إلى حلفه بأنه ليس هم بطالم، وأنه قد بدأهم بالرحمة قبل
العقوبة وقد سبقت (مه) الأيادي قبل الشكر، طويل الحمد، دائم التأنى،
جميل السر، مقيل العثرات، مخيس إلى من تبغض إليه، متقرب إلى من
يباعد منه، وعفل عنه أمره وآدابه وأحكامه، وعف داء النفوس ودواءها

فمن عرفه امل الرشد منه، وأن يحيا بمنطقه، ويعفل عن الله حل ذكره
بتأديبه له.

وعفل عن الله عز وجل ما عظم من قدر ثوابه في حنته بدومه، وطيب
العيش فيه، وروال الآفات والتكدير والتنغيص والمقص عنه، وأنه فوق
ما تحب النفوس، لا يُحسن أحد أن يخطر بباله ذكر كثير بما أعدّ فيها.

وقد قال الرسول ﷺ:

«أعد الله عز وجل في حنته ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
على قلب بشر»

وكفاك بالله تعالى واصباً عما أعد لأوليائه إذ يقول عر من قائل:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيتَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١)

بعد أحبريا أنه جاور في الكمال، والنعيم وقره العيون، وصف
الواصفين، ومعرفة العارفين، وذكر الذاكرين لجميع النعيم، فعظم في قلبه
حوار مولاه، وما أعد فيه لمن أناب إليه وأطاعه، فشخص إليه بعقله،
فاتصل ما استودع قلبه من العلم بذلك لمشاهدته بعقله حتى كأنه رأى عيه
وكما قال حارثة.

«كأنني أنظر إلى عرش ربي بارئاً وإلى أهل الجنة يتزاورون».

وكما قال الحسن وذكر أولياء الله في الدنيا، فقال:

«صدقوا به فكأنما يرون ما وعدوا رأى العين».

فما اتصل عقبه بمشاهدة ذلك حن واشتاق، فلما حن واشتاق تعلق قلبه
واشتعل، فلما اشتعل قلبه بالشوق إلى جوار ربه سلا عن الدنيا فلما عنها
ولم يفكر في دار الدنيا - أين هي من جوار ربه إذ بقول عز وجل:
﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٢)

قيل في التفسير: تفكروا فيها فاعلموا أن الدنيا دار فناء، وأن الآخرة
دار جزاء وبقاء - فعقل بعث ربه لزوال الدنيا وفنائها، وأن كل ما أخذ
منها لغير القرينة إلى ربه في جواره ماقص من درجات القرب، وكمال النعيم
في جوار ربه، وأن فيه الحساب والسؤال عن نعيمها بالحس عن السبق في
أوائل الزمن إلى جوار ربه ومولاه، وأنها مشعلة له عن الاشتغال بربه
ما دام فيها حتى ما يعدله من الأنس بربه وحلاوة مساجاة سيده
فارتفع قلبه عنها وتمي أن لو استغنى أن يتناول منها شيئاً، فلم يجد بداً
من الأحذ منها ما يعويه على طاعه ربه خوفاً أن يمسك عن الفوت فينقطع
عن عبادة ربه

(١) السجدة آية: ١٧.

(٢) من سورة البقرة: ٢١٩، ٢٢٠.

فكان نصيبه منها اقوت من الغداء، ولم يتكلف ما جازُ بلعة اقوت من عدائه وستر عورته، وإن تكلف طلبه لم يتكلف إلا لقربة إلى ربه، فإن ابتلى منها بما فوق غذائه، وستر عورته من مثل ميراث أو غيره فمبدول كله لربه يفرح بإخراجه، ويعتم أن يمكث عنده أقل من طرفة عين

وعقل عن الله تعالى آياته في تدبيره وحكمته في آثار صنعته، ودلائل حسن تقديره، فعلم أنه بقدرة مائة قدره، وبحكمة كاملة أتقها، وبعلم محيط اخترعها، وبسمع ناهض سمع حركاتها، وببصر مدرك لها دبر لطائف خلقها، وغوامض كوامها، وما ورته حبيبها وسويرة.

فاستدل بذلك أنه الإله العظيم لدى لا إله غيره، ولا رب سواه، فكان جميع الأشياء عين يعتبر بها، ويحلُّ ويُعظَّم لما يرى ويسمع (من) مولاه وسيده، فدام ذكره، ورالت عن الله عز وجل غفلته، وغفل عن الله تعالى أنه ما يبيله غاية العلم به، ولا بلطائف محايه: والقرب إليه، ولهم لما كنه به، فكان مع سيده اجتهاده، ودوام اشتغاله بربه، غير تارك ولا مقطوع عن طلب الازدياد من العلم بربه، والتزيد في الفقه عنه أعلى في قلبه، وأعظم عنده قدر من الازدياد من كثير أعمال النوافل، إذ عقل عن ربه أن أقل قليل المعرفة يورث التعظيم والهيبة، ويبعث على الاجتهاد، ويورث اطاعات، والشغل عن جميع العباد.

وعقل عن الله تعالى أنه ابتداء عباده بالرحمة والتفضل والإحسان بعد تقديم العلم منه لهم أنهم سيعصونه ويخالفون أمره، فلم يبعه ذلك عن ابتدائهم بالنعم والتحنن والرحمة والإحسان. وحمل أفضل أوليائه عنده، ارحمهم بخلقهم، المحسنين على عباده لصالحين لبريته، وهم رسده الدعون العباد إلى نجاتهم، والمحذرون لهم من هلكتهم، استحملون منهم الأذى، والمتحنتون عليهم بالرحمة والنصح والإشفاق، مع أدهم لهم، وتكديبهم

إياهم، واستهزأهم بهم، لا يكافئونهم بمثل ما نالوا منهم، ولا ينصرون
عن الإشفاق عليهم إذ سمعوا الله جل ثناؤه يصفهم، إذ قالوا لروح.
﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي صَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

وقالوا لهود.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾^(٢).

ثم وصف جوابها فقال نوح:

﴿لَيْسَ بِي صَلَاحٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَّبِعُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي
وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣).

وصف رد هود عليهم فقال.

﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَّبِعُكُمْ رَسُولَاتِ
رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِيرٌ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَّكُمْ فِي
الْحُلُقِ بَصُطَةً، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾^(٤).

أى تظفرون بثوب الله إن قبلتم مني، فأخبرهم بعد تسفيهم له، أنه لم
ينصرف من أهل ذلك عن النصيحة لهم لعلهم يفلحون.

وقال إبراهيم عليه السلام.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ﴾^(٥).

(٤) الأعراف آيات ٦٧ - ٦٩

(٥) إبراهيم آية: ٣٦

(١) الأعراف آية ٦٠

(٢) الأعراف آية ٦٦

(٣) الأعراف آيات ٦١ - ٦٣

وقال النبي ﷺ، ووصف نبيًا من الأنبياء شحده قومه فهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول:

«رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وروى أن نوحًا عليه السلام، كان يخشعه قومه حتى يعشى عليه، فإذا أفاق قال:

«رب اغفر لقومي إهم لا يعلمون».

وفضل النبي ﷺ، صديق هذه الأمة عليها بالرحمة لها، فقال:

«أرحم أمتي بها أبو بكر».

فلما عقل عن الله عز وجل، ما ابتدأ العباد به من الرحمة، وأنه خص أعظم خلقه عنده قدرًا، وفصله بها على جميع العباد.

ألم قلبه رحمة الأمة فأحب محسبهم، وأشقى على مسيئتهم، ودعا إلى الله سبحانه إذا أمكنه - مديهم، ولم يدحر مالا عن فقيرهم، ففضل ماله عليهم مبدول، والمواساة في قوته منهم المجهود، من سأله منهم ما يقدر عليه لم يتبرم بطلبه، ولم يصجر بإعطائه لرحمة التي لهم في قلبه، ومن آذاه وأساء إليه لم يجد في نفسه كراهية للعفو والصفح عنه، بعدهم جميعًا كأقرب الخلق منه. كبيرهم مثل أبيه، وصغيرهم كولده، وقرنه كأخيه، فكل هؤلاء يجب الإحسان إليهم، وأن لا يفارق قلبه الشفقة عليهم.

وعقل عن الله تعالى عظيم قدره، وقدر ما يطلب من ثوابه، وما يخاف من عقابه، وعظيم الأيادي وكثرة النعيم عنده، وأن جميع خلقه من أهل سمواته وأرضه لو دأبوا جميعًا واجتهدوا عمر الدنيا كلها وأبدًا ما أدوا شكر نعمه ولا أدوا ما بحق في عظمتهم.

فكيف بالحلول في جواره، والسحابة من عذابه؟.

فقد عقل أي رب يعبد، وأي ثواب يطلب، ومن أي عقاب وعذاب

يهرّب وأى نعيم يشكر، والشكر أيضا ممن هو، ومن من به ؟
 فلما عقل ذلك كله عن ربه استقر واستصغر جميع دؤوبه واجتهاده،
 لعظيم ما عقل من جميع ذلك»^(۱).

(۱) العقل وفهم القرآن ص ۲۲۱ - ص ۲۲۹.

موقف المحاسبي من الفرق

كان للفرق في الإسلام منبعان:

أولهما: السياسة التي نشأت عنها فرقتان: الخوارج والشيعة، إثر مشكلة الخلافة، وهي مشكلة سياسية أساساً وإن استقرت بالدين.
وثانيهما، يرجع بالتحديد إلى الخلافات الدينية التي نشأت عنها المعتزلة والجهمية والمرجئة.

وفي مواجهة كل هذه الفرق كان يقف أهل السنة. ويروى أن المحاسبي اندفع في حماس بالغ في الجدل ضد فرق عصره، وعلى الأخص المعتزلة.

وبين أيدينا نصوص ثلاثة^(١) في مؤلفاته تدم فرقاً مختلفة. أما فيما يتعلق بالخوارج والشيعة، فمن السير تبين أسباب ذمه لهما. لقد كان شعار الخوارج: لعن عثمان وعلى، وجعلوا ذلك أمراً يسبق ما عداه ثم كانوا يكفرون من يرتكب الكبائر، ويرون من الواجب على الناس أن يخلعوا كل خليفة لا يسمع السنة^(٢)، ونحن نذكر أن رجلاً مثل المحاسبي يخلص الاحترام للصحابة، لم ير بداً من الحملة على الذين ينالون منهم.

(١) الأول والثاني في «الرعايا»، ص ٢٤، ١١١، والثالث في «كتاب الوصايا»

ص ٢٠.

(٢) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، ج ١ ص ١٢٤

ونراه في «كتاب لمكاسب»^(١) يأخذ برأى على في الخوارج وكان على يقول:

«لا بد من إمارة برة أو فاجرة، حتى تستمر وحدة لأمة، وتتصرف أمورها».

وكان الخوارج دائمى الثورة على الخليفة، يشيرون في الناس الفتنة لأدنى القضايا شأنًا.

ولم يكن المحاسبى وهو المسلم الذى يصبو إلى نمو وزدهار الأمة الإسلامية - ليقف موقف اللامبالاه أمام عمل فرقة: أدت هذه الأمة، ولم يجد غضاضة في إيدائها ما قدر لها ذلك.

إنه يسمى الخوارج بـ «الحرورية» وعالم الظن أنه يقصد بهذا الاسم حديثاً اختلقه أعداء هذه الفرقة السياسيين ونشروه بين الناس، وهو الذى يذم قوماً: «يخرجون من حروراء».

أما عن أشيعه: فالمحاسبى يعارض على الأحص هريفاً يغالى في تقدير مكانة على، ويرفعه فوق البشر، بل يرى فيه حوائب إلهية.

وقد اندفع أتباع هذا لفريق مقالين في نقد الخلفاء الراشدين الثلاثة، واتهامهم كل من عارض علياً من أمثال عائشة وطلحة والزبير، وسمى مذهبهم بـ «الرافضة»، وهو المذهب الذى استنكره المحاسبى أشد الاستنكار وذهمه ذمًا عبيطاً.

أما الزيدية، وهى المذهب المعتدل في لشعة، فالشهر ستاى يروى أن أتباعها كانوا جميعاً معترلة

ونحن نعتقد أن المحاسبى لم يعارض لزيدية هذه لسبب بسيط، وهو أنه

(١) ص ٢٣٢ من الكتاب تحقيق عيد القادر أحمد عطا.

يشملهم في نقده للمعتزلة وحملته عليهم

وبصفة عامة، يمكن القول: أن موقف المحاسبي لم يكن نشيئاً من قريب أو بعيد. أنه عند ذكره للخلفاء يوردهم بترتيبهم التاريخي، وهو يرى فيهم صفوة الأمة.

ويقول عن أول الخلفاء: إنه أشد الخلق بعد نبيه في دينه، وأقومه بأمره»^(١)

ويصف عائشة - التي اتفدها الشيعة أعنف افتقاد - بأنها «أم المؤمنين».

ومن الأمور ذات المغزى الواضح أن حديثه عن علي لا يتضمن أى تقدير خاص به، يفرق فيه بينه وبين الخلفاء من قبله كما اعتاد الشيعة في حديثهم عن علي رضى الله عنه.

هذا فيما يختص بالفرق التي نشأت بسبب الظروف السياسية.

أما عن المعتزلة والجهمية، فقد تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل. ولكننا نود أن نضيف - فيما يتعلق بالجهمية - أن الشهرستاني - وكان يعتبر المحاسبي من السلفيين - يجبرنا أن جميع لسلفيين ينتقدون الجهمية ويعارضونها^(٢)

وأما عن المرجئة، فلعل السبب في موقف المحاسبي منهم، موقف العداء، إيمانهم للقيمة العظيمة بالنسبة للأعمال المسحوية

ومذهبهم في جوهره لا يخلف كثيراً عما يدعو إليه المحاسبي. ولكن نفس هذا المذهب كان ينتهى بهم إلى اللامبالاة بطاعة قه.

(١) في كتابه «المكاسب» ص ١٩١ تحقيق عبد القادر أحمد عطا

(٢) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل ج ١ ص ٩٢.

ولعل حديث أحد قادة المرجئة يوضح ما نذكره من أن الاختلاف بينه وبينهم ليس بالخلاف الجوهرى:

يقول يونس السامري: إن الإيمان هو معرفة الله، والخشوع له ومحبة، ومن جمع هذه الصفات فهو مؤمن، وطاعة الله ليست بالجزء الذى لا يتجزأ من الإيمان وإيمانها لا يعنى الانتقاص من شأنها.

وإذا كان الإنسان محلصاً في إيمانه فسوف يعمر الله في الآخرة ما أهل من طاعته

وقد يقال بناء على ما عرضناه: إن الهوة كبيرة بين هذا المفهوم، ومفهوم أهل السنة، ولكن الأمر لذى يدعو إلى اعتقاد بأن الاختلاف في الواقع ليس بذى شأن: وجهة نظر قائد المرجئة المذكور في الخشوع لله ومحبة، إذ هو يفسر ما سبق بقوله:

«إذا امتلأ قلب المؤمن بالخشوع لله ومحبة، لم يعصه ولم يرتكب الذنوب»^(١)

فالحقيقة إذن أن الإيمان في ريه إذا ملأ قلب الإنسان كان من نتائجه ترك معصية الله. بيد أن مذهب المرجئة هذا في عمومته لا يهتم بمسألة الثواب على الأعمال، وهذا هو السبب في معارضة المحاسبى لهم ودمه إياهم.

(١) الشهرستانى ج ١ ص ١٤٥، ١٤٦

المحاسبى والمذاهب

يقال عدة - وإن لم يكن هذا لقول دقيقاً - إن في الإسلام مذاهب أربعة: الحنفى، والمالكى، والشافعى، والحنبل.

ويبدو أن مؤسس المذهب الأول منها، وهو أبو حنيفة، لم ينل عنايه المحاسبى، فهو لا يذكره، ولا يورد اسمه في مؤلفاته

ونرى أن سبب هذا الموقف يكمن فيما يرويه لما الشهرستانى من أن أبا حنيفة وصف خطأ بالمرجئ - هذا مع العلم بأن الشهرستانى نفسه، في صفحة تالية من كتابه، يصف أبا حنيفة في صفوف المرجئة^(١).

وواقع أن مذهب أبى حنيفة في العقيدة الإيمانية قريب جد، من المرجئة، وإن لم يكن مرجئاً.

وبالإضافة إلى ذلك كان أبو حنيفة من المدافعين عن الشيعة، وحبس لهذا السبب ومات في الحبس. فلا غرو، وأمر أبى حنيفة بين المرجئة - أو قريباً منهم - وبين الشيعة أن يتجنب المحاسبى ذكره، أو التعرض بفكره أما مالك؛ فلم يأت بغداد قط. وكانت وفاته في السنة التى بلغ فيها المحاسبى، الرابعة عشرة من عمره

ولعل هذا هو السبب في عدم القول بأن المحاسبى كان مالكيًا. وقد سبق أن ذكرنا عداوة ابن حنبل للمحاسبى. فلا يبقى إذن سوى المذهب الشافعى أمانا نضم إليه هذا الصوفى.

(١) الشهرستانى ج ١ ص ١٤٧، ١٥١

وهذا ما عمد إليه السبكي في كتابه «طبقات الشافعية». وقد أخذت برأيه الأستاذة: مارجريت سميث في كتابها الذي أشرنا إليه فيما سبق. ولكن يبدو أنها لم تدرس الأمر حق دراسته:

فالسبكي يميل إلى حشد كل من شهد محالس الشافعي - ولو لفترة بسيطة - في قوائم الشافعية.

والشافعي أقام بعض الوقت في بغداد، ولا يستبعد أن يكون المحاسبي قد حضر جلساته، ولكن هل يتبع ذلك أن المحاسبي شافعي؟ لم يكن مبدئياً اعتراض على الأمر، ولكننا أردنا التحقق منه ونحصى أثره عن قرب في مؤلفات المحاسبي، فراعنا أن هذه المؤلفات تكاد تكون خالية من أي ذكر للشافعي: إن المحاسبي - إذا صح حصصاً لكتبه - لا يذكر الشافعي إلا في مناسبات معدودة، ولا يذكره في أي منها باعتباره صاحب مكانة عالية لديه، وإنما يرجع إليه كما يرجع لغيره في غير ما تقدير خاص ومن الشائع لدى أرباب المذاهب أن يسبقوا ذكر أستاذهم بنقب «إماماً».

والمحاسبي لا يفعل ذلك عند حديثه عن الشافعي.

وهو في «كتاب المكاسب» يورد اسم ابن جنبل أربع مرات، وابن جنبل إمام مذهب وفي كتاب «إحكام التوبة» نرى صاحبنا يثنى ثناء حاراً على إمام مذهب آخر هو مالك، لا الشافعي. ويبدو أن المحاسبي كان معجباً به.

وقد دعنا كل هذه الاعتبارات إلى تساؤل حاولنا تحري لدقة قدر ما أتيج لنا من إمكانيات في الإجابة عليه.

هل كان المحاسبي يأخذ بمذهب بعينه من هذه المذاهب أم لا؟ يقسم المسلمون إلى ثلاثة أقسام فيما يتعلق بموقفهم من المذاهب

١ - «المقدون» البسطاء: وهم جبهة الناس.

٢ - «أسيعون» الذين يهجون على مذهب محدد ويدركون مغرى الحجاج والبراهين، التي أسس عليها، ويواصلون اتباعه في سيره المنطقي.

٣ - «المحتهدون»، أي منشئو المذاهب، وهم بطبيعة الحال قلة.

ويدور حديث شائع على الدوم بأن هناك حثلاً في المبادئ يفرق بين مؤسسي المذاهب. فيقال مثلاً،

إن أبا حنيفة ميل إلى القياس أساساً للشرع وبمضه في ذلك على السنن الضعيفة، وأنه يأخذ به «الرأي» وبطيقه.

كما يقال أيضاً: إن مالكاً، مع اعتماده على القرآن والحديث، يأخذ في الاعتبار ما هو متبع بين أهل المدينة من عرف وعادات.

والواقع أن القول بوجود خلافاً في المبادئ بين أصحاب المذاهب يبدو ضرباً من المبالغة.

وهناك مراغم كثيرة في هذا الشأن. ليست سوى اعرار بالقشور، مثل تلك التي تدعى لأبي حنيفة، حرية فكر تفوق كثيراً ما كان للشافعي أو ابن حنبل، وهذا الأخير يعتبر عادة من أهل السنة المتشددين فكلهم على حد سواء في الحقيقة يقيمون الفقه على القرآن والأحاديث الموثوق بها والإجماع، وكلهم على حد سواء يتمتعون بالحدود الإسلامية الصحيحة، وهمهم هو التدوس المنظم لما نزل به القرآن ولما جاء به محمد ﷺ، من بعالمهم.

أما المسائل الخاصة بقضايا جدت بعد وفاة النبي ﷺ، فكان همهم قبل كل شيء أن يكون ما يشرعونه لها مطابقاً للقرآن ولعكر الرسول ﷺ في حقيقته وروحته.

وصحيح أن أبا حنيفة كان يعتمد بعض الاعتماد على «الرأي»، ولكنه
 لم يلجأ إليه إلا في الحالات التي لم يجد بشأنها حديثاً أو سنة موثوقة بها.
 وحتى في مثل هذه الحالات لم يكن يستقل بالرأي، بل أوجب أن يكون
 هذا لرأي مؤسساً على مبادئ من الإسلام وأصلحه.

ولم يكن ستردد في الرجوع عن رأيه إن قيل فيه حديث صحيح.
 وللشافعي حكمة ما رالت ذئعة بين علماء المسلمين إذ هول
 «إذا صح الحديث فهو مذهبي»

وما دامب الأسس والأهداف واحدة لدى سائر مشيئ المذاهب، فلا بد
 أن تكمن الاختلافات في التفاصيل وحدها، وهذا هو ما كان فعلاً

وهذه الاختلافات في التفاصيل معنومة لدينا، لذلك كان من اليسر
 التعرف على مذهب المحاسبي بتحقيق نمسكه ببعض التفاصيل دون
 الأخرى

ولا بظن أننا في حاجة إلى إثبات أن المحاسبي لم يكن من «المقلدين»
 البسطاء الذين لا رأي لهم، بيد أن الأمر قد يختلف إن قلنا بأنه من
 «المحتهدين».

ونريد أولاً الإجابة على السؤال

هل كان المحاسبي من طائفة «المبغين»؟

نستطيع اباحت أن يأكد دون جهد، ومن مجرد تصفح مؤلفاته من أن
 محاسبي لم يكن بالرحس الذي ينفى الرأي في غير فهم له، أو تنيب من
 براهينه.

وهذا في الحقيقة خلاصة ما يطلب من «المبغين»، ولكن «المبغين» برغم

ذلك لا يكونون لأنفسهم حملة آراء من مصادر مختلفة، وإنما يتبع كل منهم مذهباً محدداً، فإذا فضل - لأسباب شتى - تفصيلاً بعينه على آخر، كان مالكيًا أو شافعيًا أو غير ذلك.

فهل كان المحاسبي حقيفة من هذه الفئة من الناس؟

إنه في «مختصر كتاب فهم الصلاح» يرجع إلى مصادر عدة لا نجد من بينها الشافعي، وشعائر الوضوء والصلاة الواردة في هذا الكتاب لا تمت إلى مذهب بالذات شافعيًا كان أو مالكيًا أو غير ذلك

والمسائل التي يعرض لها في «كتاب المكاسب» لا تدل أيضًا على انتمائه لأي من هذه المذاهب.

والكتابان المذكوران يعتمدان بحسب على القرآن والسنة وسير الصحابة، ولا قيمة عند المؤلف لآراء أصحاب الرأي إلا بمقدار استيحائها للسنن وصحة نقلها

ومن الأمور التي يتميز بها لمحاسبي في الكثير مما كتب، أنه يعبر صراحة عن مسئوليته القاطعة عن الرأي بعبيرات مثل:

«أحب إلى أن...» أو «يفضل عندي أن...»، ويتبع هذه العبارات بلفظ «لأن...» فيورد حججه ويؤيدها بآيات أو الأحاديث.

والملاحظ أنه عند الرجوع إلى رأى غيره لا يتعلق به، وإنما يولى حل اهتمامه إلى البراهين التي أسس عليها، ولذلك فهو يذكر لك في أغلب الأحوال مصادر رأى الغير.

وقد يعتمد إلى عرض الآراء التي يجدها صادرة عن رجال دوى مكانة مرموقة بشرط أن تكون مبينة على براهين مقبولة، وفي مثل هذه الحالات يترك للقارئ أن يقرر ويختار الأصلح منها أو الأصح.

والمحاسبى يرى أيضًا أن المرجع الوحيد الصحيح للإنسان يجب أن يكون في القرآن والسنة سواء في مجال الأخلاق أو في مجال التشريع والحكم. فيقول مثلاً:

«إن أردت العلم فاحتر نفسك بالقرآن والقرآن أربع: أمر، ونهى، وترهيب بالجحيم، وترغيب في الجنة.

إذا تركت القرآن تركت الشفاء، وإذا اتبعته دخلت الجنة»^(١).

والمحاسبى لا يكتفى بإثبات رأيه هذا في القرآن والسنة، وإنما هو يردده في كل مناسبة.

ولو أنه قال به مجرداً لما كان له من قيمة سوى قيمة المبادئ النظرية، ولكنه يواصل دائماً شرح وسائل لتمسك به وتطبيقه، وفي شروحه نجد اليوم سبيلاً للتعرف على مصادر فكره وآرائه.

يقول المحاسبى: بأن القرآن يحتوى على آيات «محكمات» اتفق المسلمون على تفسيرها، ولكنه يحتوى أيضاً على آيات كانت محل تفسيرات مختلفة من علماء التفسير، ولكل عالم أن يجتهد، وأن يبين ما رأى باجتهاده، وثوابه عند الله تعالى.

وفي انكتاب أيضاً آيات «منشأها»، ولا يحاول تفسيرها، لأن الضالون لغرضون، يريدون من ذلك بلبلة أذهان المسلمين، وإثارة الفسنة بين الناس، وكذلك لأمر بالنسبة إلى سنة النبى ﷺ.

فمن الضرورى إذن أن يعلم المؤمن الباحث عن الحق، أن فى القرآن والسنة كلمات لا تحتاج إلى البحث أو الفكر، وأنه لن يصار شيئاً إن اتبع ما أمرت به وتجنب ما نهت عنه.

(١) المحاسبى: المراقبة، ص ١١

كما يجب على هذا المؤمن أن يعلم أن هناك كلمات وأُمُورًا بحسب الرجوع بشأنها إلى الكتاب والسنة والإجماع للتوصل إلى حقيقة معناه، وهي كلمات وأُمُور تختمل الخطأ والصواب بسبب ضعف النفس والنسبان، والشهوات ومكر إبليس.

وينبغي على المؤمن أمامها أن يأخذ حذره، وأن يدكر على روية، وأن يحاول التخلص من فزع الشهوات.

والقياس الصحيح بالمرامح المذكورة لا يمكن أن يقوم به إلا من كان أهلاً له، وبغير هذا الشرط لا يصح القياس، وعلى المؤمن الذي ليس بأهل للقياس الصحيح أن يسأل من هو أهل له، ثم يحصن ما تلقاه من جواب، ويتفكر فيه حتى يتبين الخطأ من الصواب.

والمؤمنون الذين ليسوا أهلاً للقياس - أي بصفة عامة غير ثُعر، وبعض النساء اللاتي لا يميزن الصحيح من الباطل - يسمى عليهم تعليل العداء.

أما فيما يتعلق بالمشاهبات وعلى المرء قبولها على إعلانها، والله معرفة ما حصى من معاصيها، وليس هذا بالأمر العسير على المؤمن، فهذه الآيات لا تتضمن أمراً بعمل أو نهياً عن عمل، وكل ما يوجب الله منها على المؤمن هو أن يصدق بها^(١).

وما سبق من تلخيصنا لبعض كتابات المحاسبي يبين أنه لم يطلب من الدين يريدون الاعتماد مباشرة على السنن في سلوكهم إلا أن يكونوا قادرين على ذلك، ولم يعصر الأمر على أشخاص محدودين.

(١) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله ص ١٠١

والاعتماد مباشرة على المصادر هو بعينه ما يسمى بـ «الاجتهاد» أى إنشاء قواعد مستنبطة من المصادر.

والإنسان الذى يسير على هذا النهج - ولو لنفسه وحده - لا يمكن عدلاً إلا أن يضم إلى طائفة «المجتهدين».

وعلى العكس من ذلك، فقد قصر المحاسبى طائفة المقلدين البسطاء على غير العرب ثم على بعض النساء اللاتى لا يبرن الصحيح من الباطل.

ولما كان السبب الذى يقدمه بالسبة إلى هاتيك النساء سبباً عاماً، فمن نرجح أنه كان يضم أيضاً إلى هذه لطائفة كل من لا يستطيع التمييز.

أما «المتبعون» فهم فى نظره جماعة الدين لا يقدرّون على الرجوع مباشرة إلى السنن، ولكنهم مع ذلك أهل تمييز يعرفون الصحيح من الباطل.



وصمّ المحاسبى، وهو العربى الأصل العام، إلى جماعة «المتبعين» أمر لا يجعل بنا بعد ما تبين لنا فيها سبق من خصائص «المجتهدين» التى يصف بها.

بيد أن صمّه إلى جماعة «لمجتهدين» يشير من ناحية أخرى اعتراضات لها وجاقتها، وعلى الأخص من جانب بعض المسلمين الذين يريدون - لأسباب قيمة - أن يحدوا من هذه الجماعة ما وسعهم ذلك.

ونود أن نوجز هنا الأسس التى تبنى عليها هذه الاعتراضات، ومدى حقيقتها بالنسبة إلى المحاسبى.

شرط «المجتهد» الأول أن يكون على معرفة واسعة عميقة باللغة

العربية حتى يدرك ما دق من فروق المعاني التي قد يكون لها بعد الأثر في معنى الكلام ثم عليه أن يكون عالماً بالقرآن عالماً حقيقياً، وكذلك بالحديث، وبالظروف التي أحاطت بهرول الآيات القرآنية، وبالمناسبات التي جاءت فيها الأحاديث النبوية

فأما معرفة اللغة العربية معرفة متقنة، فلا نظر أنها سبب يمنع من أن يكون المحاسبي من «المحتهدين» وهو الذي أظهر في مؤلفاته قبحاً بلاغة نفيسة لا تنكر، ثم إنه من أصل عربي خالص، ولد في مدينة اشتهرت بأنها حفظت للغة العربية أصالتها

ولا ترى مجالاً للحدل في القول بأن المحاسبي في هذا الميدان لا يفرض تفوقاً عن أبي حنيفة مثلاً.

وأما لعلم بالحديث، فمن الثابت أن مؤرخي المحاسبي يصوبونه بلقب «المحدث» ومؤلفاته تبين صحة ما لقبوه به، وفي هذا الحال أيضاً لا يصح أن نضعه في مرتبة أدنى من مرتبة أبي حنيفة.

وفما ينعل بالعلم بالقرآن وبالظروف التي أحاطت بالنصوص فمن المعروف أن المتصوفين يرتبون أهمية كبرى عليه ويحتصونه بواهر الدراسة وكان المحاسبي من العلماء المرموقين في تعمقه وفهمه للقرآن، ويستطيع لحرم دون أي مبالغة بأنه لا يقل عن أي مؤسسى المذهب في هذا الحال

* * *

ولكنا لا نريد القول بأن المحاسبي «محتهد» في كل المحالات فالشريعة الإسلامية فسمان:

١ - أحدهما: يتصل بالعلاقة بين الإنسان وربه، في أمور مثل الصلاة والصوم وغيرها، وهو «العبادات».

٢ - والثاني: في مجال العلاقات بين الناس في أمور مثل التجارة والمبادلات والصناعات وغيرها، وهو «المعاملات».

والمحاسبى لم يبد اهتمام كبيرً بناحية المعاملات من الشريعة، حيث كان في المقام الأول معتم أخلاق، ولذلك لا يستطيع القول بأنه «مجتهد» في هذا المجال.

أما فيما يتعلق بالعبادات فيسبغ الاعتراف بأنها الميدان المختار للفكر الصوفي.

ونحن لا نريد أن نقتصر على القول بأن المحاسبى كان «مجتهداً» في هذه الناحية، بل نذهب إلى أبعد من ذلك قائدين إنه فيها أكثر أهمية من كثيرين غيره.

فالمحاسبى كان متصوفاً، وكان شغله الشاغل تحقيق العبادة فه كاملة مطلقة، وقد بلغ في ذلك ما لم يكذب ببلغه كثيرون، وكانت طبيعته لصوفية تعينه على إدراك إرادة الرسول ﷺ، التي يراها تعبيراً عن إرادة الله تعالى.

ولقد تحدث عن الصلاة في مؤلفه: «مختصر كتاب فهم الصلاح» حديثاً يفصح عن روح تخلصت من سائر لتأثيرات سوى ما جاء بأسنن وقراءة هذا الكتاب شعرنا بأن التقوى لدى المحاسبى بلغت من عمق الإخلاص مبلغاً يغبط عليه.

وإذا كان المحاسبى يجمع كل الشروط المطلوبة في «المجتهد» فلا يرى ما يدعو إلى عدم القول بذلك، وخاصة في المجال الذي كان شغفه الشاغل طوال حياته.

وهناك بعد ذلك مجال كان تعمق المحاسبى فيه أقل درجة، بل يرى أن استعداداته له لم تكن مثل استعداداته بلحكم في مسائل العلاقة بين الله

والإنسان: ذلك هو المجال الذي يتضمن مسألة ماهية العقل
 بيد أن المحاسبي كان فيه أيضاً صاحب اجتهاد، وهو يصرح لنا بذلك
 قائلاً إنه ألف كتابه (ماهية العقل ومعناه) معتمداً أولاً على الكتاب والسنة
 والإجماع، ثم على الاستنباط إن أمكن، فالقياس في الحدود لمشروعة^(١).

(١) المحاسبي ماهية العقل ص ١١٢

الفرض والنفل

(أ) الفرض :

تحتل مسألة الفروض مكانة في الإسلام قد يفوق مكانتها في لأديان الأخرى

لذلك وصف محمد ﷺ، بالمشرع

إن الإسلام سهل في عقيدته، وهو يولى حل اهتمامه إلى الناحية الأخلاقية

وإذا لم تكن الفروض فيه شاملة للأحلاق، فهي مع ذلك لدى المسلمين حزم جوهرى وضرورى من العلاقات بين الله وأساس وبين الناس بعضهم وبعض

والفروض لا تختص فقط بالجسم والحواس، بل إنها ترمى أيضاً، في جانب كبير منها، إلى تطهير القلوب.

وسوف نعرض للفروض الخاصة بتطهير القلب في فصولنا التالية عن الأخلاق. ونكتفى هنا بالحدث عن الفروض عامة

ولما كانت المسألة حوهرية بالنسبة إلى العاية الى ينتعياها من هذا البحث، قلن نكتفى من الموضوع بالأمثلة المختلفة التى نوردها، بل سوف نعد فى موضع حر إلى عرض مخطوط صغير الحجم من مؤلفات المحاسبى يتضمن عدداً وهداً من هذه الأمثلة، وإن كان أغلبها بالسبب لا بالإيجاب

* * *

إن مسألة افروض موضوع يتعرض له المحاسبي في الكثير من مؤلفاته وهو يرى أنه لا اختيار للإنسان في القيام بها أو عدم القيام بها، بل إن مجرد التفكير في تركها ذنب^(١)، فكيف بتركها؟

ولما كانت ذات أهمية عظمى لرجاء الإنسان، فإن المحاسبي يعرض لها باستفاضة في كتاب «الرعاية»، وهو كتاب غير صغير الحجم، ويكاد يكون مقصوراً كله على تعليم الإنسان كيف يقوم بالفروض التي تلزمه، والمحاسبي يعرض فيه بصفة خاصة للسبل لكفيلة بحسن القيام بها ويرى هذا لصوفي أن الله يطلب من^(٢) الإنسان فروضاً، وهو في «كتاب الوصايا» يوحز الرأي فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة، فيقول فيما نقله عن أحد العلماء:

«فإن الر والفاجر كلهم محمعون، على أن الله حق والرسول عليه الصلاة والسلام حق والقرآن والرسول حق والكتاب والملائكة حق، والبعث والجنة والبار حق، ليس بينهم اختلاف، وأن الصلوات الخمس بوضوئها، وتغسل من الحماة، وصوم شهر رمضان، والركاة، والحج، وبر الوالدين، وأداء الأمانة، وكف الأذى، وإصاف الناس من نفسك واجب على كل مسلم، وأن ما قال الله حق:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ لِلَّيِّ أَرْضَعْتَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا حُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ

(١) المحاسبي: الزهد ٢ ص ١٣

(٢) ص ٧٦ تحقيق عطا طبعه صبيح

لِدِينٍ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا^(١).

نكاحهن حرم، والحر حرام، والسرقة ولزنا والتطهيف والعش والخيانة والكذب وأشباهه حرام، ليس بين الزنا والفاحش في هذا خلاف، وأهل السنة وأهل البدع في هذا سواء ليس بينهم اختلاف وهذا الموحى بكل تأكيد لا يحصر سائر الفروض سلباً وإيجاباً، ولكننا نلاحظ أن بين تلك الفروض التي يسردها فروضاً تتصف بالعموم والشمول، مثل كف الأذى.

ونريد أن نضيف إلى القائمة السالفة فرض الجهاد، الذي يهتم به المحاسبي اهتماماً خاصاً، ولا يكفي بذكره على أنه واجب من واجبات المسلم بل يقدم الوصايا والإرشاد إلى الجنود حتى يلقوا ثواب عملهم عند الله، وسوف نعرض بذكر بعض الفروض لأخرى فيما يلي من بحثنا

* * *

ومن الواجب على المرأة حسن اقيام هذه لفروض، ومن أجل ذلك تجب عليه معرفتها ومعرفة موقيتها ووسائل الوفاء بها، ثم أولوياتها في وجوب رعايتها.

فإذا وجب عليك فرصان، فابدأ بأوجبها عليك في الكتاب والسنة، وإن حضر وقها جميعاً كحاجة لوالده ولوالده، فابدأ بحاجة الوالدة، وإنما مثل هذا المثال في الوالدين لثلاث بطول تفسير كل شيء من ذلك نفس على هذا المثال ما أشبهه من ذلك.

فليبدأ العبد بحاجة والده، لأن برها مقدم في سنة النبي ﷺ، واجتماع

العلماء على تفديدها في البر والطاعة على لوالده. وكذلك إن لم يكن له والدة ولا والد، وكانت له قرابة فأصابتهم خلة أو حاجة مما يلزم إزالته أو صلتهم، ولم تقدر أن توسع عليهم جميعاً فابداً بالأقرب فالأقرب وبذلك جاءت السنة في الوالدين والقرابة، حين سئل النبي ﷺ، فقال له السائل:

«يا رسول الله من أبر؟ قال أمك

قال: ثم من؟ قال: أمك.

قال: ثم من؟ قال: أبوك.

قال: ثم من؟ قال: أدناك فأدناك».

وكذلك كل ذي رحم محرم تبدأ به قبل من ليس بمحرم، فإن استووا في القرابة فابداً بأحوجهم، إلا أن تكون واسعاً لهم أجمعين فتعهم (حينئذ) بالبر والصلة.

وكذلك لو ملك العبد ما يحج به وليس له ما يخلف بوالديه أو أحدهما أو أهله وولده، إذا كانوا لا يقدرון على ما يقوهم، أقام وأثر الإنفاق عليهم على الحج، وكان هداً أوجب عليه في السنة وعند علماء الأمة، وكذلك الميعاد يكون على العبد فيحضر وقت الجمعة، أو آخر وقت صلاة من الصلوات الخمس فليبدأ بالصلاة التي يخلف فواتها قبل الميعاد، وإن ضيعه فليس بمضيع له، لأنه بدأ بما هو أوجب منه، لأن المسلمين قد أجمعوا على أنهم إنما يتواعدون على غير برك الصلاة المقرصة، وإن لم يتكلموا به، فذلك عقد قلوبهم.

وكما إذا وجب عليه فرض قد حضر وقته، فإنه يبدأ به قبل ما لم يحضر وقته من الفروض، وكل رجل يريد الحج في وقت فيه سعة من الأيام، فيأمره والداه أن يقيم إلى آخر الوقت للحج، فليطعهما ويبدأ بحاحهما

حتى يأتي الوقت المضيق عليه فوته.

كذلك حنازة القراية تحضر يخاف هواتها، فليبدأ بها، وكذلك الميعاد يكون عليه قبل أن يخاف فوت لحج أو الصلاة فليبدأ بميعاده.

وكذلك يكون عليه الميعادان، أحدهما لوقت معلوم من النهار، والآخر لا وقت له معلوماً من ليل أو نهار من الأيام، كقوله: آتتك اليوم أو الليلة، أو: آتتك ولا يذكر وقتاً، فليبدأ بالذي له الوقت المعلوم.

وكذلك تفوته الصلاة المفروضة بسيان أو يوم أو تفريط، ويحضر وقت صلاة أخرى، فليبدأ بالفائتة إلا أن يخاف هوات الداحلة فيبدأ بالداحلة، ولا بضيعها كما ضيع الأخرى.

والأمثلة التي ذكرناها توضح بعض الحالات التي يعرض للمرء فيها فرضان في آن واحد ولا يستطيع القيام بأحدهما دون الانتقاص من الآخر. وإذا كان في فرض محصر فرض دونه، فليتم ما هو فيه ولا يقطعه، وذلك كالجمعة يدخل مع الإمام فيها، أو صلاة العداة في آخر وقتها، فيدعى لجنابة قراية فلا يقطعها لذلك، وليتم ما بقي منها ونحو ذلك (وقد اختلف في بعض ذلك) وكذلك إذا كان في الحج المفروض محرماً به، فكتب إليه والده ألا تقيم ساعة، فليتمه ولا يخرج منه.

وقد يعرض الواجب فيؤديه بالاستعانة بالمعاصي ككتساب الحرام والشبهة، لمجمع على تركها، يريد بذلك غداء عياله، وأداء ما وجب عليه من حقهم.

كذلك الوالدان يهرهما أو أحدهما إذا أديا أهله أو ظلماتها، يريد بذلك أداء حق أهله.

ولعله أن يتأول فيقول: «مرأى أسيرة في يدي وقد أوصيت بها، وكذلك

أهله يصرها أو يضيعها، أو يشتتها بغير حق يريد بذلك رضاء والديه
فعليه ألا يفعل شيئاً من ذلك، فإن فعل فقد قام بوجوب مستعينا
بعصية الله عز وجل، وهو حقيق ألا يتقبل منه ذلك، وأن يعصب الله عز
وجل عليه

وإن كان في فرض فعرض له فرض أوجب منه قطعه بعدما يدخل فيه
بقية، كالصلاة يدخل فيها في أول وقتها أو أوسطه، ثم يذكر أن عبده صلاه
هائنه فليقتطعها، وليصل الفائتة، ثم يصلي هذه الصلاة التي قد بقي لها
وقت.

وكذلك إن كان جالساً لميعاد ثم ذكر أن عليه صلاة فائتة، فانه سرى
الميعاد ويبدأ بالصلاة الفائتة إذا حشى فوت الصلاة لاسببه الدخلة قبل أن
يقضى الفائتة، كالعصر تفوته فخشى أن تعيب الشمس، وأشبه ذلك
وكذلك إن خرج عليه والده أن لا يخرج عن بلدهم، فيحصر لتغير
للحرب لظهور المشركين على المسلمين، وليس في وجوههم من يقوم بقتالهم
فعليه الخروج، وترك المقام.

وكذلك الصلاة يدخل فيها في أول وقتها، فبى رحلاً قد أضجع لمقتل
ظليماً، أو امرأة مستكرهة على الزنى، وهو يقوى على أن يغير ذلك، فليغير
ذلك وليقطع الصلاة.

وقد يطلب العبد الورع والنوافل، فيصعب لفريضة وهو لم يتمها، وقد
يطلب العبد الورع بتضييع الواجب بترك المال وهو حلال غنطاً، خشية ألا
يحل له أخذه، ويترك لصناعة والتجارة وإيراث الحلال، يريد بذلك
السلامة فيصعب العيان، فيجميعهم ويعرجهم، وسخط عليه الوالدان ويضيعها
وهو يقدر على المال أو العمل الحلال

وكذلك يدع الحرج بخافة أن يكون حائط ماله حرام من غير أن يعرف

شيئاً يعنيه فيه، وكذلك أن يخرج من البلدة يخاف ألا يسلم فيها فيسخط عليه والداه ويضيع عياله.

وقد يصعب الفرص لئوسوسة تعرض من الشيطان، فيدع المرحص إرادة أن يؤديه على ما أمر، ويخافه أن لا يجريه دأؤه إلا بذلك، يحسب أن ذلك عليه هو الواجب، فيكثر الوصوء ويطيله حتى يذهب وقت الصلاة، كطلوع الشمس لصلاة الفجر أو كفوت الجمعة، وكذلك في الغسل من الجنابة، أو يشتعل بالاستبراء، ويرى أن ذلك واجب عليه، وأنه لا يجزئه إلا ذلك ويتشاغل بذلك حتى تخرج أوقات الصلوات فيضيع العرض بطلب إقامة الغرض غلطاً ووسواساً.

وسائر الأمثلة التي أوردناها تبين كيف يكون حسن أداء المروض. ولكنها مع ذلك ليست بالحصر الكامل لكل ما يراه المحاسبى واجباً على المؤمن.



(ب) النفل:

النفل هو العمل الذي لا يوجب له لذي، وإن كان يوصى به، ويحث عليه لكونه فضيلة

لذلك يمثل النفل ناحية هامة من الإسلام وإن لم يلزم به المؤمن والمبدأ في رأى المحاسبى أن كل فرض يقابله في نفس الوقت نفل مثله^(١).

والبواهل ذات فوائد حمة دعم كونها غير واجبة، ويقول المحاسبى جميع ما تطوع به العباد من النوافل التي لم تمرض عليهم ست خصل

(١) المحاسبى: الزهد، ص ٥

إحدهما. تكفير الذنوب، وتكميل الفرائض، وكذلك جاء عن أبي
 هريرة رضي الله عنه، رواه عنه أبو هريرة، وتقيم الدار، أن الله عز وجل إذا كان يوم
 انقيامه تعرض عليه صلاة الفريضة، فإن كانت كاملة قبلها، وإن كانت
 ناقصة قيل: «انظروا فإن كان له تطوع قال أكموها به» قال أبو هريرة
 في حديثه عن النبي ﷺ:

«ثم تؤخذ الأعمال على سائر ذلك»

وقال تميم الداري، عن النبي ﷺ مثل حديث أبي هريرة، إلا أنه قال:
 «فإن لم يكن له تطوع أحد بطريقه وألقى في النار»

فسبحان الله، يتفصل على العبد حتى يكمل بتطوعه فرضه، حتى كان
 عمل التطوع فرضاً في الدنيا.

أما تكفير السيئات فمثل قول النبي ﷺ:

«من أتى السوق وقال: لا إله إلا الله، كفر عنه ألف سيئة»؛ وقال:
 «ما طلعت الشمس على رجل محرماً ملبياً فغابت عنه، لا عابت بذنوبه،
 فعاد كيوم ولدته أمه».

وقال عليه الصلاة والسلام:

«من توضأ فغسل وجهه، فذكر الله، كفر عنه عن كل عضو أصاب من
 الذنوب، ما أصاب الماء».

وقال: «خفقان القلب في سبيل الله، يحوط الذنوب» فيأليته يعمل بها
 ذلك

وإنما خص بالنافعة إلى لا يكمل بها فرض، ولا يكفر بها ذنب، من
 غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكذلك يرويه ابن المبارك، أن أبا
 هريرة رضي الله عنه، كان في مسير له، فأوتر على بعير، وركب ابن رواحة يوتر بالأرض
 فقال النبي ﷺ:

«يا بن رواحة، أمالك في أسوة حسنة؟» قال:

«بلى يا رسول الله، ولكنك تعمل في عتق وأنا أعمل في رق»

والأحاديث كثيرة في العفو عن الذنوب بفضل الوافل

وأما الخصلة الثانية: فشكر النعم، ليرضى بذلك المنعم، ولا يريها

عنه، ومن ذلك ما روى مسعر، وسفيان بن عيينه، عن رباب بن علاقة عن

المغيرة بن شعبه، أن النبي ﷺ، كان يهوم حتى يورم قدماه فصل له

يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟»

وكان علي بن أبي طالب إذا جاءه شيء يعجبه يقول:

«الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»

أما الخصلة الثالثة: فتحريد القلوب وحياتها وعمارتها، ليرجع ذلك إلى

قلوبهم، لقوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(١)

ومن ذلك الحديث القدسي قوله تعالى:

(من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء

أحب إلى مما افترعت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده

التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاضني

لأعيدنه)^(٢).

الخلصة الرابعة: جزع من حيران العمر أن تمضي منه ساعة بغير

(١) آية ١٧ من سورة محمد

(٢) رواه الإمام البخاري

طاعة، وكذلك يروى في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْرَ نَفْسِيكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾^(١). قال:

لا تدع أيام عمرك دون أن تعمل فيها لنفسك

الخصلة الخامسة: وهى أعظم الخصال، وهى التى تهيج من قلوب أهل الاشتغال بآله تعالى المحبة له، وهى الكراهية والجزع من مدخل طرفة عين بينهم وبين ربهم بالعقلة حباً له، وشتغلاً بذكره، وكذلك كل محب لمحبوب، يجزع من كل حائل يحول بينه وبين الأسباب المشغلة، كراهة أن يخل فى قلوبهم الغفلة عن ربهم.

وأما الخصلة السادسة: فخدمة الحساب، وفله المحبس، ولقربه من الله تعالى فى الآخرة، فى الارتفاع فى الدرجات، لأنهم إنما يدخلون الجنة بعد الرحمة بالتقوى ويعلمون فى درجاتهم بالقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، ألا تراه يقول تبارك وتعالى.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾^(٢).

ولنصرب الأمثلة فى حسن القيام بالوفاء للبين فى إيجار ما يراه المحاسبى فى بعض منها. فقد يخدع المريد فى البر الذى هو نافعة فيزيله العدو وهوى النفس عن الفضل إلى النفس فتستريح لنفس إلى ما بينهما، أو يريه العدو عن فصل ما بينهما نفاسة عليه بالفضل.

وقد يعرض له أمران أحدهما أفضل من الآخر، وقتها واحد، ويزيله العدو، والهوى عن أفضلها إلى أدناها كعبادة أح مريض وزيرة أخ صحيح وحالها سواء فى الحب ولطاعة فيبدأ بالرياسة ويدع العبادة والعبادة أفضل لأنها رياره وعباده أو كالأخ لمستقل بنفسه بوحود القلوب وآخر

(١) آية ٧٧ من سورة لقصر

(٢) آية ٤٨ من سورة مائدة

محتاج ميبداً بالمستقل ويدع المحتاج، وكزيارة أخوين أحدهما أنفع له في دينه والآخر أقل منفعة وإن كان قد يسلم معها جميعاً فيصده العدو عن المنفعة حسداً منه والنفس تصده عن إتيانه خشية أن يستفيد ما يعض عليها لذتها ويحملها على ما يتثقل على النفس وفيه الفضل، وكالدعاء للإخوان من الأغنياء على الوان الأطعمة، يريد بذلك البر ولأجر وصلة الإخوان الفقراء ورصعه ما يسوق على الأغنياء فيهم أولى وكحنارة لغنى والفقير هيؤثر الذهاب مع جنازة الغنى لأباد تقدمت يريد أن يكافئ على أيادي الدنيا بالطاعة ويرى أن ذلك أفضل، أو مداراة له أو محافة لسانه ويرى أن ذلك أولى به والله أحق أن يؤثر هديأت الفقير إن كان أهرب جوراً أو كان أفضل في الدين أوليس معها من يقوم بها وربما أثر الذهاب مع جنازة لغنى بعد علمه أن الفقير أفضل لأثرة هواه فقد صيغ ما هو أولى به وأحث له على العمل على تعمد منه.

وقد يعرض له مجلسان لمحدثين أحدهما يحدث من الحديث بما هو أنفع في دينه وإتيانه أسلم من الخوض في الباطل فيأتى الذى هو أقل منفعة وقل سلامة له والأولى به طلب المنفعة والسلامة

وكذلك طلب الحديث الذى قد سمعه مرة أو مرراً يريد بذلك ليحرف الإسناد من وجوه عدة ويعرض له حنارة أو عبادة مريض أو ذهاب في حاجة مع أح مكروب أو مضطرب أو ضعيف غريب فيذهب إلى الحديث يرى أن دهابه إلى ذلك الحديث فصل والأولى به إتيان الجنازة أو عبادة المريض أو زيارة أح يستفيد منه ما يزداد به حبراً أو إغاثة الملهوف لأنه إنما يطلب العلم لمثل هذه الحصال فإذا تركها ففي ماذا يستعمل لعدم؟ وليس يذهب إلى حديث هو به جاهل أو قد سمعه مرة أو مرتين أو مرراً إلا أن يكون فيه زيادة علم يستفيده فهو يخاف فوته.

فإن كان يستفيد بدهابه علماً ينهيه عن ردئه أو يدلّه على هدى فليذهب حينئذ فإن الذهاب إلى العلم أفضل.

وكذلك لصلاة تعرض له في موضعين: أحدهما نلهى النفس بالنظر والاستماع إلى كلام يكون فيه، والآخر تسكن فيه الجوارح وينقطع فيه اللهو، ويمرغ القلب، ويكثر منه الفهم، فيصده النفس والعدو عن ذلك إلى ما هو أحف، فصلى حيث يلهو ويسهو إما بقلط يرى أن ذلك الموضع أفضل، أو يؤثر هواء

وكذلك يصوم فيضعف، فيقطع عن إتيان الجبازة وعن صلب العلوم وعن عيادة المرضى أو عن الصلاة، فلا يكاد أن يأتي برّاً بالنهار، فالإفطار أولى به، إلا أن يكون قد يقطع عن بعض رباتي بعضاً، فالصوم حينئذ أولى به. لأن الصائم لا يحلو من الضعف وقد ينقطع أيضاً عن مثل ذلك البعض وهو مفطر، فالإفطار خدعة إلا أن يكون ما يقطع به عنه أفضل من الصوم ويكون لا ينقطع عن مثله في الإفطار

وقد يعرض له الصلّان: أحدهما به وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته وتكون لنفس قد سخت بإتيان أحدهما أن يبدأ به أيها كان وإتيان الآخر بعد فيصد النفس والعدو بإتيان ما لا يفوت وقته عما يفوت وقته كالخدعة تعرض وعيادة المريض الذي لا يخاف عليه عجلة الموت لظاهر العادة وكذلك المحسن من العلم لا غنى به عنه والخلوس للذكر والحديث مع الإخوان لدين لا يفوت لغاؤهم متى أراد هيدع العلم ويجس معهم. وكذلك قد يصلى وهو نشط قوى فتدعوه نفسه إلى النوم فنقول له: به أقوى لك على أكبر غداً فيقطع الصلاة وليس به ضعف ولا يعرف من نفسه بالنهار ضعفاً قاطعاً فإن عرف ضعفاً قاطعاً فينظر حينئذ: إن كان يقطعه ذلك الضعف عي هو أفضل من الصلاة صلى بقدر مالا يضعف بالنهار

ذلك الضعف وإن كان يقطعه عما دون الصلاة أتم الصلاة ولم يقطعها وكذلك المجس قد يكون فيه مما يستفيد فيه ما ينفعه، فتذكر النفس برُّ هو أدنى منه فيقوم إليه ويقطع ما هو فيه.

وكذلك أن يكون صائماً فيفطر لسرور أح له لعله لا يغم ين لم يفطر ولم يتكلف الطعام من أجله، فإن كان تكلفه من أجله، أو علم أنه يغم وهو أخ مستحق للأحوة سره وأفطر، وإن كان غير ذلك من الإخوان لم يفطر إلا أن يكون تكلف ذلك من أجله وحده، أو يحلف عليه فيفطر حينئذ للحديث، لأمر النبي ﷺ أن يبر القسم

قال البراء بن عازب، «أمرنا رسول الله ﷺ أن يبر القسم». وكذلك يدع العمل من الصوم والصلاة وغيرهما، فيقطعه بعد ما يدخل فيه، خشية ألا يسلم من الرياء والتصنع، وقد أراد الله عز وجل به، فذلك غلط، إى عليه المحاهدة بالإباء والكراهة، ولو أطاع في ذلك نفسه لما بقي له كثير عمل، لا عرض له في ذلك الرياء وغيره، فلم يؤمر الناس بذلك، أو يقطع العمل في العلانية ليعمله في السر، وقد جرب من النفس الخدعة إذا صار إلى السر ترك العمل وكسل عنه، فإن كان قد عوده الله عز وجل القوة على ذلك فليأته سرا، فهو أحرر وأفضل.

وقد يقطع العمل خشية أن يقول هو مراء، كالرجل صلى في المسجد وحده والناس حوله جلوس أو يذكر الله عز وجل وهم يخوضون، أو يصمت وهم فيما لا يحل، أو يعرض عليه الطعام وهو صائم وهم مفطرون، أو يبيت مع قوم وقد عوده الله القيام من الليل، فيدع ذلك كله خشية أن يقولوا: مراء، فذلك غلط، وترك فضل عظيم وعقده في الترك رياء منه، لأنه يحب أن يدرم حمدهم وينظروا إليه بعين الإخلاص لا بالرياء، وقد أساء بهم الظن أيضاً.

وقد يقطع العمل خشية سوء الظن وإشفاقاً فيما يرى عليهم، فقد خدعته نفسه لتستريح، وقد أساء بهم الظن.

وقد يدع لعمل وهو نشط لا يرى من نفسه فترة ولا ضعفاً، فدعوه نفسه إلى لترك وتقول: المداومة على القليل أفضل، فذلك خدعة من النفس، وسكون إلى الراحة، فليغم ما عرض له من البر إلا أن يجد من نفسه ضعفاً، فإن تركه كراهة افترة ورجاء المدومة فهو حينئذ أفضل.

وعلى كل: فالعبد المعنى بنفسه، لمؤتم بكتاب ربه عز وجل وسنة نبيه ﷺ همته بحاسبة نفسه ليميز بين خطراته، أيها الله عز وجل أرضى، أو أيها الله عز وجل أسخط؟.

ونخلص مما سبق: أنه إذا عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد بدأ بأوحيهما قبل الآخر الذي هو دونه في الوجوب، أو عرض له واجبان لأحدهما وقت يموت والآخر لا يموت وقتاً، بدأ بما يموت وقته قبل الآخر فإن كان في فرض معرض له فرض دونه لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه.

فإن كان في فرض معرض له فرض واجب منه قطع ما هو فيه ودخل في أوحيهما.

وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعها من أجلها وكذلك الفصل والتطوع. يبدأ بالأفضل فالأفضل، كما كتبت له وعلى

عذر الاوقات

وإذا نوى المؤمن العمل عليه أن يعرض عما يموله عنه الناس، وهو لهم فيه يجب أن لا يكون مدعاة لترك العمل أو قطعة ولا أن يكون هو السبب في التقييم لهذا العمل.

فإن عرض له مضلار ولم يبين أيهما أفضل، فليظن أيهما يجب أن يأتيه الموت وهو عليه.

ولكن النفس مهما كان أمره وفضله يجب أن لا يتم بواسطة ما هو دس أو مكروه، كالتصدق أو إطعام الفقير من مال تجارة حرام.

كذلك يجب الامتناع عن النفل إن شج عنه ارتكاب الذنوب: كالصوم مثلاً إذا أدى إلى الضرر ولعصب، ومسبة الوالدين، أو الأهل أو الخدم، أو إذا عاق عن السعي للرزق، وإلفاق على الأهل، وعندئذ يجب الإبطار، لأن مرض الإلفاق على الأهل أوجب من الصوم^(١).

(١) اعتمدنا في مسألة حسن الصيام بالفرص والنفل على كتاب «المرعاية» ص

القيامة في تصور المحاسبي

يتضمن القرآن آيات عديدة تتعلق باليوم الآخر، وخاصة في لأجراء
الملكبة منه، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى .

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا
الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ
زُوجَتْ، وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُيِّلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا
السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَا أُخْضِرَتْ﴾^(١).

وقوله :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ،
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾^(٢).

وقوله :

﴿هَلْ أَتَاكَ خَبِيرٌ لَّعَاشِيَةٍ، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ، تَصْلَى
نَارًا حَامِيَةً، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ، لَا يَسْمَنُ
وَلَا يُعْنَى مِنْ جُوعٍ، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ، فِي حَنَّةٍ عَالِيَةٍ،
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاعِيَةً، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ
مَوْضُوعَةٌ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَرَزَاقٌ مَنُوتَةٌ﴾^(٣).

(١) من سورة الكوثر من ١ إلى ١٤ .

(٢) من سورة الانفطار من ١ إلى ٥ .

(٣) من سورة العاشية من ١ إلى ١٦ .

والمحاسبى يتحدث عن القيامة و مواضع مختلفة من مؤهاته، وهو
سعى بذك، على السبح القرآنى و تحدير الناس، إلى غرس التقوى و
قلوبهم بالوعد ثم بالوعيد.

وقد حصص كتاباً لوصف اليوم الآخر وما يلقاه الإنسان بعد الموت،
هو «كتاب التوهم».

والواقع أنه لم يصدر هذا المؤلف كبحت دينى لشرح ما سوف يكون
يوماً ما فى الآخرة، ولكنه يصور فيه لعالم الآخر ومصير الإنسان حسبها
بتخيله هو منها

وهو لا يناقش حجة، أو يذكر مصادر علم، وإن كان لا يخرج عن إطار
فكر أهل السنة

وكتاب اتوهم هذا لم يصدر عن عالم إلهيات، بل هو من إنشاء شاعر
روئى، وأدوع ما يلمت نظر القارئ له بادئ دى بدء، أسلوبه العربى
الباهر، الذى يعتبر من مائر لمحاسبى الباقية على مر الزمن، ثم إنه جعل
من وصفه الآخرة نموذجاً أدبياً هربداً واستطاع أن يعد بكل فصل منه إلى
أعماق قلوب قارئيه.

وليس لما هنا أن نتناول مر يا هذا الكتاب من ناحية اللغة والأسلوب
وإننا لنكتفى بعرض هيكله الأساسى

برى لمحاسبى أن الإنسان إذا حصر حله رأى ملاك الموت فى مظهر
جميل عنه فى الجمال، أو فى مظهر محيف، ويحدثه هذا الملاك إما بدوعود
اباسمة وإما بلوعيد حسبما أنى فى دساة من خير أو من شر.

وبعد أن يهل عنه التراب، نزل له ملكان يسألانه، فإذا كانت حياته
حيراً يسرب عليه الإجابة، وإن كانت حياته شرُ تردد فى الإجابة وأثقل
عليه.

ويفتح الملكان طاقة في القبر يلمح منها الجنة بكل روعتها، أو جهنم وما أعد فيها من عذاب طبقاً لما كانت عليه إجاباته.

ويتدثر جسم الميت، ولكن يبقى في روحه إلى يوم البعث إما السعادة وإما الشقاء.

فإذا مات سائر البشر، وم تعد الأرض تحمل مخلوقاً من الأحياء، ولم يبق إلا الله الخالد، تسمع أرواح الناس نداء يدعوها إلى الحساب الأخير عندئذ تنسق القبور، ويخرج منها الجميع إلى حيث مصدر النداء وإذا اجتمع الكل، اندثرت الكواكب، وانطفأ نور الشمس والقمر، وأظلمت الأرض، وانشقت السماء، وعندئذ تنزل الملائكة لتنصت إلى الحساب الأخير

ويرى الناس الملائكة كالعمالقة، فيسألونهم إذا كان الله بينهم، فيرتعد الملائكة لذكر اسم الله، ويحييون: «سبحان الله، إنه ليس بيننا».

ثم يصطفون حول المخلوقات المجتمعة، ولما يكتمل التفاف الملائكة بالمخلوقات، تعود الشمس إلى الظهور من فوق رؤوسهم، وتبلغ حرارتها مقدار عشر سموات من الحرارة، ولا ظل إلا ظل عرش الله، ويسمر لظى الشمس ولصيق الناتج عنه ثلثمائة عام، حتى تطلب المخلوقات حساباً ولو كان مصيرها إلى جهنم، وتتوسل في سبيل ذلك إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى يشفعوا لهم في ذلك عند الله، فيكون جوابهم: إن غضب الله عظيم وإهم مشغولون بأنفسهم وإن كانوا أنبياء عندئذ تسعى المخلوقات إلى محمد، فيشفع لها عند الله، فيأذن الله بالحساب..

ويأمر الله جبريل بأن يحضر إليه جهنم، وترتعد جهنم نفسها خشية عذاب الله، ولكنها ترى أن غضب الله يقع على المخلوقات، فتعصب هي الأخرى عليها، ويسأل الله أنبياءه: ماذا كان موقف الناس من دعوتهم؟ فيجيبون على استحياء لسنأ ندري، وأنت العليم..

وفي هذه اللحظة يشكر الابن لأبويه، والأبوان لابنهما، والصاحب لصاحبه، وكل يسمى إلى ذكر ما كان له من فضل على الآخر في الدنيا حتى يظهره في الآخرة

وقبل الحساب تد جهنم برقيبتها لتلتهم بعض المخلوقات، مستبقة الحكم عليهم^(١)، ثم تأتي الجنة فتستقبل من المخلوقات من كان يحمد الله في كل حال، ومن كان يسهر الليل في ذكره، ومن لم تشغله أمور الدنيا عن عبادته، ثم تطير الكتب، فتستقر في أيدي الناس، إما اليمين منها وإما لشمال^(٢)، ثم يصب الميزان، ويتقدم إليه الناس، والملائكة يزنون أعمالهم فإذا رجحت أعمال الخير قسمت للمرء الجنة، وإلا كان مصيره جهنم.

وتأتي كائنات من هب لتسير بالناس إلى الله، فيقرأ كل إنسان كتابه، ويسأله الله عما اقترفه من شر في الدنيا، وكيف ارتكب هذا الشر رغم ما أفاضه عليه من نعم، ثم يكون حكم الله به أو عليه

ولكن على الإنسان قبل دخول الجنة أو السقوط في جهنم أن يختار شريطاً ضيقاً حاداً كالسيف قد علق من فوق النار، يمشى عليه حاملاً جميع دوابه على ظهره، وكل خطوه هوفه ألم رهيب، ولهب النار يصعد إليه،

(١) ولا يذكر المحسني لهذا الأمر شيئاً، ويرى أنه يعني هذا تلك المخلوقات التي لا تسحق حساباً وحكماً لشربها المناصل فيها البادى عليها
(٢) هذه الكتب سجل أعمال البشر في الدنيا، والكتب التي تستقر باليد شمال دليل اتهام، أما التي تستقر باليد اليمنى فهي مظهر تكريم وثناء

ويلفح من فوقه فمن كان ممن حكم عليهم زلت قدمه وسقط فالتهمه المحميم^(١).

ما الرجل الذى كان خيراً فى دنياه فيمشى عللاً الشريط فى يسر وثقه، ويرى الجنة قبيل الوصول إلى ساية الشريط.

وقبل دخول الجنة يغتسل فى عين ماء طاهرة شافية، يرتد بها إلى الشباب، ويتوج بالجمال، ثم يشرب من عين أخرى فينظهر من كل آفات القلوب فإدا ما تم ذلك كانت له الجنة التى يعرض المحاسنى ها بالوصف بعد ذلك، ووصفه بجميع بكل العجائب التى يمكن أن تخطر على بال. فمن أرض الحنة تتصاعد العطور، والقصور عليها من الأحجار الكريمة، والساء فيها مكتملات الجمال، وينبهر المرء أمام الجمال الساطع الذى يشهده فى هاتيك الحور العين، وهن كثرة يسقين الرجال ما طاب من اشراق، فى كتوس من فضة وذهب حللت باللؤلؤ.

وهذا الفصل من كتاب المحاسنى مفت للظربا فيه من تصوير بارع للملذات الحسدية مع الحور، ولا شك أن الموضوع مهياً للتحيلات الشاعرية بصفة خاصة، بيد أن أسدوب المحاسنى فى رسم اللوحات التى ابتكرها فكره، وصل هنا إلى قمة كماله.

ويمكن القول بأن هذا الفصل واسطة العقد من لكتاب.

وإننا نرى - كما يرى الأساد ماسينيون^(٢)، والأساد آربرى^(٣) أن كل ما جاء به مؤلف من وصف مبدع إما هده فى الحقيقة أن يكون

(١) بطب المحاسنى فى تفاصيل عذاب المحميم، والملاحظ أنه يتحد دائماً عن

العذاب الحسى الذى يلاقيه فيه الإنسان

(٢) ماسينيون؛ دراسات ص ٢٢٣

(٣) آربرى؛ مقدمة كتاب التوهم

مقدمه ومقدمه موسيقيه بروعة لعتها؛ لتجلى الذات الإلهية للصفوه المحتررة.

فإذا ما نال أهل الجنة حظهم من هذه النعم، ناداهم الملائكة إلى سعادة أخرى أن يمتطوا جياداً سماوية، رينت دءوسها بتيحان من الأحجار النعيسة، فإذا ما وصلوا إلى غايتهم، أجلسوا في مقاعد وثيرة، وأنتم الله إكرامهم بوليمة أطباقها من ذهب، وخدمها الملائكة.

ويواصل المحاسبي وصف ما يلقاه أهل الجنة من رضوان ربهم، ثم ترفع الستر ويتجلى عليهم الله في روعة كماله، فإذا رأوا الله كان هم بذلك من السعادة ما لم يقدرُوا قط على تخيله، فآله الخالد لا شبيه له، ويسلم الله عليهم، ويحدثهم، ويمصنون إليه في شوق، وشعرون بسعادة لا تحده، تنزل في قلوبهم، وتستنير وجوههم بانعكاسات هذه السعادة العليا

وأخيراً يأذن الله لهم بالعودة إلى الجنة، ليعيشوا فيها أبداً، خالدين في النعيم والسعادة لتي أفاضها على عباده المخلصين.

البَابُ الثَّالِثُ

الأخلاق عند المحاسبى

- * النظرية الأخلاقية النفسية عند المحاسبى.
- * الطبيعة الإنسانية والنجاة.
- * المرشد.
- * الله والعمل الصالح.
- * الخير.
- * مراقبة الذات المحاسبة
- * مرتكب الذنوب والطريق النفساني إلى النجاة.
- * الرياء يحبط عمل الخير.
- * عناصر الشر.
- * آفات النفس.
- * الغرة.
- * الحسد.
- * السلوك اليومى.

النظرية الأخلاقية النفسية عند المحاسبي

القول بأن المحاسبي صاحب نظرية أخلاقية قائمة بذاتها، وأن هذه النظرية مستمدة عن رأيه في النفس، وأن هذا الرأي في النفس لا يرتبط بدوره ارتباطاً وثيقاً بنظريته الدينية، قول لا تقرأه الدراسة لصحيفة لمكره.

فالأخلاق، ومعرفة النفس والدين، مفاهيم تتداخل كلها وتنتزج لدى هذا الصوفي..

وإذا أردنا مزيداً من الدقة فعلياً أن نقول بأن الأخلاق ومعرفة النفس لديه يتبعثان من الدين، ويقاسان بمعاييره، وهدفها خدمته..

وإبداع المحاسبي الأصل إنما يظهر في تحليله الناهد المتكامل للنفس، وغاية هذا التحليل الوقاية من لشر ومن ارتكابات الذنوب، وعلاجهما والنجاة منهما، ومع أنه يعتمد أساساً على الدين، وأن هدفه الأوحد مرصاة الله، والتوصل إلى سبيل النجاة، فتحليله هذا للنفس لإسبانية يبلغ مرتبة رفيعة في الأصالة والابتكار..

واعتمدنا أساساً في بلورة اتجاهاته هذا على كتابه. « لرعاية » وهو أهم مؤلفاته، بالإضافة إلى أنه يساؤل الموضوعات التي تعينا بصفه خاصه..

وقد ألف «كتاب الرعاية» في فترة متأخرة من حياة المحاسبي الفكرية، وكان ثمرة لفكر ناصح مكتمل النضوج، ويعتقد أنه يحتوي على آرائه الهائلة، ويعبر عنها خبر تعبير، وهذا لا يعنى بطبعة لحال أسأل نرجع في بحثنا إلى مؤلفات المحاسبي الأخرى.

ولا نجد مناصاً في هذه ترتيباً لأفكار المحاسبي من ذكر العقبات المحمّية
التي لقيناه، ففي مؤلفاته تتداخل الفصول بعضها في بعض
والمحاسبي يضع لكل كتاب من كتبه، ولكل فصل من فصول كتبه،
عناوين محددة، غير أنه لا يلتزم كثيراً بهذه العناوين
ولكننا اهتدينا في دراستنا للمحاسبي بما يلي:

إنه يرى أن هناك مشاعر للقلوب جوهرية، غيرها لا يصح عمن
ولا يقبل، وتأتي بعد ذلك مشاعر وأعمال أخرى تصح ونقبل طبقاً
لما يكون عليه أساسها، وهذا ما نسميه بالنظرية فيما يتعلق بفكر صاحبنا.
ولو أردنا - تيسيراً على القارئ - أن نصنف نظرية المحاسبي بين
النظريات الأخلاقية الكبرى، لأننا نراها تحت عنوان «نظرية النجاة»..
فغايتها في الواقع هي تمكين الإنسان من نقاذ روحه بالخضوع لتعاليم
الدين، حتى يستطيع يوماً ما أن يكون من عداد الفائزين بالآخرة
السعيدة

الطبيعة الإنسانية والنجاة

إن الله تبارك وتعالى خلق النار، فقال لجبريل: «اذهب فنظر إليها» فذهب فنظر إليها، فقال: «وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها». فحمها بالشهوات، ثم قال: «اذهب فانظر إليها» فذهب، فنظر إليها، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها.

وخلق الجنة، فقال لجبريل: «اذهب فانظر إليها» فذهب، فنظر إليها، فقال: «وعزتك لا يسمع بها أحد إلا يدخلها» فحمها بالمكاره، ثم قال: اذهب فانظر إليها»، فذهب فنظر إليها، فقال: «وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»^(١).

فالجنة بما احتوته من سعادة هي من ترك ما يهوى قلبه وتشتبهه نفسه، ورعى حقوق الله رعاية صحيحة.. والنار بما فيها من عذاب هي لمن استجاب لمنازع السوء في نفسه وللهوى، ولم يرع ما أمر الله به.. ولكن طاعة الله ليست بالأمر الهين، فالإنسان جبل على حب ما وافقه، وبغض ما خالفه، والشهوات واللذات والفرائز الكريمة تبدو له ذات بريق تنزع إليه نفسه، بينما الأعمال التي أمر الله عز وجل بها، وتدب إليها، أكثرها ممل للفتن، متمسك للجوارح.

والغاية هي مقاومة هذه الطبيعة الإنسانية حتى يستطيع المؤمن أن يجاب ما نهى الله عنه، وأن يقوم بما أمر به..

(١) المحاسبي: الرعاية ص ١٣

وكما كان هذا الصراع كريهاً في الطبع، ثقيلاً على النفس، وحسب على الإنسان البدء به ومواصلته..

فإنه قد خلق ليمتليهم، ومن انتصر في هذا الصراع كانت له الجنة.. وأن يقوم الإنسان بطبيعته، لا يعني القضاء على هذه الطبيعة، فطلب ذلك محال.. ويرى المحاسبى أن للكائن من أهل السماوات والأرضين ثلاث طبائع - الملائكة - وقد طبعهم الله على العفوف والبصائر، وعراهم عن الهوى والشهوات، «وهم دنيون في طاعة الله عر وجل ذكره لا يفترون، إذ لم يجعل فيهم الأضداد التي بها يفترون، والأهواء والشهوات التي تصد وتؤثر على الطاعات والذكر».. ولم يجعل لهم ثواب بعيم الجسد، إذ لم يجاهدوا الأهواء، ولم يتحملوا الآلام والنصب، وكذلك ليس خليفاً لهم أن يدخلوا نار وقد أجبروا من عذابها

- الأنعام والطيور والهوام: وقد طبع على صد الملائكة - وهي الفئة الأدنى من الأحياء، خلقها الله على الشهوات، وجعل فيها معرفة بقدر ما تغتدى وتطلب معاشها، وتحذر على نفسها وأولادها بقدر ما عرفت من المكروه، ولم يجعل لها الله عقلاً تدرك به الأمر والنهي والعلم للعواقب، «لذلك فقد دفع عنها العقاب في كل ما أصابته من الشهوات» ولم يؤاخذها بما أتت من شر، وجعل آخر مصيرها أن تكون تراباً.

وهكذا نجد من ناحية طبيعة الملائكة، وكلها عقل وبصيرة.. ومن ناحية أخرى طبيعة الأنعام والطيور والهوام، وكلها شهوات لا عقل فيها.. وبين النقيضين تجد الطبيعة الإنسانية مكنها، وهي ثابته لطوائف الثلاث، وفيها من طبيعة الملائكة العقل الذي «يحتمل الأمر والنهي ويعرف العواقب»، ولكن فيها أيضاً العرائر لقي بحسب كل ما يوافقها، وتبعض كل ما يخالفها أو يؤذيها، وأمر الله الإنسان أن يجاهد - بما أعطاه من عقل -

ما دعت إليه النفس من قبل غريزتها، وخلق الثواب وخلق لعقاب لهد
الإسار انذى يدرك معنى صراع النفس، ولكنه قد يترك لها العنان غير
مبال بما أمر به الله.

ولكن يجب أن لا تتخيل أن الله كلف الإنسان بالقضاء على الغرائز،
فالقضاء عليها قضاء على الإنسان، ولن ترول هذه الغرائز أبدًا، ولن
يتحول الإنسان إلى ملاك.

ولا شك في أن هناك رجال يسكنون بداء الغريزة في نفوسهم وهم
الأقوياء، بيد أن غرائزهم لا تنمحي وإن استكانت.

إنها تصعب وتحمّد بالمجاهدة، ولكن سرعان ما تتيقظ إذا وجدت
الطرف المواتى لها، وقد تتخذ صورًا يعتر لها الإنسان.

ومقاومة الشهوات والعزير التي تدعو الإنسان إلى المعصية لا تعنى
مقاومة كل الشهوات والغرائز الإنسانية، فالهدف هو تطويع النفس بما
يرضى الله.

المرشد

تطرفت بنا بحوثنا في التصوف إلى ما قد يكون هناك من علاقة بين
نظرية المعرفة لدى بصوفية، وبين نفس النظرية عند اللا أدريّة، فلاحظنا
صلة وثيقة بين المريقين، وإن بدا هذا لأول وهلة ناقصًا عجيبًا..

إن استدرج المنطقى الذى يؤدى بالمتصوفين إلى التصوف هو الذى يؤدى
باللا أدريّة إلى الشك، ولدى الجميع نفس اليقين العميق بأن الإنسان لن
يحد السبيل إلى الحقيقة المطلقة لأن حواسه وعقله فاصرين عن ذلك، وكان
هذا هو السبب والأساس في تحول الغزالي إلى التصوف

لم يصل إلى الحقيقة بعد طول الجهاد، فراح يبحث عنها في طريق آخر غير الذي دأب عليه، رح يبحث عنها خارج نفسه، إن صح هذا التعبير، وقصور الإنسان عن إدراك الحقيقة أمر ذو شأن كبير لدى المحسبي أيضاً. ونحن لا نعلم إن كانت الأزمة التي مر بها قد انسمت بنفس النهج المنطقي الذي سارت عليه عند لعرالي، ولكننا نقرأ في كتاب «الوصايا» أن المحسبي قلق كثيراً لعدم توصله إلى الحقيقة، وحشى أن ينتهي أجله قبل أن يدرك مراده، وفي ذلك يقول:

«فعممت مصيبتى لفقد الأدلاء الأنقياء، وحشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمري، لاختلاف لأمة، فالكمشيت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بدءاً، ولم أقصر في الاحياط ولا في النصيح، فقيض لي المراءوف بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا^(١)».

وإذا كما لم يثر على شيء كبير من لتفاصيل الخاصة بالطريق لدى سلكه هذا الصوفي من أجل الوصول إلى غايته، فإسا بعد مع ذلك في كتاباته معلومات تبلغ درجة كبيرة من الوضوح والتحديد، بشأن موقفه المتشكك تجاه الآراء الشخصية، وهو القائل:

قد ينفي العبد العجب بالرأي الخاطئ بنهمة نفسه، لمعرفته ما بنيت عليه في الخلقة، أن من شأنها السهو والعفلة، ولما جرب منها من كثرة غلطها، وكثرة زللها، وسوء تأويله، مالا يحصى مراراً كثيرة.. في كل ذلك يرى أنه مصيب، لا يشك عند نفسه في ذلك، ثم يتبين له بعد أنه قد كان عطل وغلط، وكان استحضاره بذلك من قبل الهوى وتزيين الشيطان، ولو لم يبعثه على تهمتها إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق، من غلطهم وقولهم في دين

(١) المحسبي، الوصايا ص ٣٠ تحقيق عبد نقادر عطا

الله عز وجل بعد الحق، وكلهم يرغم فيها يدعى الحق وهو على باطل، وهو مع ما هو عليه من الباطل - لا يشك أنه محقق صادق، وأن من حاله يبطل كاذب

وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض؛ بل كنها لا تعزى من السهو والغفلة، وما نفسه إلا من أنفس الحق، من ولد آدم عليه السلام. بيته كبيتهم. وعريته كعريتهم، ومع ذلك فإن المرين لهم واحد، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة، والباغى لهم الرلل ولعصيان فإن أثبت في قلبه هذه المعرفة بنفسه اتهمها..

ولم يرل ذلك شأن لصالحين العارفين بأنفسهم، يقول ابن مسعود رضى الله عنه: «أيها الناس، اتهموا الرأى»

ويقول سهل بن حنيف:
«أيها الناس، اتهموا ارءكم».

ويقول عمر رضى الله عنه.
«أثم روجل رأيه»^(١).

هل يعنى ذلك الإحلال للشك؟

لا، بكل تأكيد.. فأماما المرشد الهادى، واصصبح المير - أماما القرآن، وإلى حابه السنة والإجماع وفي القرآن تفسير كل شىء.. فلتفكر فيه ليل نهار، وعليها يفهمه والعمل به^(٢).

ومن أبعد عن لقرآن، بتعد عن الشفاء، ومن اتبعه استقر في نعيم الجنان^(٣).

وليست الحقيقة - في الواقع - إلا السنة^(٤).

(٣) المرافة ص ١١.

(٤) أدب النفوس ص ١٣٤

(١) ارعاه ص ٢٤٠.

(٢) أدب النفوس ص ٩٠

الله والعمل الصالح

إلى أي حد يكون فصل الله في الأعمال لصالحته التي يأتيها الإنسان؟ المعروف أن علماء الدين المسلمين أثاروا هذه القضية وناقشوها، والواقع أنهم لم يحدوها في إطار الصيق الذي نصعه لها الآن، وإنما بحثوا مسألة الأعمال الإنسانية في مجموعها. الصالح منها والخبث.

وكان رأي المعتزلة جارماً بأن الله لا يتدخل في عمل الإنسان، فالإنسان هو الذي يأتيه. وهو المستول عنه.

وكانت هناك وجهات نظر متفاوتة الصلة بمفكرة لقضاء والقدر. وموقف المحاسبي تجاه الأعمال الصالحة يتمير شيئاً ما عن غيره وهو يرى أن الله يوظف صميم الإنسان بما يذكره به من عصبه، ولعقاب الذي أعده لمن يمع عليه، ثم بما يصفه من النعم العظمى التي حصصها لمن أطاعه.

إن الله هو الذي بشر قلب الإنسان، ويحثه على الخير^(١)، ثم هو الذي يمنحنا من فضله، ويقوننا في العمل الصالح، ولكن هذا لا يعني أن الله هو الذي يقوم بالعمل، لأنه يغير فصل من الله لا تنحه الإنسان إلى هذا العمل، حيث لا يجهه فيه هوى النفس بل يشغله بغيره.

وبما يدل على ذلك ما روى عن ابن عباس أنه قال.
ما أصاب داود عليه السلام - الذي إلا بإعجاب أعجبه من نفسه، أن
قال:

(١) هدموت ريتز. مخطوطات الحديث من أسد المحاسبي ص ٨، ٩.

يا رب ما تأتي ليله إلا وإنسان من آل داود قائم، وما يأتي يوم
إلا وإنسان من آل داود صائم، فأوحى الله عز وجل إليه:
«ما داود، إن ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوى إليك ما فويت على ذلك
وسأكلك إلى نفسك».

وفي حديث آخر: «وعرفى وجلالى لأكنك إلى نفسك». فطاعة الله أعجب بها فأدركته العقوبة على ذلك، حتى أصاب ديباً ورثه
النوم والحزن أيام حياته، والتبعة في الآخرة

ومن ذلك ما قال الله عز وجل في كتابه العزيز في يوم حين لأصحاب
محمد ﷺ، وهم خير عصابة على وجه لأرض، بل لا عصابة تعبد الله عز
وجل غيرهم ومن تبعهم، غضاب لله عز وجل، ينصرون دين الله عز وجل،
مستجمعون لقتال أعداء الله عز وجل، فقال الله عز وجل:
﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحِمَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (١).

فيمكن إذن تلخيص موقف المحاسبي من الأعمال الإنسانية
فيها يلي:

الله يحض الإنسان على الخير؛
وهو يقويه عليه.

ولولا هذا الفص من الله لما استطاع الإنسان إلى العمل الصالح
سبيلاً، بما يقع عليه من تأثير هوى النفس ودعوة الشيطان.

(١) الرعية: ٤٠٧ - ٤٠٨، والآية من سورة انشودة: ٢٥

الخير

لعل الصواب في العرض لفهوم الخير عند المحاسبى أن يبحث
لمادا - في نظره - يجب على الإنسان عمل الخير.

فيل عن الكثير من المتصوفين إن الهدى من عمل الخير لديهم ليس
دخول الجنة ونجيب الحميم أو حسن المقام في الدنيا، ولكنه تقرب من الله،
وسعى إلى محبته..

وهذه الفكرة موجودة فعلا عند المحاسبى، ولكنها ليست بالوحيدة
المسيطرة عليه، فهو يقول ويردد أن هدف عمل الخير تجنب لعقاب في
الآخرة، والفوز بمعيم الجنان.

غير أن قمة هذا المعيم الأخرى هي بطبيعة الحال مشاهدة الله،
وكتاب التوهم دليل واضح لنا في هذا الأمر.

ومع ذلك، فحسن المقام في الدنيا جزء مما يهدف إليه الإنسان بعمل
الخير، يقول المحاسبى عن رعاية حقوق الله:

«وجعل الله القيام بها مفتاحاً لكل خير في الدنيا والآخرة، وهي
لتتموى، ولأهلها أعد الجنة، ولأهلها جعل الأمن في الآخرة؛ وإياهم وعد
قبول الأعمال، وإياهم سمى بالولاية، ورفع عنهم الخوف والحزن في يوم
المخافة والأحزان، ولهم جعل النصر في الدنيا والمعونة على طاعته، ولهم
جعل المحرج من كل ما صاق على العباد، ولهم صم الرزق من غير
الوجوه التي يحتسبونها»^(١).

(١) الرعاية.

وفي نفس المعنى يقول أيضًا:

«ففى نعيم الطاعة فى لدنيا واضطر بنعيم الآخرة عوض من تنعيص لدات الدنيا»^(١).

ففى طاعة الله يجد العبد النعيم لمقيم الحقيقى.

والمحاسبى - إذن - يقر فكرة النعيم فى الدنيا ولكن الأمر الجوهرى عنده هو نعيم لآخرة، وهو يجمع مختلف العايات التى يبتغيها الناس من عمل الخير، فيجدها أربعا:

أولها: - خيرها وأشرفها - وأصحابها يأتون الخير رعية لحقوق الله، وهم يدركون عظمتهم بقلوبهم فتكون سعادتهم فى تفرهم منه بطاعته، وثانيها: يأتى أصحابها الخير ليسكنوا بجوار ربهم فى الجنة، ويعمو بما وعد به عبده.

وثالثها: أصحاب يخشون العقاب الشديد الذى أعد لمرتكبى الدوب، ويمنعهم خوفهم من التفكير فى الثواب.

ورابعها: أصحابها كل من تعفف، وعلم أن الله يطلع على سائر أعماله ونياته، فكره أن يريه نفسه وهو يعمل أو ينوى على غير ما ارتضاه له^(٢).

والآن، ما هو الخير فى نظر المحاسبى؟

مفهوم الخير لديه ليس بالمؤسس على براهين منطقية بثبتها، أو بالمستخلص من فلسفة تستعمل عن المجال الدينى

الخير فيه يراه هو، وبكل بساطة - ما يقول لدين الإسلامى إنه خير، وليس هد بالمفهوم العجيب أو الذى يقتصر إلى المنطق، فالمحاسبى مؤمن كل الإيمان بالإسلام، ولا شك لديه فى الوحي لذى برل على

(١) الرعاية.

(٢) أدب النفوس، ص ٩٣

محمد ﷺ فهو حرء لا يتحرأ من العقيدة، وحتمية الإسلام لا تقبل في فكره الجدل.

در، وما دامت القوانين الإلهية هي القوانين الحقة، وهي وحدها الباقية لكامله، فليس من داع إلى البحث عن الخير في غير ما تعلمنا إياه
وقد عرصنا من قبل لوجهه نظر المحاسبي في آراء الشخصيه تحت عنوان: «المرشد» ولفوله:

«وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض، بل كلها لا تعري من السهو والعفلة»

بذلك يعتقد أن مجرد التفكير في سوء مفهوم الخير على أساس غير الدين لم يكن ليخطر للمحاسبي.

كذلك من المحال تصويره مردداً لقول المعتزلة بأن العمل يمكنه بذاته إثبات ماهية الخير، فهو يختلف عنهم في هذا كل الاختلاف، حتى في الألفاظ التي يستخدمها، فكلمة «الحسن» مثلاً أشائعه لدى المعتزلة، والتي هي مصطلح فلسفي أكثر منه ديني، لا ترد في كتابات المحاسبي إلا نادراً، وهو يعبر عن نفس المعنى بكلمات دينية أصيلة، مثل «البر» أو «الخير» مرادف لـ «الحسن» وفي ضد «الحسن» لا يستخدم كلمة «لقيب» وإنما يلجأ إلى كلمتي «المعصية» و«الشر»

ولما كان هدف الأخلاق في نظر المحاسبي هو حياة الإنسان، وليس من المستغرب أن يصبح كل عمل في سبيلها خيراً..

ولسوف نعود بادئ ذي بدء إلى بيان مبدأ يتبنى عليه فيها براه مفهوم الخير، وليس هذا المبدأ في الواقع - ورغم مظهره - بالمبدأ المستفل عن الدين، حيث يلجأ المحاسبي في شرحه إلى اعتبارات دينية بحتة

هؤلاء الذين سوف يهتدون بالنجاة، هم «أهل العدل» و«أهل فضل»، والعدل ضرورة للنجاة، والعدل حسن سلوكك، أما الفضل فليس بهرص، إنه بقل. ومن العدل، أي من «مروض الصر والورع والإصاف، ومن الفضل أي من اسوافل، وليس من لمروض: الرهد والرضا والإحسان».

ومن انشغل بالعدل عن الفضل عما الله عنه، أما من اشغل بالفضل ولم يعدل فهو صال يتبع هو، وحسم على من يسعى العدل أن يعرف معنى الإنصاف^(١).

وفي موضع آخر من نفس الكتاب وهو «أدب النفوس» يقول المحاسبي، إن الأمور التي تؤدي للنجاة أربعة، أولها وأهمها: معرفة الله.

وثانيها: وهو أيضاً على درجة كبيرة من الأهمية - أن يكون العمل لوجه الله وليس لإرضاء لخلقته.

وثالثها: ترك ما نهى الله عنه، والقيام بما أمر به.

أما رابعها: محمد الله على ما أقاض من نعم^(٢)

إذن، فالمبدأ المؤسس عليه مفهوم الخير ليس أن يكون الإنسان عادلاً فحسب، ولكن أن يكون عدله مطابقاً للمفاهيم التي حددها لإسلام. وبذلك شرح لنا المحاسبي أنه من المحسم على المرء للعدل أن يعرف معرفة صحيحة ما أمر الله به، كذلك يتحتم عليه أن يعرف متى يعمل، وكيف يعمل فيكون عمله طاهراً خالصاً.

(١) المحاسبي: أدب النفوس ص ٦٥

(٢) المحاسبي: أدب النفوس ص ٩٤

والإنسان الذى لا يعمل الخير لابد أن يتحلى بخصائص عدة
أولها: الصدق، والصدق فى نظر المحاسبى هو بكل بساطة. السنن
الإسلامية والصادق: من اتبعها اتباعاً أميناً..
ثم الإخلاص: أى أن تكون أعمال الإنسان لوجه الله لا يبتغى منها
حزاء ولا شكوراً..

ثم الحمد أى دوام حمد الله على نعمه، فكل النعم من فضله..
وأخيراً: الرجاء والخشية. رجاء قبول العمل وثوابه، وخشية الله
وعقابه.

والرجاء والخشية يجب أن يكونا متوازنين لدى الإنسان كما وحى إلى
ذلك الرسول ﷺ^(١)..

ولما كان الخير فى رأى المحاسبى هو اقيام بما أمر الله به، والانتهاى عما
نهى عنه، فلا عجب فى الاهتمام الكبير الذى يوليه لـ «التقوى»؛ وفى
نظره إليها على أنها مفتاح النجاة..

والتقوى فى مفهومه: الخوف والحذر من الله، خوفاً وحذراً ينطويان على
ضرورة أداء ما أمر به، والابتعاد عما نهى عنه..

والتقوى تتعلق بالجوارح كما تتعلق بالضمائر، وحقيقتها فى الجوارح:
القيام بالحق وترك المعاصى، وحقيقتها فى الضمير: إرادة الديان فى الفرض،
وإخلاص العمل له فى النفل.

وبعير التقوى لا تقبل أعمال الطاعات التى ندب الله إليها عبده، ولم
يفرضها عليهم..

(١) المحاسبى، أدب أسفوس ص ٦٧، ٦٨

والتقوى أساس طاعة الله، وهى أيضاً مصدر الورع، والدافع إلى كل أعمال الخير..

فالتقوى أول منزلة لعبدين وأُعلاها، وبها تزكو أعمالهم، لأن الله - عز وجل - لا يقبل عملاً إلا ما أُريد به وجهه..

وبغير التقوى لانهادة في الأخرى..

ألم يعد الله حنته لأهل التقوى؟، أى هذه الحنة مكان لمن لم يتقعه؟ لقد أمر الله جل ثناؤه في كتابه في آيات كثيرة بها، وعظم قدرها وقدر القائمين بها، ونبهنا النبي ﷺ عليها بسنته، وعظم قدرها والعلماء من بعده إلى عصرنا هذا..

غير أن التقوى ليست بالشىء الذى يختص به الدين الإسلامى وحده، إنها أمر عام، وتوجد حيث يوجد كل دين مرل..

ويقول المحاسبى بأن الله أوصى بها أنبياءه وعباده قبل الإسلام، كما أوصى بها نبي الإسلام والمؤمنين^(١)

ولكن لتقوى إن اقتصر على الصيام ما أمر الله به، ومجابهة ما بهى عنه، وعلى فرض عمل الخير وترك الشر، فلن يكون شاملة لمفهوم الخير كله..

فالنواهل والفضل جزء لا ينكر من الأخلاق، بل لعله من زاوية معينة أسمى مكوناتها، وإقيام بالفرض ليس سوى تنفيذ الإنسان ما أمر به، وقيمه وإن كانت كبيرة من وجهة النظر الدينية - لا تعادل في رأى رجل الأخلاق التطوع بالعمل الصالح..

(١) المحاسبى: الرعاية ص ٦ - ٨

ولكن الدين الإسلامى لم يفعل هذه الدحية وبالتالي نرى المحاسبى مهتماً بها إهتماماً حلياً..

ولقد رأينا فى عرضنا للمبدأ الذى أسس عليه مفهوم الخير لدى هذا لصوفى أنه اتخذ مما هو عدل الواجب، الأخلاقى، ولكنه لم يهتم إبرر «ما هو أكثر من العدل». أى العمل الصالح التطوعى أو الفصل.

والخفيفه أن المرض ليس إلا أقل القليل الواجب، إنه من وجهة نظر لإسلام - ومن وجهة نظر المحاسبى لا تشمل كل مفهوم الخير، بعد نزم أولاً وضع قوانين واجبة يؤسس عليها النظام الاجتماعى، ووضعها الإسلام فى صورة الفروض، ثم تكون بعد ذلك الدعوة إلى الخير لتطوعى والحث عليه، وهذا ما قام به الإسلام أيضاً.

والمحاسبى - طبقاً للمبادئ لإسلاميه - يخص النوافل والفصل بمكانة كبيره، ولكنه - بطبيعته الحال - يجعلها فى الترتيب بعد الأعمال الواجبة وفى تفصيله بالأعمال التى هى الخير يجعلها طائفتين.

أعمال القلوب، وأعمال الجوارح.

فأما فيما يختص بالثانية، فقد عرضنا لمعظم حو فيها فى صفحات سابقة تحت عنوان «الفرض والنفل» و «الذنب والتوبة».

وأما فيما يتصل بأعمال القلوب فسوف نعرض لها بعد قليل، حيث نريد - أولاً - إثبات أمر حدير بالملاحظة، وهو أن هذه الفروض والنوافل ليست - فى عمومها - بذات طابع محدد يجعلها صالحة للبيئة التى نشأت فيها فحسب، بل إن القليل منها الذى يختص بالشعائر، وبالتالي؛ الذى يحمل طابعاً إسلامياً بحتاً، قد أنشئ بعاية أخلاقية

ولا يسكر أن هذه الفروض والنوافل إنما هى من الدين قبل كل شئ..

وأن هدفها الأخير هو السجاة في الأخرى، ولكن ما كن من أعراضها السمو بالصمائر لبشرية، وإصلاح العلاقات بين الناس، فهي - أيضاً وبفص الدرجة من القيم الأخلاقية

وعلى أى حال، فالدين والأخلاق يربط بينها أوثق الصلات، بل إننا لنشك كثيراً في إمكان رحد أخلاق مفصلة عن الدين .

ولعد الآن إلى أعمال القلوب المفروضة، حيث يقول المحاسبي إنها تتلخص في ثلاثة أمور:

١ - الإيمان بالله.

٢ - الاعتقاد بالسنة ومحاربة البدع.

٣ - الاعتقاد بضرورة طاعة الله ومحاربة كل مالا يرضيه.

وهذه الأعمال الثلاث للقلوب تتضمن بدورها مروحاً عديدة. فهي تفترض على سبيل المثال الخشوع، وترك العجب والكبر.. كما تفترض، إثار المحتاج، ودوام الدعاء للأمم الإسلامية، ومحافة الله، ومحاربة العرة، والتخلص من الحقد والبعض..

وتفترض أيضاً الصبر، والشعور بالرضا، واليقين بأن ما في الدنيا رهو باطل فان، وترك الحسد..

وتفترض كذلك: التقه بالله وبالتالي: التوكل، ولتخلص من الشهوة إلى متاع الدنيا وبالتالي. لزهد، وعدم الخوف مما سوى الله، وبرك الرياء والغصب وهما اللذان يؤديان بالإنسان إلى مالا يرضاه الله

وفي مؤلفه «كتاب في امراقبة» يعلق المحاسبي أهمية كبرى على قواعد عشر تصل - في رأيه - بالإنسان الذي يتبعها إلى مرتبه رفيعة من وجهة السطر الأخلاقية..

- أما الذي لا يأخذ بها فهو يسير إلى التهلكة، تلك القواعد العشر هي -
- الامتناع عن القسم بالله سواء حائثاً أو غير حائث
- الامتناع عن رفض العهد، إلا عند الضرورة الحاضرة، ولأن يعمل الإنسان خير له من أن يعطى العهود..
- الامتناع عن لفظ ولمسية، وعن إيذاء أى من المخلوقات
- الامتناع عن ادعاء بالشر على أحد من الناس ولو كان ظالماً ولا امتناع عن إيذاء الغير مقابلة لأذاهم.
- الامتناع عن رمي لمير بالكرم أو الرياء، وعن وصف لناس بالكرم لمجرد ارتكابهم ذنباً من الذنوب.
- الامتناع عن الالتفات إلى شيء أو الرغبة فيه إن كان إتيانه ذنباً سواء في ذلك ما يتصل بالقلوب أو الجوارح.
- ألا يكون اعتماد الإنسان في أمر من الأمور على أحد من الناس، بل يعتمد دائماً على الله
- ألا يكون رجاؤه إلا في الله
- وأخيراً - وهذه القاعدة العاشرة هي منبع جميع لقواعد لسابقة - أن يرى الإنسان في كل من يلقاه إنساناً خيراً منه، ولو كان هذا الذي يلقاه جاهلاً أو كافراً، فلا أحد يعلم عما خصه به الله أو خص غيره من مستقبل الأعمال، وإذاً فيجب على الإنسان ألا يحقر أحداً من الناس، وأن يحسن الظن بمسائر الناس^(١).



عرضنا فيما سبق ملامح من تفاصيل الخير كما يراها المحاسبى، ولكننا

(١) المحاسبى، أذنب النفوس ص ١٢٩، والمراقبه ص ٦، ٧

بطبيعة الحال لم تأت بجميع هذه التفاصيل، وبصورة عامة فإن هذا لصوفي يهتم في المقام الأول بفروض القلب ويظهر إليها على أنها أصل شجره فروعها من فروض الجوارح، ويقول بآلا وجود للفروع بعبر الأصول، وإذن، فالبداية يكون بالأصل ثم يصير التدرج إلى الفروع^(١).

* * *

والمحاسبى لا يرى الخير - أى خير - خيراً، إلا أن أسس على النية، وهذه النية يجب أن تكون طاهرة وخالصة^(٢).. ومعنى أن تكون طاهرة وخالصة عنده: ألا يكون لها غاية سوى مرصاة لله..

وهو يعطى أهمية خاصة بطهر وإخلاص لنية لتي يجب أن لا تكون إلا لوجه الله . ويعتبر أن هذين العاملين أشق الخطوات التي تنبغى على الإنسان في طريق السحاة، ويقول إن الخير قد يفسد حال عمله لأسباب عديدة، ولذلك يوصى ويلج في الوصية بتطهير النية، وبمجاهدة الذنبة من أجل هذا..

ولسوف نعرض في فصل تال بعنوان الرياء كعنصر إحباط لعمل الخير.. ومن الميسور - إذن - أن نفهم سبب اهتمام المحاسبى اهتماماً زائداً بمسألة «المحاسبة» أى مراقبة الضمير - التي بها يستطيع الإنسان أن يميز الخير من الشر..

(١) المحاسبى، أدب النفوس ص ٩٨

(٢) المحاسبى، أدب النفوس ص ٨٩

مراقبة الذات المحاسبية

إذا أراد الإنسان أن يتجنب ارتكاب الذنوب حتى ولو كان عاقلاً عنها، وأن يحيط علماً بالذنوب التي قد يكون ارتكبها في الماضي، فعليه بمراقبة الذات أو المحاسبة

والمحاسبة، على حد قول المحاسبى، هي: «النظر والتثبت بالتمييز لما كره الله عز وجل، مما أحب»^(١).

والمحاسبة على وجهين، أحدهما، بالنظر إلى مستقبل الأعمال، والثاني إلى ما استدبره الإنسان منها. فأما المحاسبة في مستقبل الأعمال فقد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها علماء الأمة.

وفي كتاب الله - ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(٢)

وفي هذا تحذير منه نداء، وتنبيه على ذكره تعالى في كل ما تأتى وما تدع، واتقائه في أداء فرائض واجتناب نواهي

وقال لبي عليه السلام، إذ سأله رجل أن يوصيه ويعظه:

«إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فامضه، وإن كان عيباً فانتبه عنه»

وقال عمر رضي الله عنه:

(١) المحاسبى - اربعاء لحقوق الله ص ٩

(٢) آية ٢٣٥ من سورة البقرة

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وربوها قبل أن تورثوا، وهينوا
للعرض الأكبر».

وكتب إلى أبي موسى:

«حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة».

وقال سلمان رضي الله عنه:

«اتق الله عند همك إذ هممت، وعند حكمك إذا حكمت»

هذه هي المحاسبة فيما يستقبل من الأعمال.

وأما المحاسبة فيما مضى من الأعمال فهي أيضاً قد أوصى بها الكتاب
والسنة وقال لها عباد الأمة في كتاب الله سبحانه وتعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١)﴾.

وهو أمر منه تعالى باستدبار الأعمال اتق مضت، ليكون الندم عن
لذنوب، فالتوبة إلى الله

وفي الكتاب الكريم أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِنَنْظُرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِعِيدِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ،
إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٢)﴾.

وفي هذه الآية لم يقل «ما تقدم» وإنما تعي لآيه اسطر لما مضى تكون
التوبة من الذنوب التي مضت فيما مضى من الأعمال
وروى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يصوب قدمه بالذرة إذا حده
الليل ويقول لنفسه:

(١) سورة النور آية ٣١

(٢) البقرة آية ١٨

«ماذا عملت ليوم؟»

وقال الحسن في تفسير المحاسبة في مستقبل الأعمال ومستدبرها.

«إن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر عن غير محاسبة.

إن المؤمن يعجزه الشيء يعجبه، فيقول:

«والله إني لمعجبي، وإني لمن حاجتي، ونكر هيهات هيهات، حيل بيني

وبينك».

ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول له.

ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا إن شاء الله أبداً^(١)».

وكذلك أهل الدنيا في صناعاتهم وأعمالهم: إذا أراد أحدهم أن يتدبّر العمل رواء في نفسه، وقدره ومثله في وهمه، وصوره في اعاقبة كيف يكون إذا فرغ منه، فإذا تمثل في وهمه على ما يريد من الأحكام والتام ابتداء فيه، حتى إذا مرغ منه عرضه خشية أن يكون وقع منه زلل أو نسيان فأخطأ فيه ومرط في إحكامه، فإن رأى تفريطاً أتم ما بقى منه وأصلح ما فسد منه «فعمال الله عز وجل أولى بذلك أن يشتتوا قبل أعمالهم، ويمثلوها في أوهامهم كيف تكون بعد فراغهم منها، فلا فراع لهم من جميعها إلا عند موتهم^(٢)»

وكذلك المستأجرون من أهل الدنيا، إنما فراغهم من أعمالهم إذا أنموها

(١) المحاسبى: الرعية لحقوق الله ص ٩ - ١١

(٢) المحاسبى: الرعية لحقوق الله ص ١٠

وإنما يحكمونها ويستعرضونها بعد فراغهم منها قبل أن يعرضوها على من استأجرهم لتكون على ما أراد وأحب، وكذلك عمال الله حل وعز يشبون في أول أعمارهم، يعرضونها بعد فراغهم منها كيف تكون إذا عرصت على خالفهم؟

هل هي كما يرضى بها عنهم؟ وهل أنوّه كما أمرهم؟

فشدن بينهما: هذا مخلوق استأجر مخدوماً بقليل فإن مكدراً ممزوج بالغموم، ولا يخلو أن يباله من هم يعترض، أو حزن يعترى، أو مصيبة فاجعة، أو سقم نازل، أو موت مفاجئ، وفيه الحساب حتى يتتبع عليهم جميع ما عملوا واكتسبوا، فيحاسبون عليه.

والذى عمل له الصادقون ملك عظيم وعدهم على أعمالهم الأجر الكبير، الباقي الذى لا ينفد، ولا يعترض فيه غم، ولا يعترى فيه حزن، ولا يحل بالعمال فيه سقم، ولا يختم عيشهم بالموت، ولا يتتبع عليهم به الحساب^(١).

فالتفكير والتثبت قبل العمل، والتمييز بين الخير وبين الشر الذى قد يكون عالماً به، واستدبار الأعمال الماضية ومراجعتها للتوبة عما قد يكون لحق بها شر، كل ذلك فرض وضرورة على الإنسان. والرجل التقى نفسه إذا ما تأمل في أعماله الماضية لن يجد يوماً من أيام حياته خلا من دنس، فما بال المهمل المتكاسل في أعماله؟

ولكن الإنسان لا يجب أن يقصر تفكيره على الماضى، بل ينبغي أن يصبر نفسه على الدوام محاطاً بشهوات الدنيا وإغرائها، وأن يعلم أنه لا بد منصرف عن سبيل الله - شاعراً بذلك أو غير شاعر - إن لم يعمل فكره في النظر والتثبت وتمييز الخير من الشر ومراقبة الذات، أى المحاسبة

مرتكب الذنوب والطريق النفساني إلى النجاة

أرد المحاسبي أن يرشد مرتكب الذنوب إلى سبيل التوبة والنجاة، فألف في ذلك رسالة هي: «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى». وليست هذه الرسالة إلى طرحها بالمسألة البسيطة ذات الحل الموافق، والعسر فيها يرجع في المقام الأول إلى تعدد تركيبات النفس الإنساني واختلافاتها.

وقد تحدث عنها المحاسبي في كتب أخرى من مؤلفاته غير هذا الذي ذكرناه.. ونحن هنا نعرض للمنهج الذي قال به في كتاب «الرعاية» من أجل تمكن مرتكب الذنوب من الاستهداء إلى طريق نجاته. وهذا المنهج، فيما نرى أكثر منطقاً من غيره، ولا يحمل ذلك الطابع المميز لمصوف ابتدئ به في منهج «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى».

والتقدير الصحيح لبراعة التحليل النفساني في المنهج الذي عرضه، لا يتأتى كاملاً إلا إذا راعينا على الدوام أنه تعبر عن فكر رجل مؤمن بوحدة حديثه إلى المؤمنين

ولسوف نرى أننا إذا رغبنا في تحريد هذا المنهج من المعالم القليلة الخاصة بالمسلمين، لنا قليل ذلك من قيمته الذاتية، بل لجعل منه منهجاً صالحاً لأصحاب أديان أخرى.

ومهما كان أمر البيئة الدنسة التي قد يؤخذ به فيها، فقيمتها من لدحية انشربوية ولأخلاقية باقية

ولعل القارئ يعجب للاهتمام الخاص الذى توليه هذه المسألة فيما يلى من بحثنا.

وعذربا فى ذلك أنا سعى إلى إيضاح الطابع المميز لفكر الصوفى الذى ندرسه، وهو طابع التحليل النفسانى. يقسم المحاسبى الناس إلى «منارل ثلاث»:

فهم من شأ على الخير لا صبوة له إلا الرلة عند السهو، مثلها ثم يرجع إلى قلب ظاهر لم تغوره الشهوات، ولم يعتد اللدات من الحرام، ولم تغفبه الذنوب، ولم يعد الران، ولم تغب عليه الصوة. فرعاية حقوق الله عز وجل، والقيام بها على هذا أسهل، وامحنة عليه أخف، ودواعى النفس له أقل وأضعف، لأن قلبه طاهر، والله عز وجل عليه مقبل، وله محب ومتول.

وأخر نائب من بعد صبوته، وراجع إلى الله سبحانه عن جهالته، وادم على ما سلف من دنوبه فى أيامه، قد أعطاه الحرم أن لا يعود إلى تصييع شىء من فرصه، ولا يعاود شيئاً مما سلف من دنوبه، والنفس معه تنازعه إلى عادتها، لترده برعبتها إلى لذنها، وهو يقمعها ومحاهدها، ويخوفها عواقب ما كان منها، وعدوه يذكرها ما فاتها من لذاتها، ويدعوها إلى ما تركت من شهواتها، ما هو فيذكرها قبس ما كان منها، ويعظم منه الله عز وجل عليها بنقلها عما يسخط ربها عليها، فلم يلبث إلا قليلاً، أن صدق الله عز وجل فى محاهدته وأمسك نفسه عن الشهوات التى تمقص عزمه حتى يده الله عز وجل دعوته، فيسهل عليه سبيل اطاعه كي ضمن لمن أتاب إليه، فقال عز وجل،

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فَمَا لَهْدِيْنَهُمْ سَبِيْلًا﴾^(١).

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(١).

وقال عز وجل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدُّ ثَبَاتًا، وَإِدًّا
لَأَتَيْنَاهُم مِنْ لَدُنَّا حَرًّا عَظِيمًا. وَهَٰذِهِ سَبِيلُ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

فوعدهم الله ببارك وعالي أن يحملهم على الطريق المستقيم، ويريهـم
الحق جهاراً سرمدًا، لأنه كريم يتعرب ممن يتباعد منه، فكيف بمن يتعرب
إليه؟ ويتعرب إلى من يتبغص إليه، فكيف بمن يتعرب إليه؟

وكذ روى أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال، بقول لله عز وجل.
«يا بن آدم إن تقرب إلى فقراً تقربت إليك شيراً، وإن تقربت إلى
شيراً تقربت إليك درعاً، وإن تقربت إلى دراعاً تقربت إليك باعاً، وإن
أتيتني سعياً، أتيتك هرولة».

وإنما هذا على حسن المعونه، وسرعة الإجابة، ولهداية بالسداد
والتوفيق، ولاكتشاف بالعصمة، في يثبت هذ التائب إلا بسيراً حتى يقبل
الله عز وجل عليه بمعونته، فيتعرب على هوى نفسه، ويقوى الله منه ضعفه،
وعيت منه دواعى شهواته، فيقهر العقل منه الهوى، ويعرب العلم منه على
الجهل، ويسكن قلبه الخوف، والحزن، ولهم، ويواصل فيه الأحرار بعد
طوى هوى، واتصال أقراحه بالذسا، كلما ذكر ما كان منه من دنوبه هاح
خوفه، وعرب همه رطال حزنه، فإذا غفل عن الذكر سها عن الفكر،
فصارعته نفسه فمال إلى بعض الرلل الذى لم يعر من مثله الصالحون عند
عفلاتهم وسهولهم.

ثم يرجع إلى الله عز وجل بقرب طاهر من الرين والدنس، قد قطعه

عن عادته، وأعقبه بالخوف من لأمن والإصرار، وبالرحاء الصادق من لغرة والتسويق، فهو من سالف ذنوبه هارب لرحمة ربه عر وجل، ويهربه طالب له حتى يلفاه وهو من عذابه آمن.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

«إن العبد ليدنس لذنب فيدخله ذنبه الجنة، قيل: يا رسول الله، وكيف يدخله ذنبه الجنة؟ قال: لا يزال نصب عييه تائباً منه، هارباً منه حتى يدخله ذنبه الجنة»

وقيل لسعيد بن جبیر: من أعبد الناس؟ قال:

رحل أصاب من الذنوب، فإذا ذكرها اجتهد.

وروى عن النبي ﷺ، أنه قال:

«خياركم كل مهتن تواب».

بحيرك: أن حيار أمته لن يعرفوا عن الرلل، وأن علمهم بالله عر وجل،

من يدعهم حتى يرجعوا إليه بالتوبة والإتابة.

والثالث: مصر على ذنبه، مقيم على سيئاته وسينته، يغلبه الهوى وضعف

الخوف، مقرر مع ذلك بأن لله عز وجل معاداً يعثه فيه، ومقاماً يوقفه فيه،

ويسائلة عما كان منه، وتوابعاً وعقاباً يصرفه من بعد السؤال إلى أحدهما، ثم

يحل فيه مخدداً إلا ماشاء الله الملك الكريم من بعد التخيد في العذاب

الآليم.

فهذا إقرار بالإيمان في قلبه قد زایل به الجحد، وصدق به الرب عر

وجل والقلب بالشهوات مشغول عن الفكر، والرین له مانع عن لذكر

لا الخطرة تهيج من الإيمان بذكر المعاد، ثم لا تجد موضعاً تستقر فيه، ما

علب على قلبه من لقسوة، وتتابع فيه من العفلة، فقلبه هائج باشتغال

لدنيا ولا يتفرغ للفكر ولا يجد حلالة للذكر.

وكيف يكون بلذكر فيه مستقر، والأشغال تمارعه، والعقالات تعذب
عليه؟

فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه، فيتوب إلى ربه من
دنيه، ويلحق بصاحبيه البدين من قبله. لناشئ على غير صبوة، واستيب
بالتوبة إلى خالقه تعالى^(١).

ونسأل: ما لدى يبعثه على لتوبة وترك الإصرار؟
إنه الخوف والرجاء لربه، لأن الله هاهنا عما يهوى قلبه وشتهييه نفسه.
فحمله لطبع موافقاً خفيفاً وفي المباشرة لديدًا. وكذا روى عن المصطفى
ﷺ أنه قال

«حفت النار الشهوات».

فأحرر أمر العمل لدى يدحل به عامله النار شهى في أسفوس
فمن ترك ما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه بما كره ربه، فقد احتجب عن
النار واستوجب الحلول في جوار الله.

والأعمال التي أمر الله بها وندب إليها أكثرها محل للقلب، متعب
للجوارح أو مشغل عن أصداده من اللذات، وذلك كرهه في الطبع ثقيل
على النفس.

وكذلك يقول الله تعالى:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ
شَرٌّ لَكُمْ﴾^(٢)

وقال: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرًا﴾^(٣)

(١) الرعاية لحقوق الله ص ٦٤ - ٦٧. (٢) النساء آية: ١٩.

(٣) البقرة آية ٢١٦.

وقال الصادق المصدوق، عليه السلام:

«حفت الجنة بالمكاره».

فأحر أن الحجاب الذي حفت به الجنة، هو العمل الذي هو كربه في
لنفس، ثم أخبر أنه من حمل نفسه على ذلك المكروه، حتى يؤدي حقوق
الله تعالى عليه، دخل الجنة.

والله العليم الكريم أعلم بحلقه وبما يصلحهم، فعلم من هذا العبد قبل
أن يخلقه أنه إذا طبعه على حب ما وافقه، وبغض ما حاله، ثم علم
ما يوافقه مما يخالفه فهاجت لذلك شهواته، ودارعته إلى ذلك نفسه،
ولا سبيها من خاض في استعمال الشهوات عمره لن يدع ما تشتهى نفسه
إلا أن يخلق له عذاباً أليماً، ثم يتهدده به، ولن يحمل ما يكره إلا أن يخلق
له نعيماً مفيئاً، ثم يرحبه ذلك النعيم ويعدّه آية، فحلقها جميعاً لعلمه بحلقه،
وما أراد من كرامة أوليائه، وهوان أعدائه، وعلم أن هذا العبد الضعيف
الجاهل إذا غيب عنه الثواب والعقاب، وصاروا مذكورين في الخبر
لا بالعيان، لم يسمح قلبه بترك لشهوات، وتحمل المكاره إلا بالخوف لما
خوف، والرجاء لما رعى، فخوف عباده وتهديدهم، ورحاهم ووعدهم
ليخوفوا أنفسهم ويرجوها فيخافوه.

وكذلك وصف الله الدين فهموا ذلك عنه وخافوه، فقال عز وجل:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (١).

فأخبر عز وجل أنه لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى.

وقال ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢).

وقال جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ (٣).

(١) البارعات آية: ٤٠.

(٢) الأنبياء آية: ٤٩.

(٣) الرعد آية: ٢٨.

فأخبر أن ما غاب عنهم من العقاب هم له خائفون، ولما رجاها من الغيب هم له راحون، وأنهم لما خافوا ورجوا هربوا وطلبوا، وإنما جعل الجراء من العقاب والثواب والرهبه والرعبه من الله تعالى، ليدلوا للمجازي، فيعبده بالخضوع له، والدلة ليورثهم في الآخرة النعيم والعز، وأخبر: أنهم لما رغبوا ورهبوا خضعوا له بالذلة، وكذلك أهل الدنيا، من خاف منهم ذل من يخاف حتى يعفو عنه، ومن طمع منهم ذل لمن يرجوه حتى ينال منه ما يأمل، وسارع في محبته.

وكذلك وصف الله أوليائه فقال.

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(١).

قال الحسن. هو الخوف الدائم

وقال مجاهد. «الذل في القرب يعني ذل الخوف لأنهم لما رجعوا، ما غاب عنهم من لثواب حملوا الذكره، فوصفهم في كتابه فقال تعالى:

﴿إِنَّ الْبَيْنَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَهَاجَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾^(٢).

وقال عر وجل:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا يَفَاءَ رَبِّهِ فَلْيُفْعَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣).

وقال عر وجل.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاقِيًّا﴾^(٤).

(٣) الكهف آية ١٨٠.

(٤) العنكبوت آية ٥.

(١) الأنبياء آية ٩٠.

(٢) ليفة: ٢١٨.

قيل في التفسير. ثواب الله

فلما حافوا هربوا وجابوا ما نهاهم عنه كما وصفهم فقال.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾^(١)

وقال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٢)

وقال تعالى:

﴿وَيَحْشُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(٣)

قلت: فيم يبال الخوف والرجاء؟

قال بتعظيم المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد

قلب. فيم يبال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد؟

قال. بالتحويل من شدة العذاب والترحي لعظيم لثواب.

والتحويل يبال بالفكر في المعاد، ولفكر يتل بالدكر، والدكر باستيقظ

من الغفلة، لأن الله جل وعز إنما حوفا بالعقاب لسخوف أئمتنا، ورحانا

لرجبها.

ولتحويل تكلف من العبد بتمه الله عز وجل وبفصله عنه

وقد يحظر الله جل وعز الخوف بقلب العبد المؤمن من غير تكلف، إذا

أراد أن يتفصل عليه بذلك، وإن لم يحضره بباله لم يكن لعبد عنده معدور،

يتركه التكلف للتخويل، كي أمره أن يخوف نفسه، لأنه أمره بالفكرة في

المعاد، وذلك هو التخويل والرحى، وتهده وأوعده ليتذكر في ذلك مخافه

ويرجوه.

(٣) الرعد آية: ٢٦

(١) إبراهيم آية: ١٤.

(٢) اسأرعت آية: ٤

فإذا أراد هذا العبد المصّر أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه، ويبعث على التوبة من دونه، فليكن يطلب الخوف بالتخويف بالفكر في المعاد، ومخوم الموت وعظيم حق الله عز وجل، وواحب طاعته، ودوام بصيحه لأمره وركوبه لنهيه.

قلت: فمن أين ثقلت الفكرة على العباد؟

قال: ثقلت المكرة على العباد لثلاث صلال: فقد مجتمع على بعضهم فتشغل عنه الفكرة، وقد يثقلها على بعضهم الخلة من هذه الخلال الثلاث أو الخلتان.

فإحداها: قطع راحة القلب عن النظر في الدنيا بالدكر في الآخرة، لأنه إذا تفكر سحن عقله عن الدنيا، فقطعه عن راحته بالفكر في الدنيا، والنظر في أمورها.

والخلة الثانية: أن الفكر في المعاد وشدائده نلذيع للنفس، وغم لها حين تذكر المعاد والحساب، وما لها وما عليها، لأن الموحّد المقر إذا تفكر في ذلك هاج منه لعم والحزن، لإيمانه بذلك، فيتغل الفكر على النفس من أجل ذلك، لأنه يثقل عليها ما أهاج عليها لغموم والأحزن.

والخلة الثالثة: أن النفس ولعدو يديس قد عسا أن امريد إذا أراد الفكر في معاده أنه إنما يطلب بالفكر خوفاً يقطعه عن كل لذة لا تقرب إلى ربه، ويحمّله على كل مكروه يتعمّله فيها أوجب عليه.

فالنفس يتغل عليها الفكر إذا علمت أنه إنما يطالب بما يقطع به عنها لذتها بأن حاسنها، ويحمّنها على ما تكره ويثقل عليها، وقد علم العدو أنه إنما يطالب ما يبطل عنه مكائده ويدحص ححته، ويخالف محبته، فبهذه الخلال الثلاث ثقلت على المریدين لفكرة.

قلت: فما الذي يحففها؟ قال العاية

قلت: فما تورث أعناية؟

قال: عظيم المعرفة بعظيم قدر ما ينال الفكر بالفكرة من المنافع في الدنيا والآخرة، وبالعظيم قدر ضرر الغفلة عن الفكر في المعاد.

قلت: فإن اعترضته هذه الثلاث الخلال عند ذكره عظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع، فبم يدفعهن عند ذلك إذا ثقلت الفكرة عليه باعتراض الخلال الثلاثة؟

قال: يرجع العبد إلى نفسه في هذه الثلاث خلال إذا عرصت له عند إرادته الفكرة، أو عرض بعضها دون بعض، لأن كل خلة منها فيها عبرة بذكر سببها من شدائد الآخرة، بل أعظم وأظم، فيرجع إلى نفسه بالعتاب لها وبالتوبين في ذلك فيقول لها:

أتهجزعين أن أسجن عقلك عن النظر في الدنيا؟ فكيف بسجنك في النار أبداً؟

فتحملي هذا الثقل القليل للنجاة من السجن الطويل.

أتهجزعين من سجن عقلك فيك عن النظر في الدنيا لنجاتك وفوزك في المعاد؟

ولا تهجزعين إن تركت الفكرة التي تحمرك عن المعاصي التي تورثك السجن وتكبك في النار أبداً.

فمن السجن في النار فاجزعي وتحمل هذا القليل العاني للنجاة الدائمة، وأما جزعك من تلذيع ذكر العقاب، فكيف جزعك من مواقعه؟ فالفكرة فيه أيسر من مباشرته فتحمل تلذيع ذكره للنجاة من الخلود فيه. وأما فرارك من النظر فيما يتجيبك من عذاب الله كراهية أن ينمض عليك لذنابك في ديارك فكيف بالتفريط عليك لذناب الآخرة، وحرمان

ما فيها من نعيمها؟ مع أن الله ليس بباركك إن صدقته مع ما تمالين من نعيم الآخرة حتى ينعمك بطاعته في الدنيا.

ففى نعيم الطاعة في الدنيا والظفر بعيم الآخرة عوض من تنقيص لضاات الدنيا، وسس لذات الدنيا، وليس لذات بنعم لو تعقلن، بل شعل قلب لا يقضى وهم لا ينفد وحرص لا راحة معه، مع ظلمة القلب إذا سلبت بمعصية الله نور الطاعة والنعيم بها، فالذل والهمل فى لذاتك فى الدب، والعز والغنى والنعيم فى لاستبدال بها السعم بطاعة ربك، لأن ترك اللذة لله، ألد عند المرید، وأبقى فى القلب لذة مخالفة بمواقعة ما كره الله، لأن العبد يصيب اللذة ساعة أو أقل من ساعة، ثم يعقبه الندم الطویل، وإذا تركها لله، ثم ذكر أنه تركها بطلب رضاء فكلما ذكرها أمل ورجاء، أن يكون قد رضى عنه بتركه لها، ووجد سرور ذلك وبذته، فيبقى ذلك السرور فى قلبه حتى يموت، والذي يفتح الفكرة ويعرف طريقها اجتماع لهم مع لمطالبة بالعقل والتركمل على الرب تعالى لا على العقل

ويجب المحاسبى بعد ذلك على محدثه الذى يسأله أن بدله على مفتاح الفكرة إن خفت وضل عن طريقها، فنقول:
قلت: فاجتماع الهم بهم يمال؟
قال: بجلتين.

إحداهما، قطع شعل الخورح عن كل شىء سوى ما يريد أن يفكر فيه، لأن النظر بالعين يلهى القلب ويشغله، واستماع الأذن كذلك، ومس اليد كذلك.

والثانية: أن يمنع قلبه أن ينظر ويتفكر فى شىء من أمور الدنيا سوى ما يريد أن يتفكر فيه.

فإذا قطع العبد شعل جوارحه من الظاهر، وقطع فضول الفكر من

الباطن، ومنع قلبه من الفكر إلا فيما يريد أن يتفكر فيه، اجتمع همه وحضر عقله، وكذلك رأينا أهل لدنيا، إذا أراد أحد منهم أن يحكم شيئاً من أمر دنياه من تقدير عمل يحصله، أو حساب يريد أن يحكمه، منع سمعه وبصره أن يشغل بشيء سوى ما يريد عمله وإحكامه، ومع قلبه أن ينظر في غير ذلك كراهية أن لا يحكم حسابه إن اشتغل قلبه بالفكر في غيره، أو نظرت العينان أو استمعت الأذنان إلى شيء غير ذلك.

فإذا اجتمع همه ثم تفكر بالتوكل على الله لا على عقله، فتحت له المكرة بمنة الله لأن العبد قد يغفل ذلك إذا اجتمع همه وانكل على عقله لما يعرف من قطنته، وقد يوسوس إليه العدو أن الفكرة إنما كانت تستعلق عنك باشغالك، فأما إذا حضر همك فإنه ستفتح لك الفكر، فيتكل على عمله وينسى ربه تعالى، فأخاف أن لا يفتح له ما يريد من خير. ومن ذلك حديث سليمان النبي عليه السلام، في الولد أنه قال:

لأطوفن الليلة بمائة امرأة، فتحمل كل امرأة غلام، يقتل في سبيل الله فرسانا

ولم يقل إن شاء الله: فقال النبي ﷺ:

فما حمل منهن امرأة واحدة جاءت بشو غلام

قال النبي ﷺ: «لو قال: إن شاء الله لكان كما قال»

فإذا تفكر في المعاد بتخويف نفسه عظم قدر العذاب عنده، فإذا عظم قدر العذاب في قلبه حاج الخوف حتى لا يملكه، فما مثل التخويف في جنب الخوف إلا كمثل الوقود في جيب الغليان، كالموقد يوقد تحت القدر المملوء، فكلما أدام الوقود اشتد الغيان.

فكذلك العبد: كلما أدام الفكر بالتخويف في ذكر العقاب وكثرة

الأهوال وعظيم السؤال مع المعرفة بعظيم حق الله جل وعز، وواحب طاعته، وأنه لعامة ذلك مضيع هاج الخوف.

فإذا هاج الخوف قذف القلب بالإصرار على الذنوب، وسخا عنها نفساً فتدم وتاب وخشم وأتاب.

فمن أدمن الفكر بالتخويف لنفسه فيما تهدده ربه وتوعده به هاج حوقه، فأطعماً در شهوانه الى أصر عليها، فسخا برك الإصرار نفساً، وأقلع عن الذنوب وخاف عاقبتها ولا سيما إذا أدمن العكرة وهو يتلو كتاب الله عز وجل، فيتفكر في وعده ووعيده، وهوان القيامة وشدائدها، وتلك أنجع العكرة إذا كانت بتلاوة كتاب الله عز وجل.

قلت: فهل يسوى المصرون في ذلك؟

قال: لا، المصرون في منازل شتى، فبعضهم من كثرت ذنوبه، وعظمت بليته، وطالت غفلته واحتجابه بها عن الآخرة، فإذا أعمل قلبه في الفكرة بالتخويف لما خوفه ربه عز وجل، لم يهيج منه الخوف سريعاً لطول غفلته وغلظ القسوة فيه.

ومنهم من قلت ذنوبه، ولم تطل به الغفلة، ولا احتجابه بها عن الآخرة. ومنهم نائب من بعض ذنوبه، وهو مصر على ما بقى من ذنوبه وهم في طيب الخوف متفاوتون.

قلت: ففصل لى بين من عظم بلاؤه واشتد مرض قلبه، وبين غيره من المدنيين.

قال: إن للعدو حدة من الدعاء عند مطالبته الخوف، لمن عظم ذنبه، وطالت غفلته، وغلظت لقسوة فيه، فإذا أعمل قلبه في الفكر بالتخويف لما

خوفه ربه، لم يهيج منه الخوف سريعاً لطول غفلته. وغلظ القسوة في قلبه، لأنه قد أعضل دأؤه فلا يسجع (أكثر) الدواء فيه سريعاً، وكذلك أهل الدنيا في أمراض أبدانهم.

إذا طال السقم بأحدهم وأغفل داءه حتى أعضل، لم ينجع الدواء فيه إلا بطيئاً، وكذلك من طال مرض قلبه وأعضل دأؤه لم ينجع التخويف فيه سريعاً.

فللعدو وللنفس تشبيط منها بالدعاء عند طلب الخوف، فإذا لم ينجع التخويف فيه سريعاً، دعتة نفسه وعدوه إلى الملل والسامة والانصراف عن الفكر، وأنه ليس بمقامك، ولا يهيج الخوف من مثلك، إنما نعى نفسك، فيترأ لفكرة والطلب ويعتقد المي والتسويق إلا أن يكون ليلاً فظناً، فإن كان ليلاً فظناً رجع إليهما بالزجر لهما عن دعائهما وقال لهما، إن عظيم ما يطالب من النجاء، وعظيم ما قد حل به من البلاء المسلم له إلى عذاب الله، إلا أن يعفو الكريم تعالى: يزيلان السامة والملل في طلب الخوف، ويبعثان على الدوام بالفكر بالتخويف، وإما هذا مقام مثلي لأنه إنما خوف العصاة من عبده ليخافوه، وتهدد بالتخويف من عظم ذنبه وطالت غفلته، ليتيقظ من رقدته وبيق من سكرته، ولكن دأبي قد أعضل، وسقم قلبي قد طال، فالدواء بالفكر والتخويف أولى بي إذا أعضل دأبي، وطالبت غفلي فإن أدمن على ذلك هاج الخوف بإذن ربي.

ولذلك مثال من الدنيا كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى، وكالثوب إذا كثر وسخه لم ينق إلا بإدامة غسله، فإذا أدمن المصر الفكر بالتخويف سخت نفسه بالتوبة، وكذلك النابت من بعض ذنوبه المقيم على بعضها قد يكون بعض ما هو مقيم عليه قد غلب على قلبه حبه، وطالت به غفلته، ودامت له عادته، ومطالبة الخوف في عاقبة ذنبه ذلك

عسيرة، وهو دون انصر على أكثر ذنوبه، إلا انه يحتاج أيضًا إلى الدوام على الفكر ودفع خدع النفس والعدو مثل ذلك، حتى يسخو نفسًا بالتوبة. ويسم على جملة ما عمل من لدنوب، ويسوى أن لا يعود وقد أنجع حينئذ فيها الخوف.

قلت. فالتدم على جملتها يحزبه دون معرفتها بأعيانها؟

قال لا، لأن كثيرًا من الذنوب يسترها الهوى ويحول بين العبد وبين النسيان، وللعُدو والنفس خدع عند ذلك، إذا علم أنه قد غلبها، وصار إلى الدم واعتقد التوبة من ذنوبه؛ أرياه أنه لا ذنوب له إلا الذنوب التي يذكرها في ذلك المقام.

وقد تكون له ذنوب آخر كثيرة، وكانت في أحواله فيها مضى من عمره، من كلام لا يظنه ذنبًا، أو عمل لا يعده خطأ، أو مظلمة لا يرى أنها مظلمة لغلبة الهوى، وقد يخيل إليه أنه قد تاب من جميع ذنوبه، وهو مصر على أكثرها أو بعضها وهو لا يعلم، لأنه في وقت الخوف أطوع ما كان لربه، وليس له حارحة تتحرك بما يكره مولاه، وهذا لا يكاد يعرف جميع ذنوبه تلك الساعة، فإن كان عاقلًا متيقظًا علم أن له ذنوبًا كانت في أحواله في مضى من عمره كثيرة، ومثله مما كان فيه من الغفلة يحصى عليه أكثر ذنوبه من كلام يتكلم به لا يظنه محرّمًا عليه، أو عقد ضمير بالسوء لم يكن يراه فيه محطًا، بل قد يسمع به فيتعجب ممن يأتيه وهو يهمله وهو نائب ولا يعرفه.

قلت: فمعرفة أي الذنوب؟

قال: يعرفها بتذكر ساعاته فيما مضى من أيامه فإنه لا يعرفها إلا

بذلك، ويذكر أحواله في ساعاته فيما مضى من عمره كيف كان فيها، من حق ضيعه، أو ذنب قد ركب؟

فيعرض أيامه الخالية في عمره، وأحواله في أيامه، وحركانه وسكونه، وضميره في أحواله، فيذكر عضبه ورضاء وكيف كان فيه؟

ومحبته وبغضه واكتسابه وبفقه وإمساكه، ورد ما كان عليه من حق، وأحده ما كان له عند غيره من حق كيف كان قد أحده أبحق أم بظلم؟

ومنطقه ولحظه واستماعه، وخطاه يرحله، وبطشه بيده، ومظام العباد عنده في أموالهم وأعراضهم وحقوق من يجب له عليه لحق من أقربائه وغيرهم، فيتذكر تذكر من يريد لطهارة قبل لقاء الله، ويتذكر مظام العباد عنده بذكر من أوقف نفسه للقصاص قبل القصاص بين يدي الله، فإذا تذكر كيف كان منذ أصبح إلى أن أمسى في جميع هذه الأحوال، وكيف كان إذا أمسى إلى أن أصبح، فعرض كل حارحة على حيالها في حيالها في عمل ليلة ونهاره، وكيف كان قلبه في أعماله الصالحة، ما كان يريد بها، وعلام كان يدور، وما الذي كان يبعثه على الأعمال، وكيف كانت عقود صبره من الحسد على الدين وغيره، وجميع أعمال قلبه؟

ذكر حقوقاً كثيرة لله صيغها، فكلما ذكر حقاً قد ضيعه هاج الندم من قلبه على ما مضى من تفريطه في حقوق ربه، وأعطى العزم على أن يقوم به لله عز وجل فيما يستقبل من عمره، فكلما مر به الذنب قد كتسبه هاج حزنه وبدمه، وخاف أن يكون قد نظر إليه الله حل وعز، بمقت غضب، وإلى عن نفسه ألا يقبله بعدها، ولا يرحمه أبداً، فأعطى العزم ألا يعود إلى دس أبداً وتصل الرجاء بالخوف فمع منه الإيأس، ورجع إلى نفسه بذكر الرجاء، أنه لو كان أوجب ألا يرحمني أبداً لما أهاج قلبي بالرجاء، ولا تسحى فبي بالتوبة، فالرجاء والخوف هاتجان في قلبي.

ثم مزرع قلبه إلى ذكر ذى الجود والكرم، وأيادى الله السابقة هيمن كان أعظم منه دنباً وأطول غملة.

ثم رأى آثار الجود والفضل عنده إذا نظر إلى نفسه قد هاج الخوف منها، وتذكرت ما مضى من الذنوب، لتطهر من أدناسها قبل لقاء ربها عز وجل.

فهاج الرجاء حينئذ أن يكون في سابق علمه وقدره ولياً لربه، وأن ذلك الوقت تاريخ حكم ولايته، وخاتمة من أسعده، ليظهره قبل لقائه، ويزينه للعرض عليه، فيعطى الله العزم بالتوبة عند كل ذنب يذكره، وتضييع حق يعرفه وأداء المظالم إلى أهلها في عاجل الدنيا والتذلل لهم، لرجاء التعرز في الآخرة.

وأن يقوم بجميع حقوق الله، وما كان عليه منها أداؤه، كصلاة ضيعها في جهالته، وصيام أو رحم قطعها.

فإذا عزم العبد القيام بجميع حقوق الله بعد معرفته بذلك، فعند ذلك للعدو وبنفس خدع، يريانه أنه إنما ينال القيام بـ عزم عليه بعقله وقوته، وأنه بعد عزمه لن يفلح، وينسى التوكل على ربه فلا يؤمن عليه الخذلان.

ومن ذلك حديث سليمان عليه السلام، أنه لم يعط ما أراد بقصد عزمه إذ أغفل التوكل على ربه عز وجل.

وكما أنزل الله على النبي ﷺ يعاتب أصحابه في يوم حنين، حين قال منهم من قال: «لن تغلب اليوم من قلة» فأمر أن يبارك وتعالى في ذلك يعاتبهم بما أغفلوا التوكل عليه قوله جل وعز:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِيرِينَ﴾^(١)

والأحاديث كثيرة في ذلك.

فإن كان عبداً عاقلاً رجع حينئذ إلى ضعف نفسه، وإلى ذكر قوة ربه تعالى، فرغب إليه في المعونة من عنده على أداء حقوقه ورعايتها، وناحاه بقلب راغب راغب.

فعزم وتوكل واستغاث واستعان، وتبرأ من الحول والقوة إلا بربه تبارك وتعالى وقطع رجاءه من نفسه، ووجه رجاءه كله إلى خالقه ومولاه، فإنه سيجد الله قريباً مجيباً، متفضلاً متحنناً.

وكذلك أمر من أناب إليه وعزم على طاعته

أما الأولى بالعبد بعد ذلك - أن يلزمه قلبه فهو أن يعلم أن الله تعالى محناً فيما يستقبل من عمره، وأن عدوه لم يمّت، وأن طبعه قائم لم ينقلب ولم يحل، وأن الدنيا هزینتها ومكروها لم تنمیر.

وعليه أن يلزم قلبه الحذر لست خلال:

فإحداها: أن يحذر أن يعود إلى ذنب قد عزم على تركه، حذراً أن تغلبه نفسه بهواها عند غفلته ونسيانه، فيعود فيه لما هاج من شهوته.

والثانية: أن يكون ذنب قد مضى من عمره ستره الهوى والشهوة في حال توبته، فيعرفه فيما يستقبل، فيعطى الندم عليه والعزم ألا يعود فيه، فيحذر أن تعود النفس إلى عادتها ومطالية هواها ولذتها في وقت غفته

والثالثة: أن يعرض له دنب لم يكن فيما مضى من عمره، لأن النفس إذا سمعت أبواباً من لسهوات أحر ستريح إليها، عوضاً بما قطعت عنه من الشهوات واللدات.

وتلك الخلال الثلاث تتعلق بالحذر من الذنوب، أى عما نهى الله عنه. أم الخلال الثلاث التالية، فهي تختص بالأعمال الواجبة، أى تلك التى فرضها الله على العبد، وهى:

١ - حق الله عز وجل، مما أوجب العمل به، قد كان مضيقاً له فأعطاه العزم أن يقوم لله تعالى به، فيحذر أن يضعفه فيما يستقبل من عمره، لاستقبال مكروه من تعب أو مشغل عن راحة الدنيى، أو واصع من قلره عند المخلوفين، كطلب الحلال وغيره، أو استدلال منهم له، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والقيام بحقوق الله تعالى فيما يخالف أهواء العباد

٢ - أن يكون حقاً لله عز وجل، قد ضيعه فيما مضى من عمره، سترته كراهية النفس للقيام به وهواها للراحة فى تركه، فلم يعرفه فى حال توبته، فيحذر أن تعود النفس إلى عاداتها من تصييع حق ربها فيقدم الحذر ليفطن له إن عرض.

٣ - أن يبتلى ويمتنع بحق لم يبتل به من قبل، ولم يجب عليه، كالعيال وغيرهم، فيضيع ما وجب عليه من ذلك.

فعلى العبد أن يرم قلبه لهذه الخلال السب، وهذا يكون الحذر والتيقظ وتدارك النسيان والخطأ.

فالعبد إذا عرضت له حاجة من حوائج الدنيا تيقظ فى الليل لها، حتى لا تفوته، فما بال حاجته من أمر الآخرة؟

«فإذا تطهر من هذه الخلال الست بالتوبة، فقد صحت توبته، وساوى الذى لم يكن له صبوة، فى رعاية حقوق الله عز وجل، فيما يستقبل من عمره، وساوى التائب من قبله الذى لم نستصعب عليه نفسه عند التوبة.

فقد ساوى هذا التائب من قبله الذى قلت كلمته، ولم تغم عليه دنوبه عند توبته، وساوى من لم تكن له صبوة، لأنه قد تطهر كما تطهر بما يكره الله عز وجل وعليهم جميعاً حسن القيام بحق الله عز وجل فيما بقى من أعمارهم.

ورغم دقة وتفصيل الوصايا التى عرضناها فيما سبق، فهى لم تشمل كل ما كتبه المحاسبى لنفس الغاية فى مختلف مؤلفاته.

ويمكن القول بأنه قد أشأ من هذه الوصايا - وعلى الأخص فى كتابيه «الرعاية» و «بدء من أبواب» مذهباً حقيقياً يوضح كل الإفصاح عن طابع التحليل النفسى فى فكره.

الرياء يحبط عمل الخير

عمل الخير يهدف عامة إلى غرض وقد يكون عرصه مثلاً: المجاعة، أي الثوب من رضوان الله والعمل الذي يهدف إلى هذه الغاية يحب أن يكون ظاهراً خالصاً.

وهذا شرطه الذي لا ماص عنه، وإلا فلا قيمة له ولا ثواب^(١).

ولكن العمل قابل لأن يحبط، وعامل إحباطه، الرياء.

فالإنسان لا يستطيع أن يقوم دائماً بعمل الخير سرّاً، فإذا أداه علناً حمده الناس عليه، وعظموا له من قدره، وعبدتْ فإن نفسه التي حرمت من كثير مما نهوه. تجدد في هذا الحمد والعظيم ثواباً للعمل، فندفع به دون إدراك منه، إلى الرياء بطلب الحمد والثناء لما يقوم به علناً من عمل، ولذلك يحبط العمل، ولكن لبس هذا إلا جانباً وحداً من جوانب الرياء، فالرياء أعم وأشمل، ومع أنه يعتبر نقصاً في كل مظهره، وأنه مذموم حيثما وجد في الأعمال، فلن نعرض له هنا أساساً إلا بوصفه عامل إحباط للخير.

والرياء هو القيام بالعمل بإرادة محمدة الناس، لا ابتغاء وجه الله تعالى.

«وهو الإرادة وحدها، إلا أنه عد وجهين:

أحدهما: أعظم وأشد، والآخر أهون وأيسر.

(١) وسوف يجد القارئ في فصل حر من بحثنا هذا تفسير المحاسبي للإخلاص في العمل.

وإلى الوجه الذى هو أشد الرياء وأعظمه: إرادة العبد العباد بطاعة الله عز وجل.

وأما الوجه الذى هو أدنى وأيسر: إرادة العبد بطاعة الله عز وجل وإرادة ثواب الله عز وجل، يجتمعان فى القلب.

ولكن كلا الوجهين رياء، وكلاهما نهى الله عنه نهياً صريحاً، وأجمع على دمه النبى ﷺ، والصحابة رضوان الله عليهم.

ففى كتاب الله تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُوفُ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

وفى الحديث:

(إن الله عز وجل يقول للملائكة، إذا رعت عمل العبد. إن عبدى هذا لم يردنى فأجعلوه فى سجين).

وفى السنة:

سئل النبى ﷺ: يا رسول الله قيم البجاة؟

فأجاب: (لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس).

ويروى عن النبى ﷺ، أن المرأتى ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق يا فاجر، يا غادر، يا مرأتى، ضل عملك، وحبط جرك، اذهب فخذ أحرك ممن كنت تعمل له).

وروى عن شداد بن أوس رضى الله عنه، أنه قال:

«رأيت النبي ﷺ يبكي، فقلت:

ما يبكيك؟ فقال:

أمر تخوفته على أمتي، الشرك؛ أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمرًا ولا حجرًا، ولا وثناً، ولكن يراءون بأعمالهم؛ فكان أخوف ما أخاف عليهم الرياء»

ويكثر ذم الرياء في القرآن والحديث، والمحاسبي، يذكر من ذلك أمثلة عديدة، ولكن ذم الرياء إلى درجة الحكم بإبطاله لعمل لا يقتصر على ما يظهر منه في الأعمال الدينية، بل يشملها حيثما وجد وفي أي عمل كان وبظاهر الرياء لا تحصى ولا تعد، وتصنيفها في منارل متميزة عمل يكاد يكون محالاً.

لذلك فلن نشير فيما يلي إلا إلى بعض أصناف من الرياء يراها المحاسبي مذمومة بصفة خاصة.

«وأعظم المرائين عند الله عز وجل، رياء من رآى بالإيمان، واعتقد لتكذيب والشك أو الريب، وكذلك المتأفق الذي ذكره الله عز وجل في غير موضع من كتابه».

ومن بين الآيات العديدة التي يذكرها المحاسبي في هذا الصدد، قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾^(١).

ويشرح المحاسبي أن المتأفق المرائي لا يفعل ذلك اعتقاداً منه في الصلاة، ولكن ليهن الناس أنه مؤمن بالفرائض، قائم بها.

(١) النساء آية ١٤٢

وطائفة أخرى أمرها أهون من الأولى شيئاً ما تصم: الرجل يرأى بالقرض، وإن كان معتقداً أن الله عز وجل ربه، وأن ذلك عليه مفترض، كالزكاة يكون ماله بيد غيره فيقول زكه، كراهه أن يدمه الناس على تركه الركاة

وكذلك الحج والصيام: يحضر معه في شهر رمضان من يفتن له إن أفطر، وهو لو أمكنه الإفطار لأفطر، فيمسك عن الطعام، والقلب يتقلب على خلوة يأكل فيها أو يأتي فيها أهله أو ما لا يحل له.

وهناك بعد ذلك الرجل الذي: «لا يزكى ولا يصوم ولا يحج، وبكذب القول:

إني قد زكيت وصحمت وصمت، لئلا يدم بترك الفرائض، فلا يحمله على صلاته إلا الخوف من المذمة.

حتى إنه ليصل على غير وصوه لئلا يذموه.

فذلك الرياء بالمرض، لا على عقد المنافقين على التكذيب والشك في القلب، ولكن مع اليقين بأنه محرم، وأن الله عز وجل لا شك فيه، وأنها عليه مفترضة، ولكن الكسل والتهاون؛ فيظهر أداء كراهة الدم وحب الحمد، ويأتي بعد ذلك: «المرائي بالسنن لواحية؛ ولولا من يحضره أو من يتفقده لتركها إيثاراً لحاجته أو كسلاً عنها.

ثم: «فرقة ممن يظهر لسك ترائي بإظهار الورع، فيطيل الصمت، ويمسك عن القبية وينهى عنها، ويمسك عن الحيابة، ويؤدى الأمانة، ويستعفر إذا ظهرت من أحدهم لرة.

والله عز وجل يعلم منه: أنه لو خلا بذلك لما فعله، وإنما يفعل ذلك لقبول الشهادة منه، أو لطلب دنيا أو طلب حسن الثناء، أو خوف من مذمة

وهناك الطائفة التي تضم «المرائي بإكمال الفرائض التي إذ تركها كان حرجاً أو منقوصاً في فرضه.

فإن حلا له الموصح خفف صلاته، وإن رآه الناس أثمها كراهية مذمتهم. وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال:

«من صلى صلاة حيث يراه الناس فأثمها وأكملها، فإذا خلا خففها، فذلك استهانة بمستهين بها وبه عز وجل».

وبلى هؤلاء: «المرائي بإكمال المريض بما لو تركه لم يكن حرجاً ولا منقوصاً، يعلم الله عز وجل أنه لو خلا ما طابت نفسه أن يقصر عما لا يجزيه غيره، ولما زاد على ذلك، فإذا رآه الخلق حسن وعمل وتبع الاتباع فيها.

يريد بذلك أن يحمّد بشدة التحرز للفرض».

ويتبعه في الرياء المرائي بالتزيد في السنن الواجبة، بعد ما أدى ما يجب عليه، ليثنى عليه وهناك أيضا من أهل الرياء الذين يذكّرهم المحاسبى:

«المرائي بالمواعل تكلفاً إذا اطلع على بعض ما يقصه في الدين عندهم، أو خاف أن يظن به أنه لا يريد الله عز وجل بذلك، يخاف أن تزول منزلته، وتغير حاله في القلوب التي كانت فيها.

وأيضاً: «المرائي بالعمل يريد الله عز وجل، ويريد غيره، ولولا إرادة الخلق وحمدهم بذلك ما عمله، ولو خلا لما عمله الله عز وجل وحده، فلما اجتمع له الأجر والحمد أنشط له».

والأعماط المذكورة من الرياء أعماط من دنوب المعصية، ولكنها لا تتضمن دنوباً أخرى إضافية.

والى القارئ منازل من الرياء تختلف في نوعها عما سبق.

هناك من يرائى بالموافق ابتغاء غاية هي في حد ذاتها ذنب، ويظهر التقوى والنورع و«يجعل طاعة الله عز وجل سلباً وبضاعة ينال بها معاصيه» كالذى يريد الوصية ليختارها» أو «أخذ المال لغزو والحج يختاره».

ثم «المرائى بالنوافل المعصية هو مقيم عليها، مخافة أن يفطن له، ليبرأ في القلوب ويظن به البرامة مما يدعى عليه؛ وكذلك إن كان مقبياً على فجور، يستره بالنوافل والنورع وإظهار الطاعات والبر».

وأيضاً: «المرائى بالتطوع لينال بذلك الدنيا» والأجر عند الله أعظم لو كان يعلم.

ويسرد المحاسنى من نماذج المرائين غير ذلك لكثير، وإنا لنكتفى بهذا القدر منها، حيث يوفى بالغرض من بحثنا.



أما العوامل التى تدفع بالإنسان إلى الرياء فهي:

«ثلاثة عقود في ضمير النفس: حب المحمدة، وحواف المذمة والضعة في الدنيا، والطمع فيما في أيدي الناس».

وأصل هذه العوامل الذى منه تشعبت هو:

معرفة النفس بلذة ما ينال من الحمد والبر، وما يدخل عليها من ضرر الذم وغمه، فلما عظمت المعرفة بذلك بعثت العبد على اعتقاد هذه الخلال الثلاث، فيبدأ عهد اللقاء بالسلام والبشر والإعظام، وتهيبة والوسعة له في المجلس، وانتكرمه له بتشريعه، وقبول الشهادة، وتصديق الحديث، وحسن الظن به.

وأما الطمع فمعرفة أنه من يره الناس بما يظهر من طاعة ربه، فإنه

يوصل بالأموال وتهدي إليه الهدايا، ونقضى له الحوائج، ويسارع إلى إقراضه المال.

وأما خوف المذمة فمعرفة أن من دمه الناس يكذب صدقه، ويساء به الظن في الخير، فكيف في الشر؟ ترد عليه شهادته ويرد عليه قوله ويقصى مجلسه، ويعرض عنه، ويرد بغير قضاء حاجة، ويستحي من صحبته، وربما وضع عليه ذنب غيره، ويحمل عليه لغيره، وربما كان مظلوماً.

فما عرف عظيم قدر هذه الخلال في الخير، اعتقد حب حمدهم وخوف مذمتهم والطمع لما في أيديهم، فورثته لمعرفة بذلك الرغبة وغلبت على قلبه، فهاج دواعي هذه الثلاث الحلال إلى الرياء، هذه العوامل لثلاث تدفع إذن بالإنسان إلى الرياء غير أن كل واحدة منها كهيئة بذلك، ويسر من الضروري اجتماعها.

والرياء ينمى «بالمعرفة والكراهة إن جمعا، وإن اختلفا لم يستف الرياء».

فخطرات الرياء تتسرب إلى القنوب بوسائل خفية قد لا يدرك العبد مغزاها:

«فيملاً حلاوة حب الحمد ورهبة الذم قلبه، ولا يكون في القلب موضع مراغ يذكر به أن ذلك هو الذي يحبط عمله».

وقد تملأ قلبه انفعالات كالغيظ أو الغضب فينسى عزمه على تجنب الرياء، وينسى ذكر ربه جل وعز.

وسواء تسربت خطرات الرياء خفية إلى قلب العبد، أو تسترت في الانفعالات المختلفة، فالعلة واحدة، وهي فقدان المعرفة التي يتبعها زوال الكراهة.

ولكن المعرفة لا تكفى، فقد يأتي لإنسان العمل المحرام وهو يعلم أنه حرام، تغلبه شهوته، وحب نفسه للملذات، خاصة إن لم يخش في ذلك عقاباً من الناس.

فلا تمنع المعرفة والكراهة إذا احترقتا عند عارض الداعى إلى الرياء، والمعرفة تكتسب بالمحاسبة التى سبق لنا أن عرضنا أمرها

أما الكراهة فهى الخبة العسيرة المثال على الإنسان، فهو يحب المدح والثناء وغرائزه تدفعه دائماً إلى ما تهواه نفسه، ثم إن نفسه وعدوه ينشطان على الدوام بغية إعمائه عن سواء السبيل، والغرائز وهوى النفس والشيطان، سواء كل على أفراد، أو مجتمعين، يدعونه إلى الرياء، وإلى ما يجده فيه من أعراض الدنيا فإذا خضع المرء لهم، حبط عمله وبطل

ولكن الإنسان ليس غرائز وأهواء فحسب، فقد قرن الله ذلك فيه بـ «غريرة العقل» وتفصل عليه بالهداة المرشدين، فقرن: «مع العقل العلم والكتاب والسنة» وهم يستطيع العبد أن يقاوم لشر ويدكر النعيم الأكبر لمقيم الذى يوليه الله لمن خلصت نيته وظهرت.

وبالإضافة إلى ذلك يجد له عقده دعمتين إذا تفكر فيهما تمكن من مجاهدة الغرائز وهوى النفس والشيطان.
أولهما: كيف يكون مصيره عند الله.

والثانية: ماهى حصيلة الرياء فى الدنيا؟

فأما الأولى: فالمراتب: «يتحجب إلى العبد بالبعد عن الله عز وجل، ويرين لهم بالشين عند الله عز وجل، ويتقرب إليهم بالتباعد من الله عز وجل؛ ويتحمد إليهم بالتذمم لله عز وجل، ويطلب رضاهم بالتعرض لسخط الله عز وجل، ويطلب ولا يتهم بالتعرض للعداوة من الله عز وجل،

ويحرم في الآخرة الثواب، ويحبط عمله في الدنيا، ويبطل أجره في يوم فطره وحاجته وفاقته.

فلا تسأل عن تقطع نفسه بالمحسرات، ولتدامة، إلا أن يكون أخلصه قبل القيامة إذ رأى موضع منفعة الإخلاص، وموقف ضرر الرياء، وإن كانت حسنة راجحة على حاله لما عنده من العمل الخالص سوى ذلك فقد خسر بعض حسناته التي تقرب بها من ربه جل وعز، ويعلو بها في جنته، مع سؤال الله عز وجل له وتوفيقه إليه على الرياء والخياء منه أنه قد قدم في الدنيا في عمله عليه غيره في الهبة والمحمدة والتقرب.

وما يناله في الدنيا بإظلام قلبه وخبط نفسه، وزول الرجاء عن قلبه، إذ علم بريائه وشئت همومه في طلب حمدهم لا يحصى، لأنه كثير عددهم لا يحصى من يعامل منهم، ورضاؤهم لا يدرك لأن بعضهم يرصى بما يسيخط بعضهم»

وأما ما ينال منهم مع تعرضه لهذا البلاء العظيم، وما يترك به من رضا الله عز وجل في الدنيا والآخرة؛ فإنهم لم يزدوه بحمدهم في أجل ولا ررق، ولا اجترار عاقبة، ولا صرف بلاء، ولا دفع مكروه بما قدر الله عز وجل.

وأما الطمع فيما أبدى لهم فإنه لم ينل ما لم يقدر له، وإن كان نال شيئاً فإنما نال قدر له مما لو كان أخلص عبادة ربه لنال ما نال لا بحالة، فأحبط عمله وتعرض لمقت ربه وحرمان ثوابه من غير ازدياد في ررق؛ ولا أجل، ولا اجترار منفعة في دين أو دنيا على ما قدر له.

«فكيف لا يرهق عاقل فيما يضره في الدنيا والآخرة بغير اجترار ومنفعة له؟»

وأما المذمة فإنه لا ينزل به من البلاء ما لم يقدر له، ولن يناله من الدم

مالم يهدر، ولا يصرف بحافة ذمهم شيئاً من العاقبة والرزق، ولا يقطع من الأمل ما قدره الرحمن حل وعز».

فكيف لا يزهد عاقل في هذه الخلال الثلاث إذا عرف ضررهن، وأنه لا ينال منفعة في دنياء بشيء منهن، وأن أمر الله مفروغ منه، وأن هذه الخلال الثلاث خدعة وغرور، تضر الضرر الأكبر ولا تنفع في شيء من الأشياء؟

فإذا عقل العبد هذا كما وصفت له: أنه يحبط عمله ويبطل أجره، وتشتت همومه ويتمرض لوقت ربه عز وجل، زهد في هذه الخلال الثلاث ولم يعتقدهن».

عناصر الشر

(أ) النفس :

إذا كان الإنسان يأق الشر، فالعنصر الرئيسي الدافع له إليه هو النفس. والواقع أن إبليس - هذا العدو الدائم المشاط للإنسان - هو أيضاً عنصر هم من العناصر الدافعة إلى الشر؛ ولكنه لا يستطيع تحقيق أغراضه إلا بواسطة النفس؛ وغرائات الحياة الدنيا لا تصل العبد عن الصراط سوى إلا إن مالت إليها نفسه، ولا شيء قط في الدنيا يسقط الإنسان في الذنوب، لا إن لاقى ذلك من نفسه هوئ أو قبولاً.

لذلك حذرنا لله منها في مواضع كثيرة من كتابه، يقول مثلاً:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا نَجَّيْتُ رَبِّي﴾^(١).

لذلك وجب على الإنسان اليقظة الدائمة لمكرها به.

وعليه أن يتفكر في الأمثلة التالية حتى يستطيع مقاومة أغراضها الشريرة رياخذ حذره منها:

١ أن العزم منها في حال ارضا مبذول على الخلم وهي بالسية للعلم سحية غير ممنعه.

فكل إسان من كافر أو من مؤمن يحلم عند الرضا؛ فإذا غضب

(١) يوسف آية ٥٣

فطلبت منها الحلم، امتنعت منه فظهر منها من السفه والحقد وسوء الخلق ما لو يظهر من بعض الولدان لكان قبيحاً.

فمن بذل الشيء حيث لا يحتاج إليه، ومنعه عند الحاجة، أليس مخادعاً وليس بصديق؟ مخدلك عند الحاجة، ويعدك عند الغنى أنه يغشك.
فمن أعدى لك من فعل ذلك بك؟ ومن اكذب وأفجر من فعل ذلك بك؟

٢ - «وكذلك الإخلاص، تعطيك قبل العمل، وليس الإخلاص إلا نية الإخلاص أن يخلص عند العمل، إشفاقاً، زعمت على العمل أن يحبط في يوم فقرك وفاقته إلى، تعطيك ذلك سخية غير ممتعة.

فإذا عرض العمل، هاجت هي بالدعاء إلى الدخول فيها وعدت أن تمر به، وامتنعت مما وعدت أن تقوم به، وهاجت الشهوة بالرباء، وامتنعت من الإخلاص وامتنعت مما يقبل به عملك، ودعتك إلى ما يحبط به عملك في يوم فقرك وفاقته؟

٣ - «وكذلك تعطيك الورع في حال العدم، وإما ذلك نية الورع، فتزعم أنها تدع ما يكره الله عروجل حين نعرض للبلاء خوفاً من أن يعصب الله عليك فتستوجب العذاب وتحرم الثواب

حتى إذا قدرت وامتنعت حاشت بشهوها، فطلبت ما زعمت أنها تدعه إذا عرض لها إشفاقاً عليك من النار وحرمان الثواب، وامتنعت مما زعمت أنها تقوم به من الورع رجاء الأمن من العذاب والظفر بالفوز والثواب فهل يقدر أعدى الأعداء لك إلا أن يعطيك من الأمن ما تعثر به لتسكن فتطمئن ولا تحذره وتأمنه، حتى إذا عرض ما وعدك أن يعطيك كان هو الذي يطلب هلاكك وعطيك ليتال ما يريد ويشتهي؟».

٤ - «وكذلك الزهد تعطيك قبل الملك حتى يخيل إليك أنك من الراهدين حتى إذا ملك الدنيا أو القليل منها هاجم منها الرغبة، وكانت هي المطالبة والمنارعة إلى الرغبة واصادة عن الزهد».

٥ «وكذلك الرضا، في حال الرخاء والعافية، قبل وقوع القضاء بالبلاء والمصائب، حتى يخيل إليك أنك من الراضين.

فإذا نزلت مصيبة أو بلاء امتنعت من الرضا، بل كانت هي التي تهيج للجزع والتسخط وتثبط عن الرضا وتصد عنه».

٦ - «وكذلك تعطيك التوكل والثقة بالله عز وجل ما واثتها الأسباب ولدنيا وكفيت المؤونة، فإذا جاءت حال يحتاج فيها إلى النظر إلى الله عز وجل لا إلى خلقه والأسباب التي دون الله عز وجل، تعلق بالأطماع، وهاج رجاء المخلوقين وخوفهم، ولرم القلب الاهتمام بالأسباب وظهر التصنع والتعلق للحلق، فعدرت بك حين احتجت إليها، وكانت هي التي تصد عن التوكل وتثبط عنه».



ومن الأمثلة السابقة بنجلى لنا غرض النفس، وهي التي لا ترجو للإنسان سبل النجاة.

وهي لا تكف عن نشاطها في لتضليل والحث على التهلكة، فإن قدر الله عبده على مجاهدتها واليقظة لها فصار يذكرها بالوعيد والوعد واستطاع أن يقهر بذلك «هواها وغريزتها» ويحول بينها وبين «الشر الظاهر والباطن»، لجأت إلى وسائل أخرى من مكرها، و«طلبت الشر الخفى الغامض» تريد أن تنال لذتها فيها أحبت إليه كأنها لا تريد أن تصل إلى

خير من عمل الآخرة ولكنها تخوم على ن تال لذتها، لا تبالى قيم نالها
كاننا ما كان غير مكترثة».

وكل ما يضل العبد عن سواء السبيل فهو راحه للنفس وسرور، بل إن
«العبد لا يكاد يأتى برأ إلا وشهوتها ضده».

ومنه ما «لا تعب عليها فيه» كالسكوت عن الخوض في الباطل
وغض البصر وترك الغيبة، ذلك «لأنه وإن لم يكن لها متعباً، فإنه مشغل
عن محبتها وهواها».

وهى فى سبيل إحباط ما يشغل عنها فبمنع تحقيق شهواتها، تستخدم من
وسائل التضليل ما أمكنها.

«فقد يجبد العامل لله عز وجل، القوى العزم، الراحه فى الدنيا، نشاطاً
من نفسه للطاعة وشهوه منها لها، لا تكاد تصبر عنها، كأنها طبع منها، بل
قد يكون فى بعض الحالات أكثر من الطبع»

وتفسير الأمر، أن «ذلك لم يكن منها ابتداء، ولا هو موافق لها فى الخلقه
فى ضعفها ولا فى حال قوتها».

وقد كانت أولاً جاهدة حريصة أن لا يكون ذلك منها، فلما وهب الله عز
وجل للعبد قوة لعزم والمواظبة على مجاهدتها والقمع لها، فبنست أن يجيبها
إلى محبتها، وقهر الطبع منها قوه العزم وبور الحق، وغلبت عليه هموم
الآخرة وأحزانها، سكنت عن دعائها وانقطعت عن طبع عاداتها، وهى مع
ذلك على حلققتها وهيبتها.

ولو وجدت منه فترة رجمت إلى أسوأ أحوالها، ولرفضت أكثر طاعتها
لرما عر وجل».

ويزيد المحاسبي موقف النفس إيضاحاً فيصرب المثل التالي لمحدثه:

«ومثل ذلك كأسر من بلاد العدو استأسرته وقرقت بينه وبين ماله وأهله وولده وأرضه ووطنه، وقد كان جاهدك قبل الأسر على أن يكون هو المستأسر لك حتى أتاك من أعانك عليه فشده لك كتافاً وممكنك منه، فلم يزل بعد ما أمكنك منه يجاذبك إلى الرجوع إلى بلاده، ويطلب منك غفلة ليقتلك أو يستأسرك فيرجع بك معه إلى منزله ووطنه، فلم تزل تضربه وتقهره حتى انقاد لك من الخوف، وسارع إلى خدمتك، وأنت مع ذلك متخوف أن يجد فرصة فيرجع ويتركك ويرفض ما في يديه مما استرعيته من عملك، أكنت له حامداً، أو في أمره متزیناً».

«هكذاك نفسك قد كانت حريصة على الركون من قبل إلى الدنيا.

فأبى الله عزوجل إلا أن يوفقك ويسددك، وأعانك عليها، حتى أيسر منك أن تنال محبتها.

فأجابت مسرعة، على غير انقلاب من طبعها، ولا تغيير لغريزتها، وأنت مع إحابتها لك متوقع رجوعها».

ولكن هناك فرق بين النفس والأسير، لأن الأسير لا يرى أن الخير فيما يراد به وهي قد علمت أن يراد منها خير لها.

فقد سارت للأسير في محالته، وفضلت عليه في الشر، فهي شر وأعجب عصياناً وإباءً من الأسير، إذ عصت بعد العلم بأنك إى تدعوها إلى نجاتها، وبجانب هدكها. فالحمد لله وحده، وأبدم ها، والحذر والخوف منها».

والأمر لدى يعين الإنسان على هجر نفسه وإخضاعها هو التفكير في وعيد الله، وما أعده لمرتكبي الذنوب من ألوان العذاب في الجحيم، وقد

عرضنا لهذا تفضيلاً فيما سبق من بحثنا تحت عنوان «الطريق انفساني إلى النجاة»

(ب) إبليس :

أمرنا الله بأن لا نطيع عدوه في شيء، وعدو الله هو عدو الإنسان، وهو إبليس.

قال تعالى في كتابه.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

والغاية التي يسعى إليها إبليس تهلكة العبد وإحباط أعماله، وهو ينشط بمكره ووسائله الخفية إلى تضليل العبد وإدخال الرياء والعجب والكبر في أعماله من حيث لا يدري حتى تحبط، ولا يكون لها ثواب «عند الله»^(٢).

غير أن إبليس لا يعلم علم اليقين أسرار قلوب البشر، فهو قد خير وتابع ما يظهر ولكنه طالت مقارنته للإنسان، وتفقدته له ولأحواله، حتى لم تخف عليه حاله، فعرف مطالبه ومذاهبه، وقد ابتلى به العبد.

فعند كل خير صده عنه صداً من غير علم منه بما يحدث، غير أنه قد علم أن خيراً قد أحدثه العبد، وكذلك يعلم أن شراً قد أحدثه العبد، لا يعلم أي خير، ولا أي شر، فيعارضه عند حدوث الخير بالصد، وعند حدوث الشر بالتزيين.

(٢) المحاسبي: مراقبة، ص ٣

(١) فاطر آية: ٦

وكذلك الإنسان إذا طالت مقارنته لإنسان آخر، فإنه يهتم بأمره، ويعلم اهتمامه وسروره، ومن غير أن يعلم ما الذي سره، وما الذي غمه.

ولكن الإنسان إذا عظمت رغبته في الطاعة، ومن الله عز وجل عليه بالرهء، فإنه يحسه «يفعل من الخير الأقل بدعائه له ألا يفعل، وبذلك يخفل عن أن يصيب الأكثر فيقبل الشيطان من الإنسان عند ذلك ترك الأكثر

ولما كان الناس يخلفون في درجات إقبالهم على الخير واشتر، فإن إبليس لا يستعين بنفس الأساليب لتعريض بهم جميعاً، فقد يوسوس لهم بترك الفرائض أو يدفعهم إلى إهمال الموقل، وقد يوسوس لهم بارتكاب الذنوب الصريحة أو يدفعهم إلى الأعمال أو الأفكار المشكوك في أمرها، وهو يترقب من الإنسان الفرصة المواتية التي يصعب فيها ويسهل اقتياده إلى الشر، ولكن هناك من أعباد من يراصده، لأنه قد يئأس منه، إلا في موضع الغفلة، فلما كثرت عليه الوسوسة، كثرت احتراسه، ونفى وساوسه، فيراصده بتضيق الاحتراس، ويحمل عليه بالملاهي، ويبعد إليه بها.

فإن نفى الوسوسة، وصار إلى الذكر، وحسم الأشياء، خنس عنه، ولم يلع عليه، لأنه إذا ذكر عند الوسوسة أيس من الغفلة

وإن أراد الشيطان الطمع بالغفلة عن الطاعة، أعرض عنه اللعين بالوسوسة، كأنه لم يوسوس إليه، ولم يردده، كيلا يرداد لطاعة، وهم الدين وصفهم الله في كتابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنْ لَّشَّيْطَانٍ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١)

فمن الناس إذن من يستمع لوسوسة الشيطان، ولكن منهم أيضاً من يصدّه ويتجنبه ويحذره، وهؤلاء ليسوا في مقام واحد، لأنهم يختلفون في قوة العزم على الخير.

ومثلهم: مثل رجال أربعة أرادوا مجلس حديث أو ذكر، يخافون أن يفوتهم منه بقدر إبطائهم عنه في طريقهم، أو صلاة في جماعة أو جمعة. فمر أحدهم برجل من أهل الصلاة، فعرض له للتبسط والنهي عن الذهاب يريد أن يصدّه، فلما رآه يأبى أن يرجع قبل أن يجادله، فقام عليه يجادله ويخاصمه، والضال يحب طول المجادلة بينهما، ليموته بقدر ما يجبسه بخصومته.

ومر الثاني عليه فمها عن الذهاب إلى الموضع الذي يريده، فوقف مستهراً له راداً عليه، فاعسمها الصال بقدر ما يفوته يجبسه بالوقفة عليه.

ومر الثالث وهو يمشى ماشياً أو راكباً فعرض له بالنهي والتبسط، وقد علم ما لقي أصحابه من الحبس، فمضى ولم يقف ولم يحدث معي.

ومر الرابع وقد علم ما لقي أصحابه من الحبس، فمها أحسن بصوته، إن كان ماشياً سعى، وإن كان راكباً حرك راحله بالسرعة، ليعيظه وللدرك ما يطلبه تاماً، ولا يكون كأصحابه الذين قبله، فيوشك إن عادوا عليه، أن يعرض لهم ويدع هذا الرابع، لأنه اتخذ دعاءه عبرة وريادة في الخير بالسرعة إليه والإعراض عما دعه إليه العدو، وكذلك القوى لكيس من المخلصين^(١)

* * *

ولكن بما العمل؟

هل يجب على الناس أن يحذروا إبليس؟

أم أن عليهم أن يشتغوا عنه بالتوكل على الله عز وجل وبالطاعة،
«حتى يكون هو الذي يزجر عدوهم عنهم»؟

ويقول المحاسبي: إن أهل الفكر عرصوا في ذلك آراء عديدة مختلفة
«عامتها غلط إلا قولاً واحداً».

«وأحد ما قالوه أن فرقة من البصريين قالت: إنما يحتاج إلى الحذر من
ذلك لضعفاء فأما الأقوياء فقد انقطعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بحبه
فليس للشيطان عليهم سبيل، إذ قطعوا حب الدنيا من قلوبهم، وأبدلوا
قلوبهم بإلزام حب الله عز وجل لها، والاشتغال بالسيد وبمناجاته، فقد خنس
الشيطان عنهم وذل وأعزل».

«وقالت فرقة من أهل الشام: إنما يحتاج إلى الحذر من قبل نفسه
وضعف توكله

فأما من أيقن بأن الله عز وجل لا شريك له في تدبيره، ولا يحدث في
ملكه ما لا يريد، وأنه لا يضر ولا ينفع شيء إلا به، وأن الشيطان عبد
مخلوق دليل مهين لا تنفد به خطرة ولا مكيدة إلا بإذن الله عز وجل فيها،
فالعارف بالله عز وجل يرجع إلى الله عز وجل بالتوكل والاستحياء منه أن
يساء يحذر مخلوقاً دونه، فالحذر لغير الله عز وجل نقص من اليقين
والتوكل».

«وقالت فرقة من أهل العلم كلا الفريقين غلط»

أما ما قالت الأولى فإن من الاشتغال بالله عز وجل، والحب له، حذر
ما حذر منه، واتباع أمره فيمن أمر بالحذر منه، لأنه عز وجل يقول

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١)

وقال عز وجل يسار كله لا يحاشي ضعيفا ولا قويا
﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْضَحْكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾^(٢)
وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي نحصنها على الحذر من إبليس
قلو كان لله عز وجل محب الأمن منه لأحد ويزيل الحذر عنه، لأحبه
هما:

(أى آدم وحواء)، وأر له عنها في جسده، وليس لها فتنة ولا شيء تنها
عنه إلا شجره واحدة، فكيف بنا في فتن لا نحصى في القلب والحوارج،
ومالا يحصى من ملاذ الدنيا وشهواتها؟

وأمر الله بيبه ﷺ بصلاة الخوف، ففعل ذلك طاعة لربه لا اشتعالا
بعدو الله، والكفار عدو تراهم الأعيى ونسمع أصواتهم الآذان، والشيطان
عدو يراك ولا تراه.

فأى العدوين أولى أن يحترز منه؟ وأى المرغتين أولى أن تحذره؟
عدو تراه وإن عففت عنه فأصابتك برعته لم تخل من أحر أو شهادة؟
أو عدو يراك فلا تراه، وإن أصابتك برعته لم تخل من إثم أو خسران
عمل أو موت أو دخول إلى النار

فمد بين غبط الفرقة التي قالت إن من الاشتغال بالله عز وجل
الإعراض عما حذر الله منه طاعة لله عز وجل، واتباعا لأمره، فذلك بين
عمد من عقل أمر الله عز وجل.

وأما الفرقة الثانية التي قالت: إنه من اليقين والتوكل على الله عز وجل أن لا يحذر عدو الله، فهذا غلط منها أيضا، لأن أولياء الله عز وجل لم يحذروا العدو باعتقاد منهم أنه يضر أو ينفع دون الله عز وجل، ولكن طاعة الله عز وجل مع اعتقاد أنه لا تضر خطراته إن عصم الله عز وجل، ولا ينفع حذره إن خذل الله عز وجل.

ودوام الحذر هو عصمة من الله عز وجل، لأن الحذر مهبط حجز لعبد عن القبول منه.

فكيف يكون من يحذره قد نقص توكله، وحذره عصمة من الله عز وجل على العبد فيها. أعظم النعم؟

وذلك كما أمر الله النبي ﷺ بصلاة الخوف، وأمره أن يأخذ حذره من عدوه هو والمؤمنون.

فرعى النبي ﷺ وللمؤمنون ما أمروا به، لا ينقص ذلك من يقينهم ولا توكلهم لعلمهم أنه لا يكون إلا ما قدر، ولا يشعلهم عنه ذلك ولكن اتباعا لأمره واشتغالا بما أحب وأراد.

فليس من اتبع أمر الله عز وجل مع اليقين بنقص التوكل واليقين؛ ولكن ناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين.

وهذا قول الفرقة المتبعة لكتاب الله عز وجل والسنة»

ولكن كيف الحذر من إبليس؟

أهو انتظار وتوقع متى يعرض؟

أم نحذر بغير انتظاله؟

يقول المحاسبى: إن الفرقة لفي دلت بحذره اتباعا لأمر الله عز

وجل» اختلفت إلى ثلاث فرق كلها غالطة إلا فرقة هي الثالثة

والأولى ترى ما يلي:

«إذا أمرنا الله عز وجل بمجاهدة من لا نراه، وخوفنا منه، وأعلمنا أن في ظفري بنا الهلكة، ولا يكون في قلوبنا شيء أغلب عليها ولا ألزم لها من حدره، فسنظر متى يعرض بفسه، لأن الاشتغال عنه يورث النسيان، والنسيان يورث جهول خطراته بغير معرفة، وذلك يؤدي إلى الهلكة».

وتقول الفرقة الثانية:

«ذلك غلط لاشتغالها بانتظار الشيطان ولم تؤمر بذلك وذلك إرادة الشيطان منه، أن نخلي قلوبنا من ذكر الله عز وجل وذكر الآخرة ونعمرها بذكره وارتياب خطراته، ولكن يلزم قلوبنا ذكر الآخرة، وذكر ما يعرض، فلا يكون قد تعطلنا من ذكر الآخرة، ولا نكون ناسين لمن أمرنا بحدره كراهة أن يأتي على غفلة».

«وقالت فرقة، وهم أهل العلم وأولى بالحق: كلتا الفرقتين غالطت

أما الأولى ففرغت قلوبها من ذكر الآخرة، وجعلت عبادتها إلزام قلوبها ذكر الشيطان فقد دخلت ذكر لشيطان في القلب غلطاً أكثر مما أدخلت ذكر الله عز وجل في قلوبهم، وإنما أمرت بالحذر من أن تفعل عن الذكر والعمل، فإذا ودعت الذكر فقد أصاب العدم ما أراد، وإن جاءت خطرة إلى قلب فارغ من الذكر يوشك أن يقبلها، إذ ليس فيه نور من ذكر الآخرة، ولا قوة اشتغال بالله عز وجل».

وأما لفرقة الثانية فقد شاركت الأولى في بعض معيها، إذ جعلت ذكر الله عز وجل وذكر الشيطان في القلب مستويين، فكأنما أمرت بذلك ذكر الله عز وجل وذكر الشيطان، والاشتغال بالله عز وجل وبالشيطان.

ولم يلبسوا عن أحد من لأقوياء ولا لضعفاء منه فعل ذلك، ولا دان به،
لأن الله عز وجل أمر عباده بطاعتهم ووسيتهم إلى الاشتغال به عن حلفه
إبليس وغيره، وأمرهم بالحذر منه حين يعرض بفتنه. فاشتغل أولياء الله
عز وجل وأهل الخلصة من عباده بذكر ربهم وذكر ما ندب إليه وأحبه،
وألزموا قلوبهم حذر ما حذرهم منه على غير انتظار له، ولا اشتغال بذكره.

والحذر يلزم القلب من العباد به بالسجاء من العدو والخوف من فتنه، ثم
لا يجمع الاشتغال به، أن يهيج الذكر والتفكير حين يعرض العدو بحطراته.

وإن ذلك لموجود فيما هو أسد من أمور الدنيا، فإن نام والحذر في قلبه
من دهاب النوم تيقظ في غير وقته الذي كان يستيقظ له من الحذر اللارم
لقلبه، فكذلك المشتغل بذكر ربه الذي لم يذهب عقله أولى أن يوقظه
ويذكره الحذر من عدوه وإن اشتغل بذكر ربه ترك ذكر عدوه والاشتغال
به، لأن المستيقظ من النوم من غير ذكر دائم في قلبه، وكيف يذكر وهو نائم
لا يعقل، ولكنه أيقظه الحذر، فكذلك العامل لله عز وجل، المشتغل بذكره
اللاهي عن ذكر الشيطان بالاشتغال بربه عز وجل، إذا عرض عارض منه
ذكره الحذر في قلبه، وقواه الذكر على أن يطفى لعارض ويتحرك لمعارض.

فإن عرضت خطرة ذكرها وكان أقوى على ردها، لأنها تعرضت بقرب
مشغول بالله عز وجل، فيرده بأهون الرد.

ومثل لدى يفرع قلبه أو بعضه لا تنتظر خطرة من الشيطان، مثل من
يريد أن يرف الماء القدر من بئر، والماء من المحرى إليها واصل، فهو
برف الماء إليها يجري منقطع أيامه بالرف ولم تحف البئر من الماء.

ومثل لدى يلزم الاشتغال بالله عز وجل قلبه مثل من جعل لمجراه

سكرًا^(١) وسدّ. فإذا جاء الماء رده بذلك السكر والسد من غير كلمة ولا عناء.

فهذه الفرقة للقرآن والسنة والصالحين أتبع، وعلى رد الخطرات أقوى، وأبعد من الخدع والنقص^(٢).

(ج) فتنة الحياة الدنيا:

النفس عامل دحلى شيط للشر، وإبليس عامل خارجي نشط له أيضًا، وهناك عامل آخر للشر لا يظهر أثره إلا إذا ووجه به الإنسان، أو اتخذ إبليس والنفس من فتنته سبيلاً لأغراضهما. ذلك هو إغراء الحياة الدنيا. ورد فعل المحاسبي لهذا العامل من عوامل الشر يظهر لنا من موقعه تجاه الزهد، فهو لا يكتفى بعرض رأيه بشأنها، بل يحذر المؤمنين من إغراءات الدنيا ويحذ فيها احتباراً له وفتنة، ومن بين فتن الحياة الدنيا يذكر المحاسبي مجالس العناء، وأماكن النهو عامة باعتبارها أشدها إغراء. بل ويذهب إلى حد القول بأن ارتيادها محرم على المؤمن تحريم أكل الميتة أما فيها يختص بالأصحاب فهو بطبيعة الحال لا يحمل على من كان مهم نافعاً لصاحبه في دينه، ولكن هؤلاء قلّة بين أساس. لذلك فهو يتحدثنا عامة عن سوء عاقبة الإكثار من الأصحاب، بل هو يقول.

«خير لك الإقلال من لأصحاب، من خير لك تركهم، تأمن نفسك وتقوى على مجاهدة النفس».

إبصارك أصحابك عند لقيهم، وإبصارهم إياك فسة، حديثك إليهم،

(١) أي سداً أو حاجر

(٢) راجع لرعاية ص ٢٣٤، ٢٣٦ نشر دار الكتب الحديثة

وحديثهم إليك فتنه، تركك لهم أو تركهم لك فتنه^(١).
تعظيمك لهم، وتعظيمهم لك فتنه^(٢).

إذا رحلت للحج وليس معك من تعرفه ويعرفك، فذلك خير، وما عداه
فهو فتنه؛ وكن حذراً حتى لا تفتن^(٣).

ويواصل المحاسبي وصاياه للمؤمن بالحنز من الأصحاب والإخوان،
فمجالستهم يبعث منها الرياء، وحب الحمد والتناء، والحسد، والطمع في
غير طاعة الله، وطلب الأجر من المخلوقات دون الله.

كل هذا من نواقب مجالسة الناس، بل قد يكون من آثارها: إحباط
العمل، فلا أجر ولا ثواب في الآخرة لمن لم يستطيعوا مقاومة لفتنة في
الدنيا.



(١) فهو يؤدي إلى الغيبة والسمية

(٢) فهو من الرياء ويدخله العجب بالنفس

(٣) المحاسبي أدب النفوس ص ٦٨، ٦٩

آفات النفس

ونعرض في هذا لمصل لأهم آفات النفس فيما يرى المحاسبي، وقد حدثنا عنها تفصيلاً في كتاب «الرعاية».

(أ) العجب:

العجب: آفة في كثير من العباد عظيمة.

وهذه الآفة، أو هذا الشعور المذموم، يعنى قلب الإنسان، حتى يرى المعجب أنه محسن وهو عسى، وأنه ناج وهو هالك، وأنه مصيب وهو مخطئ. ولا يلبث صاحبه المعتمد له أن يركن إلى الغرة، فيستصر ما علم به من ذنوبه وزلله، وينسى كثيراً منها، ويعمى عليه أكثرها حتى لا يظنه ذنباً، فيستكثر عمله، فيغتر به، فيقل خوفه، وتشتد باقة عز وجل غرته. وإذا عرف كثرة ذنوبه واستعظمها ثم قنط لم ير أنه يقبل منه التوبة، فأقام عليها فأوسع عن العمل لله عز وجل بالطاعة قيهك. لذلك ذم النبي ﷺ، والصحابه رضوان الله عليهم، العجب دما شديداً، ففي الحديث:

«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

أما ابن مسعود فيقول:

«الهلاك في اثنين: القنوط والعجب».

فدل ابن مسعود بقوله هذا أن في لعجب الهلاك، لأنه إذا أعجب زكى

نفسه فإذا أركاها لم يثبتهما، ولم تعظم عليه مخالفتها أمر ربها، وظن أنها
ماجبة.

وقال مطرف:

«لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إلى من أن أبيت قائماً وأصبح
معجباً» والعجب يكون باجتماع اثنتين:

الأولى: أن يعظم لدى العبد ما يقوم به من عمل فيدل به.

والثانية: أن ينسى منة الله عليه وفضله الذي به في الحقيقة كان عمله
فمن عا اصطنع من معروفه فحبط أجره».

ويعد المحاسبي تيسيراً على قارئه، إلى تقسيم العجب إلى قسمين.
العجب بالدين والعجب بالدنيا والنفس.

أما العجب بالدين فعلى وجوه أربعة:

أولها: العجب بالعمل الديني مرضاً أو نقلاً.

وثانيها: العجب بالعلم، أي ما حفظ وفهم من لقرآن والسنة، وقول
علماء الأمة.

وثالثها: العجب بالرأى والصواب، أي: «ما استنبط قياساً على
الكتاب والسنة والإجماع مشبهاً بها حكمه، مثل حكمه».

ورابعها: العجب بالرأى الخطأ، أي: ما كان عن غير استنباط من
كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة، وما هو تأويل بعير لحق، وانحلال له على
سبيل الجهل، من قبل هوى النفس، مع اعتراض من الظن أنه حق».

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأى الصواب فمعنى واحد، لأنه كله
منة من الله عز وجل، ونعمة منه، وله أول يكون عنه، وقد ينفرد أوله فلا
يكون عجباً؛ فأما أوله الذي يكون عنه العجب: فالاستكثار والاستعظام

للعمل والاستحسان للعلم والرأى الصواب.

ونسى نعمة ربه عز وجل عليه، ومنته بذلك.

ليس لعجب علمك بما عملت وعلمت، ولكن الإضافة إلى نفسك، ونسيان منة المولى بذلك، فأما إذا عشت أن ذلك كان بركة الله عز وجل وأن نفسك لو تركتها ومحبتها لركنت إلى خلاف ذلك، فنمرد الله عز وجل بالمنة في ذلك، فليست معجبة.

وشهوة النفس تدفع بالإنسان دائماً إلى المخالفه وتسعى إلى معه عن الخير: «لأن العبد لا يكاد يأبى برأ إلا وشهوتها في ضده إن قام الليل فشهوته في راحتها، وكذلك إن صام فشهوته في الإفطار، وكذلك جميع أعمال الطاعات.

ففى العبد إذن أن «يذكر ويعترف أن لعمل من الله عز وجل نعمة نعم بها عليه، لا ابتداء من نفسه، وأن عليه في ذلك لشكر، وأنه غير قائم بالشكر على ذلك، مقصر عن شكره، لم يستأهل ما من عيه به، بل يستأهل أن يسلبه، لتضييعه شكر نعم الله عز وجل عليه.

أما الوجه الرابع للعجب، وهو العجب بالرأى الخطأ، فيقول المحاسبي بشأنه إن الرأى الخطأ: ليس بنعمة فيوصف بنسيان النعم فيه، وبكسه بلاء وحذلان وقص؛ فهذا كان الرأى على غير الكتاب والسنة والإجماع، فعن العجب كان، وهو الذى أهلك عامة العباد، حتى صلوا وكفروا وابتدعوا وأخطئوا في دين الله عز وجل. وقد دمه النبي ﷺ، ودم أصحاب لنبي ﷺ العجب بالرأى والعلماء بعدهم، وأحبروا أن فيه الهدكة»

والعجب بالرأى الخطأ يكون من قبل هوى النفس مع عتراض من الطن أنه حق يظنه بغير يقين.

وهو يصدر عن إغفال والجهل، وعن ترك تهمة النفس واستحسان
الرأى بغير علم وضح له ولا دليل عليه من الله عز وجل.

وقد ينفي العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه، وترك لاستحسان
لشيء من رأيه إلا بدليل بين وحنة وضحة من الكتاب ولسنة أو قياس
عليهما واستنباط حكم في بازلة، لمعرفة ما بنيت عليه النفس في الخلقة؛ أن
من شأنها السهو والعفلة. ولما جرب منها من كثرة غلطها وكثرة رللها،
وسوء تأويله مالا يحصى مراراً كثيرة، في كل ذلك يرى أنه مصيب لا يشك
عند نفسه في ذلك، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط، وكان
استحسانه لذلك من قبل الهوى وورين الشيطان.

وقد سبق لك في حلال بحثنا هذا أن عرضنا لموقف لمحاسبي من
الأحكام الحاططة المبنية على آراء الشخصة للناس.

وانتقل الآن إلى ما يحدثنا به لمحاسبي فيها يتعمق بالنمط اثناني من
العجب، وهو الذي تثيره أمور هذه الحياة الدنيا.

ولعجب من قيل الدنيا تكون بالنفس أو بآمال أو بالحسب أو بالكثرة
من الخدم والولد والعشيرة والأصحاب.

والعجب بالنفس. هو العجب بالجمال والحسم، بعظمه وقامه والقوه
والعقل والعمل وحسن الصوت.

فأما بالجمال والحسم. فاستحسان ذلك من نفسه، وسيان ما يرم العبد
من الشكر لله عز وجل على ذلك، وسيان القدر في البدء، وما يتقلب فيه
من الآفات ومضير لجمال والحسم إلى الفناء واللبلى.

وينفى العجب بالنفس بذكر لعبير للنعمة، وما وجب عليه من الشكر،
وبانتفكر في قدره الله الذي يستطيع أن يبدل جماله بالقبح، وأن الحسم من
التراب، وسيعود تراباً

فإذا عرف نفسه وقدره ومصيره، وما عليه من شكر، وما صيغ منه.
وما وجب عليه بتضييعه الشكر من العقاب، زال عنه العجب واهتم
بالشكر ونواضع للمنع.

أما العجب بالقوة فهو: استعظامها ونسيان الشكر، والاتكال عليها
ونسيان الاتكال على قه عز وجل، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا:
﴿مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً؟﴾^(١).

فأعجبوا بقوتهم واتكلوا عليها، وظنوا أنهم بها يتخلصون من عذاب
الله عز وجل وكانت عاقبة قوم عاد عمرة للناس من بعدهم.
وكما وصف النبي ﷺ قول سليمان عليه السلام، لأطومس الليلة عانة
امرأة، فلما لم يقل: إن ساء الله، لم يكن ما أراد من الولد كذلك كان أمر
داود حين قال لربه:
«إِنْ ابْتَلَيْتُنِي صَبَرْتُ».

فاتكل على قوته ووسى التوكل على الله تعالى، فتدم على ما كان منه
طوال حياته، وقد يحترى العبد أيضا بما أعطى من القوة على الحروب في
معاصي الله عز وجل، ويعير غيره بضعفه، ويفتخر عليه بقوته.

وينمى العجب بالقوة بعرفة العبد أنها من الله عز وجل نعمة، فضله بها
لينظر كيف استعمله لها في طاعته.

ولو شاء هدها بعاهة أو بسقم أو ضعف، فيلزم نفسه وجوب الشكر
عليها ويخاف إن استطال بها واستعملها في معصية الله عز وجل أن يدها أو
يكسرهما بعقوبة منه.

وأما العجب بالعقل والذهن والعظنة فهو استحسان ذلك واستعظامه.

(١) آية ٦٥ من سورة فصلت.

وسيان المعمة بالتمفضل به، والانتكال عيه أن يدرك به ما يريد وما يؤمل من علم أو رأى، أو أحكام دين الله عز وجل أو دنيا، وترك لتوكل على الله عز وجل في جميع ذلك حتى يخرج به ذلك إلى قلة التثبت لإعجابه بعقله، حتى يحطىء في دين الله عز وجل، ويقول عيه بغير الحق، ويخرجه أيضاً إلى ترك اتقهم ممن علمه أو أمره، أو مظهره، حتى يحرم لهم للحق، ويأبى إلا القول بالخطأ أو الغلط، ويخرجه إلى تحقير من دونه ممن لم يعط من فطنة مثل ما أعطى، وإن كان أروع منه وأفضل عملاً، حتى يسمى كثيراً ممن هو أروع منه وأفضل منه جهالاً حمى ويرهم كالحمير التي لا تفعل، إذ فضل عليهم بالفطنة والدهن، ويستطيل عليهم، ويرى أن لا قدر لهم، ويستصغر ما عملوا من خير، ويرى أنه خير منهم، وإن ضيع العمل لفطنته ولعقله.

وينمى هذا العجب معرفة العبد بجهله بها أعطى من الفطنة، ويسهره وعملته، وقلة ما يدرك بعقله، وإن كان قد أعطى من الفطنة أكثر مما أعطى غيره، فقد وحب عليه في ذلك الشكر، وإنما فضل بالذهن لتعظيم المحبة عليه، ولتوكيد الطاعة بالبروم لها؛ ولينظر الله عز وجل كيف استعمله لعقله في المهم عنه، والاشتغال به، وأن ما أعطى من العقل بيد الله عز وجل، ولو شاء أن يعيره ويربكه ببعض الآفات كي رآه فعل ذلك بمن هو مثله، ومن هو فوقه لفعل، فلا يأمن من أن يسليه الله عز وجل عقله.

فإذا عرف ضعفه وجهله وقلة ما يدرك بعقله، وأن ما فضل به منه من عليه، فيه الشكر وعظيم المحبة وجوب الحق، وأنه لذلك مصيب، فإذا عرف ذلك علم أن من لم يؤث من الفطنة مثل ما أوثق، أحسن حالاً منه، إذ لم ينكر الله عز وجل على ما قصده به عليه، وأن المحبة عيه أعظم منها على من دونه.

وقد يرى كثيراً ممن هم دونه في الفطنة أطوع لله عز وجل منه.
ومن العجب: العجب بالحسب، وهو: استعظام القدر من أجل الآباء،
والأصل.

فإن كانوا من أهل لشرف في الدنيا من الذين شرفوا في الدنيا بالدين.
فيستعظم قدره من أحلهم، وينسى منه الرب عز وجل، إذ حلقه من الكرام
الصالحين، ورفع عنه محنة ضعة القدر؛ فيعجب إذا استعظم قدره من أجل
آبائه.

حتى لبخيل إليه، بل قد يقطع بعضهم، أنه ناج بغير عمل، وأنه مغفور
له وإن كثرت ذنوبه وإن لم يسب منها، فيسقطيل بذلك ويسكب، ويمتحر على
غيره ويحفره، ويألف منه إن كان ذا قرابة أو حاراً أو غيره، ممن هو دونه في
الحسب ويختال في مشيته، ويرى أن الخلق شبيه بالعبيد، بل قد يرى بعضهم
أن الأمة عبيد له، فيحالف آباءه في فعالهم، ويريد أن يكون عند الله عز
وجل مثلهم، وذلك الاغترار بالله عز وجل والجهل بأمره.

ويضي العبد هذا العجب معرفته ما وجب عليه من شكر الله عز وجل
إذ جعله من ذرية من تولاه وأحبه، وأنه محرى بعمله دور عمل آبائه، وأنهم
إنما نجوا بالطاعة وشرفوا بها، وأنه وإن حالف طريقهم فحكمه أن يخالف
به إلى غير دارهم وهي النار.

من ذلك قول الله عز وجل:
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

ومن ذلك قول النبي ﷺ:

«يا معشر قريش: لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا
تحملوها على رقابكم، تقولون:

(١) المحراب آية: ١٣

يا محمد، يا محمد - فأقول هكذا [يعني: أعرض عنكم].
وقال حين أمره الله عز وجل أن يندب عشيرته الأقربين، فتاداهم بطنًا
بطنًا حتى صار إلى أن قال:

يا فاطمة بنت محمد، ويا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ،
اعملا لأنفسكما، فإنني لا أغني عنكما من الله شيئًا»

ومن هذا يتضح لنا أن الآباء والأجداد لن يغفوا عن العبد شيئًا عند
لقاء ربه، وأن عليه ما كان عليهم من العمل إن أراد لنفسه سبيل النجاة،
فإذا عرف ذلك، عرف نفسه ورأى عتاه اغتراره وعجبه، واهتم بالشكر،
وخاف من الذنب، وخاف أن يكون من دونه ينجو ويهلك هو، إذ كان أتقى
لله عز وجل منه.

فإذا عرف نفسه بهذه المرفقة، وأرطها بهذه المرلة، قل فخره، وحيلائه
وحقيرته غيره، بل يواضع لهم ويسببه بآبائه، فإن الله عز وجل إنما رفعهم
بتواضعهم له في خلقه، وبخافتهم على أنفسهم.

وقد يكون لعجب من عبد، كان له الحسب في الدنيا، وليس له آباء
صالحون فيستعظم قدر نفسه حتى يخرج إلى الكبر والخيلاء والفخر
والاستطالة على الناس والحقيرية لهم، ويرى لنفسه الفضل عليهم

وينسى هذا العجب بأن يعلم العبد، أن أصله في البداية أصل الناس
كلهم، وخلقته كخلقهم، ولم يفضل عليهم في الخلق بشيء، إذ خلق واحد،
والأب واحد، والأم واحدة، ولموت ولبلاء في رقبته، والحساب عليه،
والثواب والعقاب أمامه، وأنه قد استوجب العذاب بذنبه، وأن عليه الشكر
إذ جعده في موضع لا يشينه فيكون عند الناس وضيعًا، فعليه في ذلك
الشكر وأن آياه من تقدم منهم في لشرك غير معحب بهم، ولا يليق بهم
الإعجاب. ولا لهم عند الله عز وجل قدر.

والحديث عن النبي ﷺ - أنه قال:

افتخر رجلان عند موسى عليه السلام. قال أحدهما:

أنا فلان بن فلان، حقى عد عشرة معه، فمن أنت؟

فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: قل للذى افتخر بأبيه:

نسعة من أهل النار أنت عاشرهم في النار.

فإن تفكر العبد في ذلك رجع على العجب بأن عرف نفسه وكف عن

الذنوب

«أما العجب بكثرة العدد من لولد والخدم والموالي والعشيرة والأتباع

والأصحاب» فهو الاستكثار بهم، والإتكال عليهم بالنحوز بهم، والغلبة

لغيرهم، والترين بهم، والإتكال على عددهم، ونسيان الاتكان على الله عز

وجل.

فيستطيل الممحب بالكثرة على الناس، ويحترئ على المشاقة والقتال

والصرب لغيره، منكلا على كثرتهم لينصروه ويمنعوه، ويحمله ذلك على جحد

الحقوق والجور والظلم.

ويسمى هذا العجب بمعرفة لعبد بضعفه وضعف من أحاط به من لعباد،

وأن من لم ينصره الله عز وجل فلا ناصر له، ومن لم يقه الله عز وجل فلا

وافى له، وأن الاتكال عليهم دون لا تكال على الله عز وجل، حتى لا ينفعه

جمعهم ولا كثرتهم، وعليه أن يذكر أن الله لم يتجاوز عن مثل هذا العجب

يوم حنين، وإن كان من خير عصاة على وجه الأرض، فترك المسلمين

لأعدائهم - وكانوا قلة - ينالون منهم، حتى عرفوا ضعفهم إن لم ينصرهم

الله، ثم أعاهم بعد ذلك وهو خير الناصرين.

وكذلك ينفى هذا العجب بمعرفة العبد، أن الجمع سيتفرق عنه، وأنه

سيحلون بنزع الموت وحده، ثم يموت فيسلمونه إلى البلى، ولا يعنون عنه من الله عز وجل شيئاً، وأن كل من استعان بهم فأعدوه عليه، أو استطال أو ظلم بقوتهم، إن ذلك كله مثبت عليه مجزئ به، حين يفر من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه، ومن يعجب بهم جميعاً.

بل يتمنى يوم القيامة - إن لم يعف الله عز وجل عنه أنهم فداؤه من النار، فإذا ألزم قلبه هذه المعرفة، زال عنه لعجب بذلك، واهم بالعمل، وخاف المقدور، وانكل على الرب عز وجل لا على غيره.

والمال أيضاً قد يثير العجب في الإنسان، فلا يعود يطلب من الدنيا سوى الشهوات، ويتعظم على المقراء ويحتقرهم.

ويروى عن النبي ﷺ: أنه رأى رجلاً غنياً قد قبض ثيابه وكفها ن تصيب ثياب رجل فقير إلى حبه، فقال له النبي ﷺ:

«أخشيت أن يعدو فقره على غناك؟».

ويسمى العبد هذا العجب «معرفة أنه إنما ابتلى به للمتنعة ولا امتحان، وأن الحقوق عليه أكثر وأوجب منها على الفقير.

وقد أشفق الصالحون من كثرتها، واشفق عبد لرحمن بن عوف وخباب وغيرها من ذلك.

فإذا ألزم قلبه هذا، خاف من كثرة ماله، ورأى أن الفقير خير منه، وأنه إنما فضل عليه بالبلاء والفسة وكثرة واجب الحقوق، ويعلم أن الله عز وجل قد من عليه بالمال لينظر كيف شكره، وأنه لا يعرف أنه شكراً لله عز وجل كما يحق له، فيشفق من ذلك ويحول عنه العجب بالمال إن شاء الله

(ب) الكبر:

إن الكبر من عظيم الآفات، عنه تشعب أكثر البليات، يسوحب به من الله عز وجل سرعة العقوبة والمضب؛ لأن الكبر لا يحق إلا لله عز وجل، ولا يليق ولا يصلح لمن دونه.

بذلك ذمت السمة من يظهر عليه الكبر من الناس، وللدلالة على شدة هذا الدم يكفى ذكر حدث واحد من الأحاديث العديدة التي يسردها المحاسبى في هذا المقام وهو قوله ﷺ:

«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر». والكبر ينتج في كثير من الأحيان عن نقائص أخرى مثل العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

ولكن أصله الأصيل هو جهل معرفة القدر، فإذا جهل العبد قدره تكبر.

وإذا كان أكثر العلماء يسمى من تكبر معجباً؛ ويصف العجب بصفة الكبر، فإن المحاسبى يقول:

إن أول بدو الكبر العجب. فمن العجب يكون أكثر الكبر، فمنه سمي بالكبر، ولا يكاد يكون المعجب أن ينجو من الكبر.

فلما كان العجب هو الذى أخرج إلى الكبر وعنه كان فإنه يسمى به، دلت أخلاق الكبر عليه، لأنه قد يستعظم ما أعطى من دين أو دناء، ولا يتعظم به على أحد، فذلك لعجب إذا نسي مئة الله عز وجل بذلك، فإذا تعظم به على غيره وأنف منه فحققه فقد تكبر.

لأنه إذا أعجب بنفسه ولم يحقر غيره كان معجباً ولم يكن متكبراً. وقد
أعجب بنفسه ثم نظر إلى غيره وقال في نفسه: أنا خير منه محققاً به،
مزدرياً به، سمي حينئذ الكبر عجباً، من أحسن أنه هو أحاده على الكبر
وليس الكبر هو العجب.

والكبر على وجهين:

أحدهما: بين العباد وبين ربهم عز وجل، وهو أعظم لكبر.

والآخر: بين العبد وبين العباد.

وهذا الوجه الثاني للكبر خصلتين:

إحداهما: لحقرية لهم، والألفة منهم، وذلك أنه يرى أنه خير منهم.

والخصلة الثانية: رد الحق عليهم أن يقبله منهم، وهو يعلم أنه حق، وإن
أمره بعضهم بخير، أو أنهاء عن مكر، أو باظره في دين، فيرد الحق وهو
يعلم.

كما أن هناك الكبر في الدين والكبر بالدنيا.

ولا جدال في أن الكبر بين العباد وبين ربهم هو أعظم الكبر عند الله
وقد يبلغ الكبر بالناس أن يستكفوا عن عبادة الله، ويأبى بعضهم
الركوع له، لأن التحنية عندهم^(١)، كانت ضعة بأنفوس منها

ومن ذلك قول حكيم بن حزام:

«بايعت النبي ﷺ أن لا أفر إلا قائماً»

(١) أي عند العرب.

وقال أبو سفيان: «يا معشر قريش، إن الله لا يصع بتحنيئكم شيئاً»
والكبر في الدين هو: الكبر الذي يكون عن المحب في الدين، بالعلم
والعمل.

فإذا كان من قبل العلم، فإن العالم إذا أعجب بعلمه أخرجه عجبه إلى
لكبر تعظماً على العباد فيتكبر على العوام وإن كان بعضهم أتقى الله عز
وجل منه.

وذلك الذي خافه عمر رضي الله عنه على العلماء حين قال:
تواضعوا لمن تعلمونه، ولا تكونوا من حيازة العلماء، فلا يقوم علمكم
عند الله بجهلكم، (أي لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به)

فإذا تكبر العالم بعمله حفر من دونه في العلم، وازدراه وأقصاه، وأبعده
واستدله، وانتهره واستخدمه، وأمن عليه بما يعلمه، وتعظم على العوام،
وانقبض عنهم ليبدؤه بالسلام، ويتسخرهم ويفضض عليهم إن استخف
بشيء من حقه.

وإن حاج أو ناظر أحداً منهم رد الحق على علم، وإن وعظ عتف، وإن
وعظ عتف تعزراً.

ولا يرد على ذلك بأن العلم يريد العبد تواضعاً، فالمحاسبي يرى في
العلم ما يراه وهب، من أنه كالغيث يزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه
الأشجار بعروقها، فتحويه على قدر طعومها، فتزداد المرة مرارة، وتزداد
الحلوة حلوة ويكثر ماؤها بالحلاوة ويكثر ماء المرة بالمرارة. وكذلك العلم،
تحفظه الرجال فتحوله على قدر همها وأهوائها.

كذلك يكون الكبر عن العمل، فيصل بالعبد إلى أن يحقر من دونه من

لا يعمل مثل عمله، سواء أكان أعلم منه أو أجهل منه.

ويأنف إن وعظوه لأنه فوقهم في العمل، وهم مصيعون مفرطون، فإن بدأ أحدًا منهم بالسلام، أو أجابه إلى دعوته أو أسس به رأى أنه قد صنع إليهم معروفًا، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوهم، ويرى أنهم هالكون، كأنه قد آياه من الله عز وجل الأمان بأنه لا يعذبه.

وقد ذكر رجل للنبي ﷺ وحدت فيه تقواه، بقيه النبي ﷺ يومًا فقال عنه:

«إني أرى في وجهه شفعة^(١) من الشيطان»

ثم قال له:

أسألك بالله: حدثتك نفسك أنه ليس في القوم أمضل منك؟

فأجاب: «اللهم نعم».

وقد يكون الكبر عن الرياء، وصاحبه يرد الحق على من ناظره أو أمره، أنفا أن يحطىء فتتصع منزلته، أو يقال: فلان علب فلانًا، وإن كان يعلم في قلبه أن الذي ناظره أو أمره خير منه، ولكن يظهر الأنفة والتعزز رياءً لا كبرًا من قلبه.

من الكبر، الكبر الذي يخرج إليه الحق:

أما فيما يختص بالكبر بالدنيا، فيحدثنا المحاسبي في شأنه بمثل ما حدثنا به في شأن العجب بالدنيا، وفصل من أسبابه ما عرصنا له في فصلنا عن

العجب أى الحسب، والقوة، والمال وكثرة العدد، ولا يرى داعياً لمكرار نفس الحديث هنا.



وينفى العبد الكبر بمعرفته بقدره فى الدين والدنيا؛ ويعرف قدره بمعرفته ببدايته وحياته وعاقبته

أما بدايته فقد مضت الدهور ولم يكن فيها شيئاً مذكوراً، وأوحده الله عز وجل بعد العدم إذا لم يكن شيئاً مذكوراً، فأوحده الله عز وجل ميئاً وبدأه بموته قبل حياته، لأنه حلقه من تراب، وبدأه بموته قبل حياته، وبضعفة قبل قوته وبجهده قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه وبحوته قبل شيعه، وبعرية قبل ستره، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه.

فالأحوال الأولى ابتدأه بما يعرفه بها نفسه، ليشهد عليها بالدله والضعف، والقلّة والحاجة والمسكّة، ليعرف بذلك صغر قدره، ولتردعه معرفة ذلك عن الكبر

والنعمّة لثانية عليه من الله عز وجل سابغة إذ عرف بها ربه الذى نقله من الأحوال الدنية المذمومة إلى الأحوال الرفيعة، فيحضع ويذل لمولاه شكراً.

فمن كان يدوه هذا البدو، وأحواله هذه الأحوال، فإنه عن الكبر بمنزل. كما قال لقمان لابنه.

يابنى ما للتراي وللکبر؟ وصدق رحمه الله.

كيف يتكبر الإنسان وهو أقدر لمخلوقات؛ الأتذار تسرع إليه، من

تهاون بنفسه أن يغسلها أو ينظفها صار أنتس من الدواب، ووكلت به الأمراض.

وهو مع ذلك عبد ذليل أمره إلى غيره يحوج كرهاً مفهوراً، ويعيش كرهاً مفهوراً، ويغلبه النوم كرهاً مفهوراً
يريد من نفسه ما لا يقدر، يريد أن لا يحوج ولا يعطش ولا يظما ولا يمرض، فينزل به من ذلك خلاف مراده، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء فيذكر؛ ثم هو مع ذلك لا يأمن أن يكون تلفه فيما يريد ويحب، ولعله يكون تلفه في شبعه أو بومه فلا يقوم منه، عبد مملوك ذليل، يغلبه غيره، ولا يأمن في ليله ونهاره أن يسلب سمعه وبصره وجميع جوارحه وعقله، أو بعض ذلك.

وقد رأى الله عز وجل فعل ذلك بكثير من خلقه، ثم هو مع ذلك لا يضر بقلبه، ولا يحرك حارجه من جوارحه، ولا يكتسب ولا ينفق، ولا يأكل ولا يشرب إلا وعليه من يحصى ذلك كله عليه حتى يحاسب به وينظر فيه، ثم هو مع ذلك لا يأمن أن يسلب ملكه، فعليه في ملكه مالك، وليس هو لنفسه بمالك، ولا على ما أراد فيها بقادر، وهو مع ذلك يخالف لماله ومولاه.

قد استوجب بذلك من العذاب ما إن لم يعف عنه كانت الخنازير والكلاب خيراً منه وأفضل.

فإذا تذكر العبد وتفكر زال عنه لكبر ولومه الخضوع والذلة والواضع للمولى عز وجل.

ولو خلق الإنسان من خير الأشياء، وساعدته الأقدار فلم يسقم ولم يمرض ولم يعتوره قدر في جسمه، ولا فاقة نارلة به، ولا يحل به الموت.

ولا عذاب عليه في الآخرة. ما كان الكبر مع هذه النراة والطهارة يصلح للعبد ولا يلىق. لأنه عبد مملوك، عدل العبودية صد الكبر.

فإذ عرف العبد قدره في الدين والدنيا معرفته ببدايته وحياته وعافيته، فلا بد وأنه تارك للكبر وتائب إلى الله منه.



وإذ أراد العبد أن يعرف إن كان قد وفى حقيقة بعزمه على ترك الكبر، وأن يسير مدى إخلاص نفسه في ذلك، فعليه بتفقدتها. أى نفسه، عند الداعى، من القلب إلى الكبر، وعند الأعمال التى يألف منها المتكبرون.

فأما الداعى من القلب إلى الكبر، فمثل الخطرة تهيج بالإعجاب بالنفس، تدعو العبد إلى أنه خير من أخيه المسلم

وأما احتيار النفس عند الأعمال التى يألف منها لتكبرون، فيقدم المحاسنى لمثل عليه بما يروى:

أن عبد الله بن سلام حمل حرمة من حطبه، فنبى له: يا أبا يوسف قد كان فى غممانك وبنيك ما يكفونك؟

قال: أجل ولكنى أردت أن أحرب نفسى هل تنكر ذلك، فلم يقمع منها بما أعطته من الحرم على ترك الألفة حتى محرما، أتصدق فى ذلك أم هى كاذبة؟

الغرة

قد يرى القارئ أننا أطلنا في هذا الفصل لخاص بالغرة، ولكن ههنا ترجع إلى عرض المحاسبي لكل ما لاحظ من صور العرة في البيئتين الدينية التي مارسها، وهو يتحدث هنا عن الفقهاء والمتكلمين والمتصوفين على حد سواء، ونريد أن نلعت نظر القارئ بصفة خاصة إلى الفقرات التي تتعلق بالمفاهيم الصوفية، كالتوكل والزهد وغيرهما.

فالمحاسبي يرى العرة حينما تخرج النظريات الصوفية منها عن نطاق السنن الإسلامية.



يرى المحاسبي أن العره عرتان، عرة بالدنيا عن الآخرة، وعرة بالله عز وجل وبالأخرة.

وأولاهما تنبئ على: إبطار الدنيا والاشتغال بها عن الآخرة، وقد قال تعالى فيها

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾^(١).

غير أن الغرة التي تثير اهتمام المحاسبي بوجه خاص فيطيل الحديث فيها.

وفصله هي الغرة بالله، وبجدها لدى الكافرين والمؤمنين على حد سواء.

(١) آية ١٨٥ من سورة آل عمران

أما ما اغتر به الكافرون عن الله عز وجل، فهو ما رأوا من فعل الله عز وجل من إكرامه لهم بالدنيا ورفعتهـا وسعتهـا، فظنوا بذلك أن ذلك لم يكن من الله عز وجل إلا لمنزلتهم عنده، وأهم أحق بالخير من غيرهم. ثم هم بعد ذلك على وجهين.

فرقة منهم شكاك في الآخرة، يقولون في أنفسهم وبألسنتهم: إن يكن لله عز وجل معاد فبحن أحق به من غيرنا، ولنا فيه النصيب الأوفر، اعتراراً بما ظهر لهم من خير الدنيا وكرامتهـا.

وكذلك وصف الله عز وجل لنا قول العاصي بن وائل إذ يقول:

﴿لَاؤَتَيْنِ مَالًا وَلَدًا﴾. فقال عز وجل
﴿أُطْلِعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا؟﴾^(١).

وقال الله عز وجل:

﴿وَبَيْنَ أَذْقَمَاءَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ صَرَاءَ مَسْئَةٍ لَّيْقُولُنَّ هَذَا لِي، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾^(٢).

ويغترون أيضاً بما فضلهـم الله عز وجل بعم الدنيا على غيرهم، فيرون أن ما خص الله عز وجل به أهل الإيمان أنه لو كان عند الله هدى ما وفق اضعفاء له وتركهم، فيغترون ويحسانون الهدى: إن لو كان هذا هدى لكنا نحن أحق أن نؤتاه ممن هو دوننا.

ويغتر الكافرون بعم الله عز وجل في الدنيا فلا يرون أن الله عز وجل أخذهم بعقوبة في الدنيا، وأنه إنما أعطاهم ما أعطاهم من الدنيا لما علم

(١) مريم آية ٧٧، ٧٨

(٢) فصلت آية ٥٠

منهم من الخير، وأنهم عنده بالمرتلة العظمى. قال الله عز وجل، [في المغتر بنعم الدنيا]:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾^(١).

والفرقة الأخرى من الكفار يغترون بما زين لهم من سوء أعمالهم، بعبادات يعبدون بها غير الله عز وجل يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فالغرة من الكافرين خدعة من النفس، بالظن أن له عند الله عز وجل قدراً لما أكرمه به من الدنيا، أو عمل ضلال يحسبه هدى. وأما الغرة عند المسلمين، فهي بطبيعة الحال، محال بحث المحاسبي لمفضل.

وهو يفرد باباً للغرة من عوام المسلمين وعصاهم، مذكر منه النص التالي:

«وأما الغرة من عوم المسلمين وعصاتهم، فهي خدعة من النفس والعدو. يذكرون الرجاء والحدود والكرم، يظيرون بذلك أنفسهم، فيزدون بذلك جرأة على الذنوب، فيقيمون على معاصي الله عز وجل، يظنون أن ذلك رجاء منهم، كما قال وهب بن منبه: لا به».

«يا بني إياك والعرة بالله عز وجل، فإن لغرة بالله عز وجل، المقام على معصيته وتغنى مغفرته.

فالغرة من الموحد خدعة من نفسه يتمنى المغفرة مع المقام على المعصية، وذلك الرجاء الكاذب، يظنه منه رجاء صادقاً

وأما الرجاء الصادق لله عز وجل، فهو في معنيين:
أحدهما: حسن الظن بالله عز وجل، حيث وضعه الله عز وجل، لأر
رجاء المدينين من عباده أن لا يقنطوا، وأن يتوبوا إلى ربهم من ذنوبهم
قال تعالى:

﴿وَأَنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾^(١)

وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُم سُوءًا بِغَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن
بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

فرح الله العبد المغفرة على التقوى، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، أن
لا يمنعه كثرة ذنوبه وعظمتها أن يتوب إلى ربه عز وجل، ولا يخاف خوفاً
يقنط معه، فيقيم على المعصية خوفاً أن لا يقبل له توبة.

فرح الله عر وحل العاصي من عباده المغفرة على التوبة، ألا يقنطوا
من أجل ذنوبهم.

فهذا أحد المعنيين:

ولكن الله عز وجل لم يقصر فضله على أن يرجو العبد مغفرته إذا تاب
وعمل صالحاً، بل رجا الجنات والمبارك العالية والقربة منه عر وحل في
درجات العاملين له من عباده؛ وذلك هو الوجه الثاني للرجاء الصادق.
قال تعالى

﴿وَأَنَّمَا تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ لِقَايَةِ﴾^(٣)

(٣) آل عمران آية: ١٨٥

(١) طه آية: ٨٢

(٢) الأنعام آية: ٥٤

وبهذه الآية وعيها أخبر الله عز وجل أن الجزاء والثواب أجور العمال على الأعمال، ليرجوا ذلك الجزاء فيعملوا تلك الأعمال رجاء أن ينالوا ذلك الثوب، ثم أخبر أنهم الراجون دون المعترين.

وقيل للحسن: إن قومًا يقولون: برحوا الله عز وجل ويضيعون العمل؟ فقال: هيهات هيهات، تلك أمانيتهم يترجعون فيها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه»

ويفرق المحاسبي بين الرجاء والغرة فيقول:

«الرجاء هو ما هاج من الطمع والأمل في الله عز وجل، فسحا نفس المعاصي بالتوبة، وحال بينه وبين القنوط، وبعث العبد على الطاعة لله عز وجل والتشهير والاحتشاد رجاء ما وعد العاملين، وغرة خدعة من النفس والعدو بذكر الرجاء بالتوحيد، أو بالآباء الصالحين أو بعمل قليل ضعيف، فتطيب نفسه بتلك الخدعة حتى تهوى عليه ذنوبه لظنه أنها مغفورة. وذلك موجود في فطر العباد في دنياهم أنهم إذا صعبوا العمل عذّلوا أنفسهم وعدوه منهم تزييطاً، فإن قعدوا عن الأعمال وهم يظنون أنهم يعطون الأجر عدواً ذلك من أنفسهم حقاً وغرة.

ثم هو بضرب المثل لهذا الفرق بين الرجاء والغرة بعد قال له مولاه
إد عملت كذا وكذا محكماً تاماً أعطيتك ألف دينار، وإن أفسدته م
أعطتك شيئاً وضربتك ألف سوط.

فترك إحكامه للذة شغلته، وأفسده على عمد للذة أثرها لا يتأها
إلا بفساد ذلك العمل.

وهو مع ذلك طيب النفس، يطبها ويرحبها ألف دينار، غير خائف
لما توعد به من ضرب ألف سوط

ألم يك معرورًا قد غرته نفسه فوضع الرجاء في غير موضعه؟
 وكذلك المعتر بالله عز وجل: أقام على ما أوجب عليه حرمان جواره
 والحلول في عدا به، طيب النفس، راجيًا للثواب، غير خائف من لعذاب
 أفليس هذا مغترًا بخاطرًا بنفسه؟ وإن كان مولاه عظيم العفو قد يفعل ذلك
 له وقد لا يفعل؛ ألم يك قد اعتر وخاطر بنفسه وغرته نفسه وخدعته؟ لأن
 العقاب في الحكم عليه يقين لا شك فيه، والرجاء للمغفرة من غير توبة مع
 الإصرار شك لا يقين فيه.

لأن الله عز وجل جعل الرجاء مزيلاً للفتوط الذي يمنع من التوبة
 والعمل، باعثًا على الطاعة والقربة منه.

ويؤكد المحاسبى هذا الأثر الذي جعله الله للرجاء فيعيد ذكره مرارًا
 وفي أساليب شتى؛ ويروى الحديث التالي للنبي ﷺ: (يأتى على الناس
 زمان يخلق (أى يبلى) فيه القرآن في قلوب لرجال كما تخلق الثياب على
 الأبدان، يكون أمرهم كله طمعًا لا خوف معه؛ إن أحسن أحدهم قال:
 تتقبل منى؛ وإن أساء قال: يفقر لى.

ويعلق المحاسبى على هذا الحديث وغيره بأن عله ذلك روال الخوف
 عنهم فلم يخافوا عصوبة على ذنوبهم، ولم يشفقوا على إحسانهم فيحذروا على
 أعمالهم، لتخلص بالقبول إلى ربهم عز وجل.

وبعد عرضه لمرة عند المسلمين عدمه وللفرق بين الفرقة والرجاء يتناول
 بالتحليل مختلف أنواع المخترين من الناس:

فهناك المعتر بالعلم.

والمعتر بالعبادة أو العمل.

والمعتر بالآباء والأحدا الصالحين.

بأما هؤلاء الذين يعنودون بالعلم فأقوام شتى:

فمنهم من تفتقر بكثرة الرواية وحسن الحفظ مع تضييع واجب حق الله عز وجل. وتغفل نفس أحدهم إليه وعدوه أن مثله لا يعذب، لأنه من العلماء وأئمة العباد الحافظين على المسلمين علمهم، ويعصى عليه أكثر ذنوبه فلا يرى أن مثله فيه بلغ من العلم يرأى، ويعصى بنفسه أو يتكبر أو يحسد، وإنما يفعل ذلك الجهال الذين لا يعرفون العلم ولا يحفظونه، فيقل خوفه وحذره من عذاب الله عز وجل، ويغفل التفقد لنفسه، إذ كان يرى أن مثله لا يحمل بالأخلاق الدنيوية، لأنه قد ارتفع بالعلم عن ذلك، فلا يتهم نفسه؛ فإذا لم يتهمها لم يتفقد من نفسه الأخلاق المدمومة عند الله عز وجل، ولم يحذرهما؛ فيضم ما يكره الله عز وجل، وهو يرى أنه يرى من جميع ذلك.

وقد يعلم بعض هذه الفرقة بكثير من ذنوبه، فلا يفزعه ذلك ولا يرهف من الله عز وجل من أجله، يرى أنه قد قام مقاماً من العلم لا يعذب مثله. وإنما ينهى العالم من هؤلاء هذه الفرقة بمعرفة أن العلم حجة عليه، وأن الله عز وجل جعله ما أعظم به عليه حخته، وشدد عليه به في القيامة المسألة.

فإن ضيع العمل فلم يقم بواجب الحق لله عز وجل، وبترك ما نهى عنه في ظاهره وباطنه كان عند الله عز وجل أعظم وأشد عذاباً من الجاهل؛ وإنما جعل الله عز وجل العلم وعلمه عباده ليعرفوا به ما أوجب عليهم وأحب فيقوموا لله عز وجل بذلك، وليعرفوا ما حرم الله عز وجل فيجانبوه.

فمن ضيع أمر الله عز وجل بعد علم فهو جاهل بالله عز وجل، فلا علم للمفتري.

كما روى عن أبي المرداء:

.. ويل للذي لا يعلم مرة، ولو شاء الله لعلمه، ويول للعالم سبع مرات.
والفرقة الثانية: يغتر أحدهم بالفقه في العلم بالحلال والحرام، وبالبصر
بافتيا والقضاء، فهو يغتر كغرة الحافظ للعلم وأعظم غرة، حتى لا يرى أن
أحدًا أعلم بالله عز وجل منه، لأنه قد علم الحلال والحرام والفتيا والقضاء،
فهو القائم للأمة بدينها، ومفرعها إليه، ولولا مثله ضاع الدين وما عرف
حلال من حرام، واستصعر أهل الرواية والحفظ، إذ لم يفقهوا الحلال
والحرم، ويعلموا الحكم والقضاء، فهو عند نفسه القائم بالدين دون غيره،
وأن الله عز وجل لا يعذب مثله وأنه لا يعتقد ما كرهه الله عز وجل، لأن
مثله لا يركن إلى ما كرهه الله عز وجل، ولا يطمع الشيطان في مثله، فيغتر
بدلك، فيقل حذره من الله عز وجل ورهبته له.

ولا ينمى هذا الصنف من العلماء تلك الغرة إلا بمعرفة أن الفقه عن الله
عز وجل هيبا عظم من نفسه، وأخبر به من جلاله وهيبته ونفاذ قدرته،
وما وعد من ثوابه وتواعد به من عقابه أعظم الفقه وأشرقه.
فإذا عرف العالم ذلك وقدره هاب الله عز وجل وأجله واستحياء، حتى
كأنه يشاهد الجنة والنار بقلبه.

فحينئذ يهاب الله عز وجل ويخافه، فيترك كل ما فقه فيه من حرامه،
ويرجو الله عز وجل ويشتاق إلى جواره.

ويأتى المحاسبي ببعض الأدلة الأخرى على ما يراه من غره العالم
الحافظ والعالم بالفقه؛ ولا نرى مجالا هنا لسردها مكتفين بالقدر السابق،
ولكننا نود أن نشير إلى أنه - في هذه الصفحات الخاصة بالفرقة من كتاب
«الرعاية» - يستخدم كلمة الحكمة بمعنى فيض النور الإلهي على الإنسان
في أمور الدين.

واصطلاح «الحكمة» هذا المعنى يستخدمه غير المحاسبي مؤلفون آخرون بل إن المحاسبي يذكر في نفس هذه الصفحات حديثاً للحس البصري ترد فيه الكلمة بالمعنى المذكور.

وتأتى بعد ذلك هرفه من العلماء، علمت العلم وعملت بمعنييه في حقوق الله عز وجل التي تحق لله عز وجل على عباده: من حقه وحيه وخوفه ورجائه وحسن التوكل عليه والرصا بفدوره، ومعاني ما ذم الله ونهى عنه من الأخلاق الدنية والمذمومة عنده فحسنت عباراتهم بذلك، ويصفون تعظيم الله عز وجل وحيه، والحياء منه وخوفه ورجاءه.

فلا يشك أحد منهم عند نفسه أنه لا يصف خلقاً مما يقرب إلى الله عز وجل إلا وهو قائم به، ولا خلقاً ذمه الله إلا وهو محائب له، لأنه علم أنه لم يعبر بلسانه إلا عما في قلبه، فيظن أنه لم يعظم الله بلسانه إلا وهو معظم له بقلبه إذ كان إنما يؤدي لسانه عن قلبه.

وكذلك الحياء من الله عز وجل وجميع لأخلاق الكريمة، فلو أن هذه الأخلاق ساكنة قلبه لازمة له معتقدة لها بالعمل بها ما علمها ولا أحس أن يصفها، إذ كان وصفه بلسانه إنما هو ترجمة عما في قلبه وكذلك ما يصف من تضعف حقوق الله عز وجل وما نهى عنه.

وإنما ذلك كنه لمعرفته بغير اعتقد نية ولا عمل بصمير ولا جارحة، إلا بالشيء اليسير الذي لا يعرى أن يناله عامة المسلمين.

وبلك هي معرفة اللسان من الكتاب والعلم، وحفظ كلام المتكلمين ممن عمل منهم بما يقول، فهو يصف الإخلاص لمعرفته بجملها، ويصف الخوف لمعرفته ما الخوف، لا أنه تكف الخوف حتى حاف الله وحده ثم وصف الخوف بعد القيام به وكذلك جميع أخلاق الدين، ولكن يصف ما عرفه من

العلم من محبة الله عز وجل وما يكره، من غير تفقد منه لنفسه ولا قيام بما يجب في جميع ذلك.

ولكن، كيف للعالم أن يهوى العزة، وما الدليل عنده أنه معتر؟ يقول المحاسبي:

إن لوصف للعلم عر لعمل به، فليبل نفسه عند العمل بذلك، فإنه يبين له أنه مغتر.

فمثل هذا العالم المعتر يصف الزهد في الدنيا، حتى إذا أوتى منها شيئاً تشاغل به عن نفسه، وأثر به هواه، ولدته.

وكذلك يصف الإخلاص، فإذا عرض العمل هاج الرياء واعتقد الإخلاص.

وكذلك الأمر في كل ما أحسن وصفه بلسانه، فإذا افتقد عامة ما كان يصف من لأخلاق المحمود المقتربة إلى الله عز وجل، عند موضع الحاجة إليها، وغلبت عليه الأخلاق لدمومة عند الحاجة منه إلى مجابيتها، علم أنه كان مغترًا بما كان يصف بلسانه.

وغرة هذا العلم إنما تنفي بتفقد النفس عند الأعمال. والمحاسبي يهتم إهتماماً واضحاً بأمره، ويقول في نهاية الفصل بدي خصه له:

وإنما أطلت الوصف في هذه لفرة لأنها عظيمة غرتها، قد غيب ذلك على كثير ممن يتعبد ويرى أنه من النساك العاملين لله عز وجل.

ومن الفرق الأخرى من العلماء المعترين:

«فرقة جدلة خصمه، مغتر بالجدل والرد على المختلفين من أهل الأهواء وأهل الأدبان، يتأول في ذلك أنه لا يصح لعبد عمل حتى يصح

إيماناً، والقول بسنة نبي الله ﷺ، فليس عند أحدهم أحد يعرف ربه ولا يقول عليه الحق غيره، أو من كان مثله.

ثم هم فرقان:

فرقة ضالة مضلة: لا تطفى لضلالتها، لا تساعها في الحجاج، ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام وحسن العبارة بالرد على من خالفها، فهم عند أنفسهم من القائلين على الله عز وجل بالحق، والرادين لكل صلاة، لا أحد أعلم منهم بالله ولا أولى به منهم، وكل الأمم ضالة سواهم، وأن الله عز وجل لا يعذب مثلهم، بل لا ينجو أحد في زمانهم غيرهم.

والفرقة الثانية: من المعترّة بالجدل والبصر بالحجاج، تقول بالحق ولا تدين بغيره وقد اغترت بأعدل، ترى أنه لا يصح لها قول دور الفحص وانظر وقيام الحجة على من خالفها، وقد اغترجيدلك حتى قطعت أعمارها بالاشتغال عن الله عز وجل، وعمى عليها أكثر ذنوبها وخطئها، إلا أن اعتقادها السة دائم مع اغرارها.

أما الفرقة الضالة، فإنها تنفى ذلك بأن ترجع إلى نفسها، فتعلم أن من القرآن محكماً ومتشابهاً، وكذلك من السة، فلا يقضيتمشابه على محكم، ولكن يقضى بالمحكم على المتشابه، وأن الخطأ في التأويل لا يحصى، فتتهم نفسها، وتعلم أن الله عز وجل سائلها عما تدين به، وأن الجماعة قد مصت على الهدى وسنة نبها ﷺ، ولا يخرج من إجماعها، وإن حسن ذلك في عقولها، فإن تثبتت كما وصفت لك أبصرت ضلالتها، ولم تغتر بشدة حجاجها، إذ عصب أن غيرها ممن خالفها شديد الحجاج بصير بأعدل، وهو عندها ضال مضل.

وكذلك لا بأس أن تكون عند الله عز وجل كذلك، وإن أبصرت الحدل والخصومات، فإن اتهمت نفسها على الآراء والتأويل، وتثبتت عند المتشابه

ففضت بالمحكم عليه، وتوقفت فيما لم يجعل الله لها النظر فيه ولم يخرج من إجماع ما مضى، زالت عنها عرتها، وثابت إلى ربها من ضالتها

وأما المرقه المصيبة للحق، مع غرتها عن الله عز وجل بالخصومات والجدل عما هو أولى بها، فإنما تنفى عرتها بذلك بأن تعلم أن الله عز وجل تعبد من مضى بما تعبد بها، وقد أدرك كثير منهم ناساً من أهل البدع والأهواء، فما جعل عمره ولا دينه غرضاً للخصومات، ولا شغل بذلك عن النظر لنفسه والعمل ليوم فقره.

وذموا الجدل والخصومات، ورووا ذلك عن سبهم عليهم السلام قال: «ما ضل قوم قط إلا أتوا الجدل».

لأن النبي صلى الله عليه وآله نهى بسبته عن الجدل والخصومات، وغضب على أصحابه، حتى كأنما فقي في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب، إذ حرج عليهم وهم يختصمون، وهم كانوا أولى الخلق بالفهم والبصر بالحجاج، فقال «أهذا بعثت؟ أم هذا أمرتم؟ أن تضربو كتاب الله عز وجل بعصه ببعض، انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا به، وما نهيتهم عنه فانتهوا عنه»

ثم هو في نفسه صلى الله عليه وآله قد بعث إلى جميع لأديان، فما حادهم إلا بما تلا عليهم من التنزيل، ولو شاء كلمهم بالمقاييس ودقيق الكلام؛ ولو كان ذلك هدى كان هو أولى به، وعليه أقوى، فلم يهم الحجة إلا بالتنزيل، وأضرب عن حذلهم بالدقائق، وعلم أن ذلك لله عز وجل رضا ومحبة.

فترك الجدل والخصومات من السنة.

ويعود المحاسبي في هذا المقام إلى الرأي الذي يسند إليه في كثير مما كتب،

وهو: أن لإنسان لا بد محطاً إن حرج عن حدود السنة الصحيحة

أما الذين يعترفون بالعبادة والعمل، فمهم. فرقة تتكلف الرضا والرهه والتوكل والمحبة لله عز وجل على غير حقيقة ولا معرفة بما هو أولى بها. يتفلسف أحدهم من اللباس والطعام زهداً في الدين، وبعضهم يخرج إلى الملح بعير زاد ويدع المكاسب، يؤم التوكل بذلك.

وكل هذه الفرق مغتررة بالله عز وجل، تتكلم بما يكره الله تعالى وهي لا تشعر، وترائي بما تعمل، وتتكبر وتعجب، وتأق كثيراً مما يكره الله عز وجل وهي لا تشعر، لم تعرف التقوى إلا بالاسم، العالمة عليهم ألباع أهوائهم في طاعتهم وتقشعهم.

وقد يقل إن هذه الفرق، أولى بالرحمة من الفرق التي وصفت قبلها، إذ كانت أهواءها، وحملت المكروه عن أبدانها.

ولكن المحاسبي يرد على هذا بقوله «إن بجانب الهوى مع لعمل البسير، أعظم وأشد على النفس من تحمل المكروه والشدائد في الأعمال الكثيرة، إذا كان معها الهوى.

وهذه امركة أسحى المعترين أنفًا بالأعمال، وأشدهم تحمل للمكروه في ظهر الطاعات.

فالسى تعرف به غرتها أن ترحح إلى أنفسها، بدعائها إلى العزم على طلب لنقوى وتعريف النفس أنها أصل الطاعات، ولا تركو الأعمال لا بها، حتى إذا عرفت ما هي في أسر والعلانية، امتحننت أنفسها عند دواعيها إلى كل خير وشر في باطنها حتى تعلم هل ظهرت قلوبها، وهل ظهرت جورحها، وما الذى هو أولى بها أن تبدأ به في لوجوب من الفروض عليها.

وعلى أهل هذه الفرقة أيضاً إن طلبوا نهي الغرة، أن يتبعوا في أعمالهم سنن الصحابة وأن يأتسوا بهم.

وليدكرو أن أحدًا من اسابقين في الإسلام لم يدع المؤمنين إلى ترك الكسب الحلال، أو لسفر بلا زاد، وأن الفضل في العمل وحمل الزاد مع اليقين بأن الأرزاق إلى الله عز وجل، ولا رارق إلا الله عز وجل

وكذلك جميع الفرق من المتقشفين عليها بتفقد أنفسها، حتى تعرف غرتها، تخاف الله عز وجل عما هو أولى بها.

ومن الذين يفترون بالأعمال:

«فرقة لا ترى أنه يجب عليها من الورع في زمانها إلا الورع في المطعم والملبس، وتظن أنها إذا بلغت أصعب الدرجات من الورع وأعرها في زمانها، قد أحكمت التقوى وقامت به، فعصى ببعض الورع أكثر الورع عليها في قلوبها وجوارحها. ونسبى غرتها بأن تعلم أن الله عز وجل لم يرص منه بالحلال وحده. وأنه قد يعذب من طاب مطعمه إذا لم يخف الله عز وجل في غير ذلك.

وفرقة قد غلب عليها الاستيحاء من الناس والمخلوة، وهي مع ذلك تتصنع بفرارها، وتحب أن تشتهر به، وترتاح قلوبها بأن تتفكر في عظيم خلق الله عز وجل وواجب طاعته، وكثرة عدد ما يلزمها من مجابة ما كره ربها عز وجل، ونهى عنه في ظاهرها وباطنها.

هل أحصت ذلك كله حتى لم تضع لله عز وجل حقًا، ولم ترتكب شيئًا مما نهى الله عز وجل عنه؟

فإذا تفكر أحدهم في ذلك علم أنه لم يقم بحقوق الله عز وجل كلها في طول عمره ولم يسلم مما كره أن يأتيه بجارحة أو يقرب، وأن القليل من عمله الذي يغتر به تغتوره الآفات التي يفسده أو تحبطه.

فحقوق الله عز وجل عظيمة، والطاعة واجبة، والمعاصي في الظاهر

والهاطن كثيرة التي لا يكاد يسلم منها، والقليل من عمله تعوره الأفات التي تخاطله فتفسده

هذا بالإضافة إلى كثرة الرلل ولخطئ، وغلبة العفلة والنسيان وهناك أيضاً فرقة اعترت بالعزو والحج وقيام الليل وصيام النهار. فقد حيل إلى أحدهم أنه من عمال الله عز وجل، والمشعلين به، والدائين عن محارمه فقد عمى على أحدهم دينه، فهو غير مصحح لمطعمه وملبسه من الشبهات وغير ذلك، وجوارحه منتشرة عليه في أكثر عمره فيما بكره ربه عز وجل، وهو غير متفقد لنفسه لا يخيل إليه أنه ينبغي لمثله أن يتفقد نفسه وإن علم منها ببعض التفريط فإن عليه لما عنده من العبادة والعلم والغزو والحج، وهو مع ذلك غير متفقد للإخلاص فيما يعمل ولا عارف به دون تفقده.

وتنفى غيرها بتفقدتها أنفسها، حتى تعرف أنها كانت مشتعلة بالنواقل عن واجب الحق والقيام بالفرض.

ويجد كذلك فرقة اعالت منها تقديم الحرم لله سبحانه بإخلاص العمل به في كل ما تعمل، والعزم على الرضا والتوكل وما أشبه ذلك، وترك الكبر والعجب وسوء الظن والكذب والعصب وإشفاء العظم عما لا يحل، فلما سخت أنفسها بالعزم على ذلك وبحوه، عدت بنفسها من أهله ولقائمين لله عز وجل به بعزمها على الإخلاص.

فإذا عرص لعمل سهت وعفت فرائث، وتنفى عرتها معرفتها أن الحرم على العمل ليس بالعمل، وأن العزم على العمل أقل مؤنة على النفس من العمل، لأن العزم لا تعب فيه ولا مؤنة على النفس، ولا ترك لذة بعد مقدرة عليها، وأن النفس قد تعزم ثم تصع لعمل كراهه تحمل لمؤنة

والتعب، وقد تعزم على ترك اللذة ثم تواقعها عند الطفر لأن المحتنة عند
 المقدرة أشد على النفس، فليس للعبد أن يحكم لنفسه مثلاً بالحلم إلا عند
 الغضب، أو بالإخلاص إلا عند العمل. وليس له أن يدعى الرضا إلا عند
 الامتحان.

الحسد

«إن الحسد في الكتاب والسنة على وجهين، رهما موجودان في اللغة فأحدهما غير محرم، فبعضه فرض وبعضه فضل، وبعضه مباح وبعضه يخرج إلى انتقص والمحرم.

وأما الوجه الآخر فهو محرم كله، ولا يخرج إلا إلى مالا يحل. والحسد الذي ليس محرم هو لمنقصة، والدليل على أن المنافسة حسد قول الله عز وجل:

﴿وَفِي ذَلِكَ قِتْيَافَسُ الْمُسَافِسُونَ﴾^(١).

وقول النبي ﷺ:

«لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله عز وجل علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس». ونجد في حديثه ﷺ شرحاً لهذا المبدأ، وتفسيراً إذ يقول.

مثل هذه الأمة مثل أربعة:

رجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً، ورجل آتاه الله عز وجل علماً ولم يؤته مالا.

فبقول رب العلم: لو أن لي مثل مال فلان، كنت أعمل فيه بمثل عمله، فهما في الأجر سواء.

(١) المطعمين آية: ٢٦

ويقول رب المال، لو أن لي مثل علم فلان، كنت أعمل فيه بمن عمله».

فذلك هو الحسد لدى هو منافسة، أحب أن يلحق به وغمه أن يكون دونه، لم يحب له شراً.

ويمكن أن تقول عنه: هو أن العبد يرى بغيره نعمة في دس أو دنس، فيعتم ألا يكون أنعم الله عليه بمثل تلك النعمة، فيحب أن يلحق به ويكون مثله، لا يعم من أحسن المنعم عليه منافسة له عليه، ولكن غماً ألا يكون مثله.

ويصبح الحسد حرصاً واجباً إن كان منافسة من العبد لمن يفصله في لقيام بالفروض واحتساب ما نهى الله عنه:

لأنه إن لم يعم ويحزن بخلفه عمن قام بحرص الله عز وجل عليه واجتنب ما نهى عنه، ولم يحب أن يكون مثله كان عاصياً مقبلاً على تصييع الفرائض وركوب المحارم.

والحسد فضل وتطوع إن كان منافسة في التقرب من الله تعالى بالفضل ولتطوع.

والحسد مباح إن كان ما رأى العبد بغيره من النعم يتعلو بلذات الدنيا الحلال

فاغتم أن لا يكون له مثله وأحب أن يلحقه به إلا أن يخرج إلى السخط على الله عز وجل.

غير أن هذه المنزلة من الحسد تعتبر نقصاً من المفضل ومن الزهد

أما إن رأى العبد غيره يتجرع اللذات المحرام، وينفق المال فيما لا يحل

له فاعتم أن لا يكون مشه، وأحب أن يكون مثله فذلك لا يجوز، بل هو ارتكاب للذنوب، لأنه تمى لنفسه الحرام.

والحسد هنا من قيل المنافسة فى الحرام، وإن لم يكن حسد غش وحب للشر وكرهه الخير للغير؛ وفى ذلك بقول للبيهقى رحمته.

«ورجل آناه الله مالا فهو ينهه فى معاصى الله عر وجل، ورجل لم يؤته الله عر وجل مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان كنت أعمل فيه مثل عمله.. فهما فى الوزر سواء».

وفى لوجوه السابعة لى يذكرها المحاسبى من معانى الحسد نجد أن شعور العبد لا يتعدى كرهه التقصير عن سرلة غيره ومحبة المساواه واللعوق به مع ترك التمنى أن يرول عن من ناهسه حاله اشى هو عليها»
ويجب المحاسبى على سؤال عن هذا الحسد الذى هو منافسة مِم يكون؟ فبقول:

ما كان فى الدين فمن حب طاعة الله عر وجل والعزم على القيام بها لو أعطى أسبابها التى لها تنال وما كان من دنيا فمن حبه الدنيا وحب سعتها والعم بها.

وأما المعنى الثانى للحسد، فهو الحسد لمحررم كله، قد دمه الله عر وجل فى كتابه وارسول ﷺ فى سسته واجتمع عناء الأمة عليه.

وهو كرهه العم أن تكون بالعباد، ومحبة رواها، وذلك أن يكون العبد إن رأى بعبد مسلم نعمة فى دين أو دنيا أو بلعة أنها به كرهها وساءته، وأحب زوالها عنه.

ويكون الحسد فى هذا المقام، من الكره والعجب والحقد والعداوة

والبغضاء ولرياء وحب المنزلة والرياسة أن يعلوه غيره وشح النفس بالخير مما يحده العبد على قلبه إذا رأى النعم بعيره.

أما ما كان من لكر فإنه بأنف أن يعلوه من كان دونه أو يساويه أو يعلوه من هو مثله في دين أو دنيا

فإد أنف منه واددراه ورثه دك الحسد له، فأحب أن تروى عنه نعمة الله عز وجل لئلا يصير إلى المنزلة التي يعلوه بها أو يساويه.

ويحمله الحسد له أن يرد الحق حسداً أن يعلوه به فيرفعه عنه

وكذلك الأمر في الحسد الذي يكون على الرياسة وحب المنزلة عند الناس فإنه يورث رد الحق وتركه على علم.

وأما ما كان من الحسد عن الحمد والعدو والبغضاء، فهو أشد الحسد وذلك ما وصفه الله عز وجل عن الكفارة وعداوتهم وبعضهم للمؤمنين فقال،

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ، الْأَنَامِلَ مِنَ الْغِيظِ، قُلْ: مُؤْمِنُوا بِغِيظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، إِنْ تَسِسُّكُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبُّكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾^(١)

وقد يكون عن الحسد الذي عن لعدوة والبغضاء، القتل وأخذ المال، والسعاية بمن يحسده وهتك ستره، وغير ذلك، فالمبعض حسده أعظم الحسد وأشدّه

وأكثر أنواع الحسد انتشاراً بين الناس هو ذلك الذي ينشأ عن حب طاهر الدنيا، كالإخوة يتحاسدون، أو أح يحاسد الأخ عند أبيهما أو أمهما أو

(١) آل عمران آية. ١١٩، ١٢٠

قرايتها، وكان هذا حال يوسف وإخوته، وكذلك التحار وغيرهم
يتحاسدون على مال الدنيا، وكل يجب أن تزول النعم عن غيره.

وكثيراً ما يشأ الحسد بين الناس الذين يقومون بنفس العمل، كالعلم
يحسد العالم ولا يكاد يحسد غيره، وأهل التجارة يسرع الحسد من أهل
كل تجارة إلى من شاركهم فيها، أو بين الناس الذين يعيشون نفس
الظروف، فمن دنا من العبد في القرابة أسرع إليه بالحسد ممن تباعد عنه،
والقرب والجوار يورث الحسد بين المتقاربين والجيران

كذلك يكون الحسد في الأشكال والأمثال، في السب أو في القدر أو في
الغنى أو في التجارة أو في الصناعة أو في الولاية

وأما شح النفس وقلة سخائها بالخير للعباد فذلك شر الحاسدين،
لا يحسد لمعنى عداوة ولا غيرها أكثر من أنه لا تسخو نفسه للعباد بما من
الله عز وجل عليهم، عما يجده على قلبه أن رأى بغيره نعمة لغير عداوة
يعرفها ولا غير ذلك، أكثر من سح نفسه بالخير لهم نعمة منه أن يصل
إليهم الخير.

ويسأل المحاسنى عن الوسائل الكيفية بنفى الحسد المحرم الذى يكره
صاحبه ما يرى من النعم بغيره ويحب رواها عنه، فيجيب سائله

ببسير من الأمر: أن تعلم أنك قد غششت من تحسده من المسلمين
ونركت بصيخته، وشاركت أعداءه - إبليس والكفار - في محبتهم للمؤمنين
زول انعم عنهم وكراهة ما أنعم عليهم به، وأنت قد سحطت قضاء الله عز
وجل الذى قسم لعباده.

فإد علمت ما قد دخل عليك من هذا لصرر العظيم بغير منعة في دين

ولا ديا، صرفك ذلك عن الحسد، إن كنت مؤمناً بالله عز وجل، خائفاً على نفسك من غضبه وعقابه، فلم تتعرض لوجوب غضبه عليك من غير اجترار صنعة في دين أو دنيا صارت إليك، ولا هي إليك صائرة لو زالت النعمة عن من تحسده، لأنها إن زالت عنه لم تصر إليك.

وأبسر من ذلك كله لو كان الذي تحسده أيقض الناس إليك وأشدّهم عداوة لك، أنه لا تزول النعمة عنه بحسدك له، لأن الله عز وجل لو أطاع الحاسدين في المحسودين لما بقى عليهم نعمة.

ولو فعل بالمحسودين ما يحب الحاسدون لهم، لما بقى على النبيين صلوات الله عليهم أجمعين نعمة، ولأفقر الأغنياء لحسدهم لهم، ولأضلّ المؤمنين لحسد الكافرين لهم.

ولو كان يضرب المحسود حسد الحاسد به فيربل عنه بحسده النعم، لدخل عليك أعظم الضرر، لأنك لا تدري أن يحسدك غيرك، فلو كان الحسد يضرب لما بقى عليك نعمة.

فإن أردت أن لا يطيع ربك عز وجل فيك الحاسدين فأنت أهل ألا تحسد عباده، اتباعاً لحبته، وشكراً له على ذلك.

ويضرب المحاسبي مثلاً برجل أراد أن يرمى عدوّه له بحجر، فلما رماه له رجع الحجر على عين الرامي فأصابها.

وأعاد الرمي فرجع الحجر أيضاً على عينه فأصابها حتى فعل ذلك مراراً.

فلم يك هذا بُدّاً ليرمي عدوه، وقد علم وتبين له أنه لا يصيب عدوه وإنما يصيب نفسه.

فكذلك الحاسد قد كان في نعمة قبل أن يحسد من حسده، وهي نعمة السلامة من الحسد. فلما حسد وأحب زوال النعمة عنه، رالت عن الحاسد لنعمة لتي كانت عليه، وهي نعمة السلامة من الحسد.

فأنت معصوم وهو مسرور، فعدبت نفسك بنعيم غيرك بغير منفعة دخلت عليك فأرلت بنفسك لعم بغيرك، وأثمت وتعرضت للعقوبة.

مهل من فرق بين الحاسد وبين الرامي الذي يرجع إليه مارء فيصيبه؟
إن الحاسد أعظم بلاء وضرراً، فهو رجع الحجر على عيك بدل لإثم كان خيراً لك لأن عيك ذاهبة بالموت.

وإثم الحسد لا يبلى ولا يفنى حتى يوقفك الله عر وجل عليه ويسألك عنه



ولا يطلب المحاسبي من لعبد أن يكون طبعه طبع الملائكة، فيسكب تماماً دواعي الحسد في النفس، ويقول:

إنك لا تقدر أن تسكت عدوك إبليس، ولا تغير طبعك

ولم تكلف ذلك أن تجعل طبع نفسك هيئة لا يفعل ولا يسهو ولا ينارع إلى محبوب ولا مكروه.

ولكنه يطلب منه أن يعمل على ترك الحسد إذا رآه بعد إلى قلبه، وأن يكون كارهاً له على الدوام.

أما إذا لم يستطع التخلص منه كية فعليه ببذل الجهد حتى يكون من قبل عقله

كدرها لما يتازعه إليه طبعه، وحتى لا يخرج به الحسد إلى لعمل أو
اقول، وأن يجاهد نفسه ليكتمه في أعماق ضميره.

ويسأل المحاسبي:

فإن ساء في ما رأيت من النعم وتنب ذواها، فيترل به من البلاء
ما يزيلها عنه كالعنى يزول عنه ويتزل به الفقر.

ثم بدت على ذلك، أيكون للمحسود عدى مظلمة يجب التحلل منها؟
فيجيب بقوله:

أما ما كان من عمل القلب ولم تستعمل به جوارحك فذلك ذنب بيبك
وبين الله عر وحل.

فإذا خرجت إلى عيبة؛ أو تكذب عليه أو تغتاله بعائلة تحرمه بها مسقة
فعليك الاستحلال من ذلك، وما أشبهه

وأما ما لم يعد القلب فهو ذنب عظيم، ولرب شيء لا قصاص فيه أعظم
من كثير مما فيه القصاص.

السلوك اليومي

يحدثنا المحاسبى فى مواضع مختلفة من مؤلفاته عن السلوك اليومى الذى ينبغى على المؤمن اتباعه، كما يحدثنا عن الأعمال التى يحب عبه القيم بها، أو تلك التى يجب محاببتها أو الحذر منها

وأرد أن يوحز ويبلور كل هذا مع المهج العملى المناسب له، فأفرد فصلاً خاصاً - فى نهاية كتاب الرعاية له «تأديب المريـد وسيرته وتحذيره الفتنة بعد هدايته»

ويود أن يسرعى اتباعه القارئ إلى الأهمية القصوى التى يلقىها المحاسبى على «النية» فى سلوك المؤمن اـيومى.

يقول المحاسبى: إنه يحب على المؤمن الحذر من اموت فى كل لحظة

قال تعالى ﴿لَهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِي مَآمِلِهَا﴾^(١)

ولذلك كان الرسول ﷺ، إذا نام قال حين يضطجع:

«الهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

خائفاً أن يموت فى مائة، يدعو بالمعفرة إن قصى موته فى مائة، وبالحفظ والتوفيق إن استيفظ حيا».

(١) الزمر آية ٤٢

وكان بعض العلماء إذا أراد أن ينام قال لأهله:

«السلام عليكم يا أهلاه» فودعهم خوفاً أن لا يستيقظ

فحق على المرید الخائف من الله عز وجل، أن لا يأمن بعنة الموت على كل حال، وفي مآمه حين ينام

لذلك وجب عليه قبل النوم أن يعطى لله سبحانه. المدم على ما كان منه، والعزم على التوبة، وأنه إن أصبح حيا احتسب كل ما يكره الله عز وجل، وأدى ما وجب عليه، ورد ما أمكنه من المظالم إلى أهلها من مال أو استحلال في عرض.

فإن مات في مآمه لقي الله عز وجل مغفورا به ذنوبه إن شاء الله وإن أصبح حيا كان عازما على التوبة مهيجا له على الخياء من الله عز وجل وينابع المحاسبي وصيته للمريد فيقول:

فكلما أصبحت حمدت الله عز وجل إذ أبقاك ولم يتوفك في مآمك. كما كان النبي ﷺ يقول إذا استيقظ من مآمه:

«الحمد لله الذي أحباني بعدما ما تنى ولم يتوهى في مآمي»

ثم تأخذ نفسك بالوفاء بالعزم، وتذكرها قرب العهد، وتهيج على الخياء من لرب عز وجل

فكلما تمت جددت العزم وذكرت الموت للعبارة بالنوم، لأنك كالميت وقد ساء الله عز وجل وفاة، وتخاف الله عز وجل أن يتوفاك في نومك

فإذا أصبحت ذكرت انتشار والبعث والعرص على الله عز وجل لأن

الله عز وجل سماه بعثا، وهو شبيه به، ركان لبي ﷺ إذا استيقظ ذكر
انشور فقال

اللهم بك أحياء، وبك أموت، وإليك الشور.

ثم إذا أردت أن تقوم أخذت ثوبك، ثم تأخذ سواك إن أمكنك، فتستاك
توى به طهارة فيك ومرضاة ربك، وتباع سنة نبيك ﷺ.

ثم تتوضأ، فتعسل يديك اتباعا لسنة نبيك ﷺ، ثم توضىء أطرافك
لأداء فرض الوضوء الذي أوجبه عليك ربك عز وجل، تؤدي فرض
الصلاة التي لا يميلها الله عز وجل إلا به، ولقول النبي ﷺ

«لا تقبل صلاة بغير طهور».

ففي هذا دليل على أنها بالطهور مقبولة ممن رحمه الله عز وجل.
فلتلتزم فيك مع أدائك الفرض لأمل وإرحاء أن يقبل الله عز وجل
صلاتك.

فكلما استنشقت أو تمضمضت أو وضأت طرفا من أطرافك، ملت كفارة
ما أصبت من الذنوب بحوارحك كما قال النبي ﷺ.

«إنه يكفر عن العبد المؤمن ما أصاب بمواضع الوضوء من الذنوب»
فإذا فرغت من وضوئك أتيت مسجدك، ونويت بإتيانك المسجد أداء
الصلاة في الجماعة اتباعا لسنة نبيك ﷺ.

فإذا قضيت صلاتك نظرت أيها أفضل وأوجب؛ لزومك المسجد، أو
دخولك منزلك، أو غدرك معاشك، أو لبر واجب أو تطوع، فأى ذلك كان
أولى بك فإنه

فإن دخلت منزلك ركبت الإشفاق أسى وصف لك عز وجل به أوليائه

الذين 'باحهم الله عر وجل حوره، وأدحهم دره، وإد قالوا حيث استقرت بهم الدار:

﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾^(١).

قد اعتبطوا في إسماعيلهم في أهلهم، فالزم قلبك الإشفاق رجاء أن تأمن به في الجنة مع المشفقين من أوليائه، فإن دل أحد منهم بهيمة لمصي أمر الله عر وجل فيهم، بأن يصيهم در حهم لقوله تعالى
﴿فَوَا أُنْسَكُمْ وَهَيْبَكُمْ نَارًا﴾^(٢).

فيل في التفسير: أدبهم وعلموهم.

فإن أردت أن تخرج في حاجة أو إلى سوقك فقدم لبيات قبل خروجك، وإن قدرت أن لا تدع شيئاً ربحاً أن يطيع الله عر وجل في طريقك أو في حاجتك أو في سوقك أن سوى به، فافعل؛ فإن أجرك على قدر بيتك، فكل ما نويت أكثر أن لك الأجر أكثر، فإذا خرجت فانو كلما قدرت عليه مما عكس: من النية، فإن فعلته أحررت على بيتك وعلى فعلك، وإن لم تفعل ذلك أحررت على بيتك.

فإن خرجت إلى سوقك نويت إن مررت ببعض المجالس أن تسلم عليهم، وإن رأيت مظلوماً أن تنصره، وإن رأيت منكراً فاستطعت أن تعيره غيرته وإلا أنكرته بقلبك، وإن مررت بأذى أن تميطه عن الطريق، وتتنوى إن لفت الأصحاب والمعارف أن تسلم عليهم وتسألهم عن حالهم لله عر وجل على قدر أقدارهم ممن تحبه لله عز وجل، أو تمنى به بقرابة أو غير ذلك، نويت أن تسأله عناية منك بأمره، لتؤخر على سلامك

(١) بطور اية. ٢٦

(٢) التحريم آية ٦

وسؤالك وعنايتك به، وتحمد له الله عز وجل، أو للرحم وصدة له، ومن كان يسر بأن تبشر به إن لم تكن تعي به نويت أن تسلم عليه لإدخال السرور عليه.

وكن حذر قبل الاعتراض من الخطرة بدواعي الرياء لأن العدو حين يلقي من سلم عليه يحظر ببالك أنه يستخفك أو يحمذك أو يجهوك إن لم تسلم عليه يسبق إلى قلبك ذلك، فيشغلك أن تحتسب الثواب في سلامك وسؤالك، فتعتقد ما خطر به، فلا تحتسب الثواب في سلامك ولا في سؤالك. فلا تدع أن تنوى بإفشائك السلام على المحاسن في العامة لأجر والثواب، كما أمرك النبي ﷺ حين يقول: «أهشوا السلام بينكم».

وتنوى إن سئلت عن حاك أن تحمد الله عز وجل. فإذا سئلت أجبت بعقل محتسب للثواب، ولا تكن كمن يجيب بغير فهم، ولا احسب لثواب الله عز وجل.

وتنوى أيضًا إن رأيت امرأة أن تغص بصرك، وإن سمعت طو أو معصية لله عز وجل لم تصع إليه، وأن تعتبر بما ترى بعينك وتسمع بأذنيك وتشتم بأنفك، فأنت مأحور على نيتك، فعلت شيئاً من ذلك أو لم تفعله.

وإن كنت تريد أن تأني سوقك نويت أيضًا مع هذه لنيات أن تأني سوقك أو سببًا لمعاشك، صعة أو وكالة أو غير ذلك لطلب الحلال، والاتباع للنبي ﷺ، ولثوب في نفسك وعيالك للإكتساب عليهم، والاستعناء عن لباس، واستعطف على الأح والخار، وأداء الركاة، وكل حق فيه واجب، تأمل بذلك أن تلمى الله عز وجل، ووجهك كالقمر ليلة البدر.

وتنوى الورع في سوقك، وأن تدع كل ربح وأجرة وإصابة تعرض لك

وإن كانت الدنيا كلها إن عرض لك فيها ما يكره الله عز وجل وتنوى الإخلاص في ورعك في تجارتك، إذا ظهر للمشتري منك أو من تشتري أنت منه أو تعامله في صنعة أو غيرها أو وكالة، وتنوى عون المسلم في تجارتك إن استعانك لجأهك أو ببصرك أو بعير ذلك، واعتبارك بأهل السوق وما ترى فيه.

وأن تذكر الله عز وجل في السوق محسباً، لما جاء به الحديث: «إن الله عز وجل يعحب من الذي يذكره في السوق».

وكذلك إن غدوت إلى شىء من تجارتك، أو تقاضى ديك، أو قصاء ما عليك، أو شىء شىء، لأهلك أو بيع شىء تريد بيعه، أو إلى صمغك، نويت كل ما قدرت عليه: بما أمكنك فيه أن تأمن الله عز وجل فيه وترجوه، فإن الله عز وجل معطيك على قدر حسبتك وأملك فيه ورجائك من ثوابه

وكذلك إن أردت الذهاب إلى علم، لم تدع ما أمكنك من الثبة والحسبة في الطاعات، فتعدو وأنت تنوى أن تتبع بذلك أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ، تطلب العلم وما يمعك في ديك، لستدل به على خير أو تنهى به عن شر، وبأمل أن يسهل الله عز وجل لك بدهابك طريقاً إلى الجنة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

وكذلك تأمل أن تضع الملائكة أحنحتها لك رصاً عما تصنع، كما رواه صفوان بن عسال عن النبي ﷺ، ولتزاحم العلماء في خلق الذكر. وكذلك تنوى أن ترتع في روضة من رياض الجنة، كما جاء في الحديث «إذا مررتم برياض الجنة فارعوا قيل. وما رياض الجنة؟»

قال: خلق الذكر.

وكذلك السلام على من تسلم عليه ومسأله على قدر ما أمكنك، وكذلك
 ريادة أخ، أو قضاء حاجة مسلم، أو اتباع جنازة، أو عيادة مريض لا تدع
 شيئاً من النيات، مما جاء به العلم وأمكن أن تؤمل الله عز وجل له،
 إلا نويته واحتسبته ورجوته.

البَابُ الرَّابِعُ

نظرية الزهد والتصوف

- * التوكل.
- * الورع.
- * الزهد.
- * التفويض.
- * الرضا.
- * المحبة.
- * موت المحاسبي.
- * خاتمة.

التوكل

يقتصر الحديث عن النظرية الصوفية لدى بعض الكتاب على وصف المراحل التي يمر بها الصوفي، مشبهاً إياه بالمسافر الذي يعترّب من غايته كما قطع شوطاً في رحلته.

والصوفي كالمسافر، لا يستطيع أن يقطع شوطاً قبل آخر، بل عليه أن يمر بسائر مراحل طريقة الواحدة بعد الأخرى. والمراحل الصوفية تسمى بـ «المقامات».

ويحدثنا كتاب الصوف أيضاً عما يسمونه بـ «الأحوال» وليس هناك اتفاق كامل في الآراء حول الفرق بين «المقام» و «الحال». ولكن المفهوم السائد في غالب الأمر هو أن «المقام» يشير إلى مرحلة تتصف بشيء من الاستقرار ويصل إليها الإنسان بجهد الشخصي، بينما «الحال» يعبر عن ظرف عارض سريع الروال، عن هبة من الله أو فضل أو فيض لا حكم للإرادة الإنسانية عليه في ظهوره أو زوله.

والمقامات محددة في عددها مثلها في ذلك مثل أعمال الإرادة الإنسانية.

أما الأحوال فلا حصر لها، لأنه ليس في استطاعة الإنسان أن يحصى نعم الله.

نبحث عن مفهوم المحاسبي لمسألة المقامات والأحوال؟

إسا لا تعلم عن هذا الأمر عند المحاسبي إلا الشيء اليسير، بل إن

كل ما تعلمه هو ما نقله إيتنا المحويرى من أن «الحال» في رأس المحاسبي «قد يتصف بالدوام»^(١)

وتريد هنا أن نعرض لكل ما تحده في كتابات المحاسبي مما قد يسمى بالمقامات أو بالأحوال، دون أن نتوقف عند التميز بينهما ولكن لما كانت هذه المسائل مشتتة في مختلف مؤلفات صاحبه، فقد رأينا من المفيد أن نعرض بادئ ذي بدء، وعلى سبيل المثال، تصنيفاً للمقامات يقدمه السهروردي في كتابه «عوارف المعارف» وهو يأتي حسب لترتيب التالي:

- ١ - التوبة. ٢ - الورع. ٣ - الزهد. ٤ - الصبر.
- ٥ - الفقر. ٦ - لشكر. ٧ - الخوف. ٨ - الرجاء.
- ٩ - التوكل. ١٠ - الرضا.

وقد نجد أن بعض هذه «المقامات» يرى فيها مفكرون آخرون «أحوالاً» فالسراج مثلاً يعتبر الخوف حالاً، وكذلك الرجاء.

ونحن لا نعثر لدى المحاسبي على ترتيب محدد للمقامات أو الأحوال. ولكننا نعلم أنه، على غرار السهروردي، يجعل الصبر قبل الخوف، والتوكل قبل التفويض.

أما هنا فسوف تتبع ترتيباً مختلفاً بحكم ما سبق أن عرضناه من فكر المحاسبي فبدأ بحديث التوكل، ثم الورع، ثم الزهد والتفويض والرضا؛ وأخيراً: المحبة، ونترك جانباً الموضوعات التي أشرنا في فصول أخرى، كالتوبة والخوف والرجاء.

* * *

التوكل يعيد ثقة المؤمن المطلقة في الله ويقينه بأن ثمة من الأعمال في

(١) عن ترجمة بيكولسون لكشف المحجوب ص ١٧٩

هذه الدنيا لا يغير من مصير المحتوم.

ومن مفهوم يمكن تطبيقه في سائر الأحوال، ويؤمن به المسلمون جميعاً وحديث التوكل في المؤنجات الإسلامية، يشمل دائماً وفي كثير من التفصيل على مسألتى المال والكسب الحلال - هل يتعارضان مع التوكل؟ وإذا وثق العبد في الله وآمن بمصيره، أى أيقن بأنه صائر لا محالة إلى ما قدره له الله منذ لقدم، وأنه تائل بصيبه لمحتوم من الخير أو لشر، ومن الغنى أو الفقر بإرادة الله، وأن العمل قل أو كثير - لن يعبر شيئاً مما سوف يكون، ومما كتبت عليه يد الله من قبل أن يمشىء العالم، إذا أقن المؤمن بذلك كله، فكيف لا يكون سعيه إلى ما ضمنه له الله من رزق نقصاً في العبادة وإهمالاً لحقوق الله؟.

ولقد أثارَت المسألة جدلاً مستفيضاً بين الكثيرين من الصوفية والفقهاء، وكتاب «تلبيس إبليس» يبين مدى ما وصل إليه هذا الجدل من عنف وحدة.

وبريد قبل كل شيء، إيضاح بعض جوانب موقف الإسلام من القضية. إن المال يحتل مكاناً هاماً منصوص القرآن والأحاديث والفقه. ففي القرآن نجد تنظيماً وتشريعاً للميراث. ولأحاديث تكمل نصوص القرآن في ذلك. وكل كتاب فقه إسلامي يتضمن فصلاً مطولاً في الإرث. كذلك نجد في القرآن والأحاديث تشريعاً للزكاة، ولوصية وبصدقة. وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالمال.

اعترف الإسلام إذن بمافع المال وأهمية دوره، فلا غروية في أن يبحث على العمل، وهو وسيلة اكتساب المال وأغلب أصحاب الرسول ﷺ كانوا من دوى لهمز أو لوظائف

ولكن القول بأن للمال أهمية رائدة في المفاهيم الإسلامية خطأ فاحش فالمال، مهما كان أمره، ليس في الواقع إلا جزء من القيم المادية القابلة في الحياة الدنيا، وليسعى لاكتسابه، وإن سمح به الدين وحث عليه بل وأوجبه إلا أنه لا يداني في شيء مسعى الإنسان إلى اكتساب القيم الروحية التي لا تنفني والمنفعة بالعالم الآخر.

وعلمنا أن لا سعى أن الإسلام دين وأن محمداً ﷺ سبي، ولا يمكن أن يكون للدين وللنبي ﷺ هدف إلا ما سماه إلى الله والآخرة. والمال في حد ذاته ليس بذلك، والهدف الحق للإسلام وللنبي ﷺ، نجات الإنسان، ومن أجل هذا كان الاهتمام بالمال منصّباً على تحويله إلى أداة لخير لإنسان وعلى تحويل شهوته، لديته في قلب لإنسان إلى الرأحم والإنفاق في سبيل الله.

وهذا هو السبب لما نجده في القرآن من وعيد متكرر للذين يكثرون اذهب ولفضة، أو الذين بلههم حب المال عن القيام بحقوق الله

ولعل أبا هريرة الذي قيل عنه إنه «أوشراكى في الإسلام» لم يبتعد كثيراً عن المفاهيم الإسلامية، حين كان يحمل في مواعظه على بذخ بلاط^(١) معاوية ويسرف الأمراء، وكان شعاره الآية لقراءة التالية:

﴿يَنَاقِبُ الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْيَارِ وَلِرُفْهَان لِّيَأْكُلُوا أَمْوَالَ
أَسَاسٍ بِالْبَاطِلِ وَيَصْنَعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ
وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

فإنفاق المال في أغراضه الصحيحة لا يمكن أن يكون لاوسلة لبذوع

(١) وكان معاوية أميراً على الشام.

(٢) التوبة، آية: ٣٤.

الأهداف العليا الرفيعة. واستخدامه في أغراض دنيا يؤدي بالإتسار إلى
الانسياق في سبيل الشيطان، ولا بد للإسلام كدين أن يذمّه في هذه الحال
ويعمل لاكتسابه مسموح به، بل هو مطلوب مادام حلالاً.

أما العمل لاكتسابه من غير الطرق الحلال فهو أمر يهيئ عنه لإسلام
في قوة، ويتوعد من يقوم به بشر العقاب في الدنيا والآخرة

ولخلاصه هي أن الله أمر بالنصر والمسي في مساكن الأرض والسعي
في أرحائها لاكتساب المال، وقد ستعده رسول الله ﷺ من الفقر، وقال
ﷺ: اليد العليا خير من اليد السفلى، ولكن ذلك كله مشروط بأن يكون
الكسب حلالاً، وأن لا يتسم بالجشع أو بالחסد أو بالحرمة



ولنعرض الآن، وعلى ضوء ماتقدم، موقف المحاسب من هذه المسألة إنه
يقول في كتابه «المكاسب»^(١).

فأحبر جل ثناؤه بقسمة الرزق بين خفيه، وتولية ذلك في مواضع من
كتابه جل وعز كثيرة، ثم دعا الخلق - سبحانه - إلى التوكل، بعد أن
أعلمهم بكفالاته لهم، وتقسيمه بينهم.

فأوجب حل وعز التوكل وفرصه على الخلق.

فهل نفهم من ذلك أن كل عمل للإنسان سعياً وراء درقه الذي قسمه
الله وتولاه يعتبر في الإسلام نقصاً في التوكل وذنوباً؟

(١) من ١٧٨، ص ١٧٩ تحقيق عبد القادر عطا

يجب المحاسبى على هذا التماؤل بالنفى قائلاً

«فالذى يجب على الدس فى حملتهم من التوكل لمفترض عليهم .
التصديق لله حل وعرف فيما أحبر من قسم وصمان الكهنية وكعالتها من
سياقة الأرزاق إليهم واتصال الأوقات التى قسمها فى الأوقات التى وقتها،
بتصديق تقوم الثقة به فى قلوبهم، وتنفعى به اشكوك عنهم والشبهات،
ويصفو به اليقين، وتثبت به حقائق نعم أنه الخالق لراق المحسى المميت
المعطى المانع المنفرد بالأمر كله.

فإذا صح هذا العلم فى القلوب، وكان ثابتاً فى عقود، لإيمان، تنطق به
الألسنة إقراراً منها بذلك لسيدها، وترجع إلى ذلك باعلم عند تذكرها، وقع
الاسم عليها بالترك.

وعلى أى حال، فإن عامة الناس، إذا حرحوا بالذكر فى وقت الطلب
أدعوا بالقلوب والألسنة أنهم لا يصلون إلى شيء من ذلك بالحيلة، وأن
الحركة غير رائدة لهم فى أنفسهم ولا موصلة لهم إلى الرادة.
والعمل والسعى للرزق ليسا سوى حركات الطبع لذى عليه البينة،
وهذا من خلق الله فى العباد.

وإن لم تزل حركات لطباع وما فى الخليفة من محبة الكثرة وتعجيل
الوقت والتسبب إليه بالأسباب، فم يرل الله سبحانه عنهم اسم التوكل.
لأن ما فى الطباع من الحركة، لا يخرجهم مما أوحى من المصدق لهم،
لأن الله لم يستعبدهم بإرادتها، وإنما استعبدتهم بإقامه الطاعة وأخذ الشيء
من حيث أباح أخذه.

أما ما حرمه الله على العبد من الحركة، فهو التعدى لما أمر الله والتجاوز
لحدوده، وذلك أن الله سبحانه ما فرض التوكل على خلقه، وأباح لهم

الحركة في ذلك، ولما غيب عنهم الفرس من محبة تعجيله، حد للخلق حدوداً في الحركة ومرض عليهم فروضاً أحكمها

فإن حالفوا ذلك ثبتت عليهم بحلقة المحبة، فمن كانت حركاته في طلب الرزق على ما وصفنا كان الله جل وعز بذلك مطيعاً، محموداً عند أهل العلم ولكي هناك من مراتب «الحركة» الإنسانية ما هو «أرفع في الدرجة وأعلى في الرتبة»، فإن السعي للرزق أمر حلال ومحمود، ولكن السعي من أجله مع إحكام فرض التوكل في أصله ولزيادة في العمل بالمعرفة لله، ومع طهارة القلب وإدامة الذكر وكثرة التقرب إلى الله بالتواقل. فذلك: هو حفيضة التوكل ومحكمه، والتعالى في ذروة ما أقيم فيه الأنبياء والصديقون وخواص المؤمنين.

أما لدلائل على أن الحركة في طلب الرزق أمر حلال محمود، فهي كثيرة وفي وحوه عديدة، ونجدها في القرآن والحديث وسنة النبي ﷺ وسير الصحابة.

وفي القرآن نرى مثلاً: ﴿رَحَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

وفي الحديث: ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم.

ويقول الرسول ﷺ، عن نفسه.

«كنت أرى الغنم لأهل مكة بالقراريط».

وفي القرآن قصص لأنبياء كانوا يحترفون مهناً، منهم موسى وداود.

ومن الحديث: «أطيب ما أكل المؤمن من كسبه».

وهو حديث يقول عنه المحاسبى إنه:

لا يدفعه أهل العلم والنقل، ولا أعلمهم يختلفون فيه».

أما الدلائل المستخلصة من سير الصحابة، فيأتى بها المحاسبى بعد فصل طويل فى متداح أخلاقهم، ويبدأ كعادته بذكر الخلفاء الأربعة الأول.

فقد كان من أبى بكر لما استخلف، أن رأى الكسب على عياله أفضل الأعمال وأوصل القرية وأعلى الطاعة.

فمضى إلى السوق متكسباً عليهم، فأدركه أصحاب رسول الله ﷺ وسلم، وكلموه فى ذلك ثم فرضوا له مرضاً رضى به، وإنما كان ذلك لرضى منه حتى يفرغ لأمر مسلمين ويولى أمنهم كل عديته.

وكذلك كان عمر بن الخطاب إذ رأى بعد استخلافه أنه لم بعد يجد من الوقت ما يسمح له بالكسب إلا إذا أهمل الأمانة لى وقعت عليه، فكان يأخذ ما يصفه بقوله:

ثوبين للشتاء والقيظ. وظهراً أحج عليه، وقوت رجل من قريش ليس بأرضعهم، ولا بأرفعهم ولكنه كان مع ذلك يتساءل:

والله ما أدرى أيجل لى أم لا؟

وقد سار عثمان وعلى من بعده على نهج أبى بكر وعمر.

ويررى المحاسبى بعد ذلك قصة عبد الرحمن بن عوف، إذا أخى النسي ﷺ بينه وبين قيس بن الربيع، نعرض قيس على عبدالرحمن نصف ما يملك وكان مال قيس لمال لصامت لدى يرغب فى مثله، ولكن ابن عوف رفض قائلاً:

لا حاجة لي بذلك، دلي على السوق

همضى إلى السوق متكسباً على نفسه ودلي ما عند عبد الرحمن من
فصل الكسب وفصل الحركة لطلب الثواب.

وكذلك يروى عن النبي ﷺ. أطب ما أكل الرجل من كسبه
فأثر عبد الرحمن الكسب على مال طيب، عرض عليه من غيره مسألة
ولا إشراف من نفس.

تلك هي الأدلة التي يسوقها المحاسبي، وقد استخلصها من الكتاب
ولسه وفعل أكابر أصحاب رسول الله ﷺ

ويحتم حديثه عنها بقوله:

والأخبار في هذا والاحتجاج بها كثيرة.

وهيما أوردنا وذكرنا من ذلك كفاية إن شاء الله

والحركة للكسب إذن ليس حراماً، إنها حلال، بل هي فرض على
العباد

والمحاسبي في كتابه، «رسالة المسترشدين» يوصي المؤمن بأن لا يجعل
نفسه قط عالة على الآخرين.

وذلك أن لعبد إذا حصل نفسه في وصاية غيره، فقد حرّيته في لدعوة
إلى الحق منترهاً عن الرياء

وفي وصاياه الخاصة بأسبوك اليومي لعبد، في مختلف مؤلفاته، يهرد
لمحاسبي مكاناً للكسب والعمل

وفي كتاب «الرعية» يتحدثنا مطولاً عن العمل الذي يحبه الله من

العبد، وفي كتاب «المسائل في الزهد» بذكر الحديث التالي للرسول ﷺ .
 «السعى على الارمله والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، الفائم ليله،
 والصائم نهاره».

ويقول المحاسبى :

«فأفضل لأعمال لكل أهل زمان ما كانت عليه لأوائل من تعليم
 اسنى والعطف على أهل العدم، لأن الله الغنى الحميد لا يستفح بطاعة
 ولا تضره معصية، وإنما أمرك بطاعة ليعفك، فأحب الأشياء إليه من طاعته
 ما عاد نفعه على غيرك

بل إن السعى للرفق فرص على المؤمن في كثير من الأحيان وتركه
 ذنب كالسعى في رزق الأب ولأم والروجة ولأولاد المعورين، ألم يقل
 النسي ﷺ :

«كفى بالمرء شراً أن يضيع من يعول»؛

ويعلق المحاسبى على هذا الحديث قائلاً

ولا يكون قول اسى ﷺ ذلك، وهو لا يحب عليه عيبتهم ولا حينما
 تكون عيبتهم تطوعاً منه يتطوع به، لأن الشر بلاء واقع وعقوبة نازلة،
 والله جل ثناؤه لا يعاقب على ترك ما لا يجب.

وعلى أى حال، فلم يختلف لمسلمون في أن مثل هذا السعى واجب
 عليهم.

والمحاسبى لا يكتفى بأن يسوق الأدلة والدفاع عن هذا لرى، وإنما
 يقوم ينقد من يحرمون الكسب.

فيقول: بأن هناك أقوامًا يزعمون أن السعي للرزق يتعارض مع التوكل، وهم في الواقع إنما جهلوا حقيقة السنة وسر الأنبياء في كل زمان مما يرويه لنا القرآن.

فمن ذلك ما زعم شقيق، وذلك أنه قال: لما ضمن الله تعالى الرزق والكفاية، كانت الحركة شكًا في ضمن، فحمل الأمر في ذلك على رأيه، فخالف الكتاب والسنة وما عليه أكابر أصحاب رسول الله ﷺ وحلة التابعين من بعدهم.

ويتابع المحاسبي بعده ليعرف الأخرى لقائمه بعدم لتكسب، وذلك بأسلوب غاية في التشويق، معتمدًا على الكثير من الأدلة وإبراهيم غير ذلك التي ذكرناها فيما سبق، ولذلك لا يرى أن هناك أي مجال للاختلاف حول آراء المحاسبي فيما يتعلق بالكسب.

وكتابه «المكاسب» أدى اعتمادًا عليه أساسًا في بحثنا، قد ألف في فترة متأخرة من عمره بعد بلوغه الرابعة والخمسين.

فهو إذن يعبر عن آرائه في فترة الصوج، بل يمكن القول بأن لأراء التي ضمنها هذا الكتاب هي آراؤه النهائية في الموضوع



وما سبق من العرض يتعلق كله بالكسب في الأرزاق الضرورية للحياة. ولم نتحدث بعد عن موقف المحاسبي من الثراء والبدح، ولنسوف نأتي إلى هذا الموضوع في فصل تال عمده بحثنا في مسألة «الرهء».

ولسحلول الآن النظر فيما إذا كانت الحركة عامة - أو الحدر أو اليقظة أو التدبير - يتعارض شيء منها مع «التوكل».

ولمسألة هي نفس مسألة لكسب، وإن كانت مسألة الكسب أكثر عقيداً. فمن ناحية نحدد الإرادة الإلهية المخالدة عما قدرته من مصير للإنسان لا معبر له، ومن الجانب الآخر نحدد الحركة والعمل من أجل إصلاح ظروف الحياة الإنسانية، ومن أجل محاربة الشر

ولا يريد الإطالة في شرح موقف المحاسبي، ولا نحتاج إلى ذلك. فقد كانت حبه كلها سعيًا إلى إصلاح الإنسان، ومحاولة لتخفيف الشر والنحاة منه، ومؤلفاته تعبر في قوة عن هذا الموقف

وسكتف يذكر بعض النصوص ذات المغرى الواضع من كتابه «الرعاية» يدلنا فيها على المبدأ الذي يحكم موقفه من مثل هذه المسائل عامة.

وفي هذا نص يتحدث المحاسبي عن إبليس ويتنبه القارئ إلى أن إبليس من عناصر الشر التي تدفع إلى ارتكاب السوء، ويحذر منه، ثم يتحدث عن قوم من أهل الشام يرعمون أن الحذر من إبليس لا يصح.

فالحذر لعبر الله عروجن نعص من البهين والتوكل، فأولى الثقة بآله عز وجل واليقين، لأنه لا ضار ولا نافع غيره.

ويرد المحاسبي على هذا القول بأنه غلط؛ فاستبد لا يحذر إبليس إلا لأن الله أمره بذلك؛ والحذر من إبليس لا يكون خوفاً منه، فهو لا يغيرها مما أَرَدَه الله شيئاً وإنما يكون وحباً طاعة لله واتباعاً لأمره فيمن أمر بالحذر منه.

أجل، بل إن الأمر الإلهي بذلك نعمه على العبد وعون له ألم يحذر النبي بأمر ربه من أشياء أقرب إلى البشر من إبليس؟ وهل

كان نقصاً في التوكل 'ن' أطاع النبي كلام الله إذ أمره بأخذ حذره من العدو، وبصلاة الخوف في الحرب؟ وهل كان نقصاً منه في التوكل أن قام بحفر الخندق؟

إن ليقين يعمر القلب بأن الله خالق كل شيء ومحرك كل شيء. ولكنه أمر بأمور طاعتها واجبة، وتركها يزعم أنها نقص في التوكل عليه ليس سوى مخافة لأمره.

فالطاعة إذن هي السبيل الصحيح: «وناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين.

أما التعلق بالأسباب والعلل وعدم النظر إلى غيرها، فذلك الغلط الذي يجب على المؤمن مجانبته.

الورع

وموقف المحاسبى من الحركة لدى الإنسان، يدل على قاعدة عامة عنده
هى:

أن العمل الذى يُزدى إلى الكسب الحلال: حلال،
وهذا يدخله فى مجال الورع. والورع يجب أن يلزم الكسب ويسيطر
عليه.

إلا أنه ليس بالقاصر على الكسب فحسب،
والمحاسبى فى حديثه عن الورع يعمم تطبيقه، وهو يعرف الورع
بما يلى^(١):

«المجانبة لكل ماكره الله عز وجل من مقال، أو فعل، أو قلب أو حارحة
واخذ من تضييع ما فرض الله عز وجل عليه فى قلب أو حارحة.

وينال الورع بالمحاسبة، أى «التثبت فى جميع الأحوال قبل الفعل أو
الترك من العقد بالضمير أو الفعل بالحارحة».

ويشم الورع بأربعة أشياء:

«شيثان واجب تركها، وشيثان ترك أحدهما استبراء، خوف أن يكون
مما كره الله عز وجل والآخر يترك احتياطياً وتحرزاً.

فأما الشيثان الواجب تركها

(١) من كتاب المكاسب

فأحدهما. ما نهى الله عز وجل عنه من العقد بالقلب على الضلال
والبدع، والعلو في القول عليه بغير^١ حق، ولا يعتمد إلا الصواب.
والآخر: ما نهى الله عز وجل عنه من الأحذ والترك من الحرام
بالصمير والحوارج.

وأما أحد الشيثين الآخرين: فترك الشبهات خوف واقعة الحرم وهو
لا يعلم اسبراء لذمه، لسام الورع
وأما الشيء الرابع: فترك بعض الحلال الذي يخف أن يكون سبباً
وذريعة إلى الحرام.

وذلك كترك فضول الكلام لئلا يخرج به ذلك إلى لكذب والغيبة وغيرها
بما حرم الله تعالى القول به.

فهذه الخلة عون على الورع، لا واجب عليه تركها ومجانبتها.
والدليل إلى الحق القرآن والسنة؛ فعلى الناس ترك كل ما حرم فيها
أو كان من المتشابهات

فالورع إذن في تطهير القلب والجوارح.

ولكن على لعبد أن يحذر مكائيد النفس التي «تعطيك الورع» في حال
العدم.

فتزعم أنها تدع ما يكره الله عز وجل حين تعرض لبليل خوفاً من أن
يغضب الله عليك فتستوجب العذاب.

حتى إذا قدرت وامتنحت جاشت لشهوتها، مطلبت ما زعمت أنها
تدعه^(١).

فالورع لا يتبين حقيقة إلا في الامتحان بترك الشهوة مع القدرة، ونية
الورع لا تكفى ليكون الورع.

وينتقد المحاسبي من يقصر الورع على أشياء معينة، مثل:
فرقة لا ترى أنه يجب عليها من الورع في زمانها إلا الورع في غذائها
من الطعام والملبس.

فعسى ببعض الورع أكثر الورع عليها في قلوبها وجوارحها^(١)،
وعذاب الله قد يقع على من لم يخف الله في كل ما كان من الورع حتى وإن
طاب مطعمه.

الزهد

والورع أمر محمود بكل تأكيد، ولكنه ليس سوى مرتبة في سراج القيم الروحية، وتعلوها مرتبة أخرى هي «الزهد».

فمحاسبة النفس لتمييز الحلال الطيب من الحرام أو المشتبه في أمره، عمل لا جدل فيما يعود به من نفع على العبد، ولكن خير منه أن يترك العبد الدنيا.

والدنيا ليست سوى بلاء لا عودة إليه، والانشغال بالدنيا ابتعاد عن الله.

والتححرر من الدنيا وسيلة إلى التقرب من الله والتفرغ لعبادته والدواعي التي تبعث على الزهد كثيرة:

منها أن الدنيا لا قيمة في الحقيقة لها؛ بل إنها لا تسارى عند الله جناح بعوضة، والانشغال بما لا قيمة له أمر لا يقره عاقل.

ويقول المحاسبى لمحدثه في كتاب: «أدب النفوس»:

«عجب أن تحب الدنيا وتشغل بها، وأنت تعلم اليقين أن لا قيمة لها، وتترك من أجلها سبل الصالحين وأهل التقوى، وتبتعد عن صحبة النبي ﷺ في الجنة».

ولو تركت الدنيا لتفوز بصحبه النبي ﷺ لتركت الأفل لتفوز بالخير الأعظم.

وكيف يعقل أن تترك من أجل الدنيا الفانية صحبة النبي ﷺ، خالد في جوار الله، ومن أحبهم الله والرسول؟

ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك، فمما يبعث العبد على الزهد أيضًا: خفة المؤنة، والراحة من عظيم الكلفة، لأنه إذا حل بالزهد حط الكريم عنه في الدنيا مؤنة الرحلة، واسراح من تعب البقرة، وحلب نفسه الطمأنينة^(١).

وهكذا يرى أن المحاسبي لا يدعو إلى الزهد لغرض الرهد في حد ذاته، فهو ليس غاية، وإنما هو وسيلة إلى اثنتين: الاطمئنان في الدنيا والفصل في الآخرة.

ولحدد هنا أن الحرمان من متاع الدنيا ليس هو جوهر الزهد، وإنما جوهر الرهد: التحرر من الدنيا وعدم الخسوع لمتاعها. ولرب مكثر بعد الإكثار مشغول ليس بذاكر ديباه لأن الآخرة قد غلبت على مآه، وهو على ما أعطاه الله من الدنيا شاكراً. ولرب مفل قد ظهر الزهد على طاهر يديه، وقلبه مشغول بالرغبة، فقد استقل كل ما صار إليه من الدنيا^(٢).



بقى علينا بعد هذا أن نجلى مسألتين كانتا مشار مناقشات عديدة، وهما المعلقان بالمطعم والغنى.

أما أولاهما فهي: هل الزهد يتطلب الاقتصار في الطعام على أقل القليل، بل على القدر الذي يقيم الأود فحسب منه؟ إن أساطير كثيرة تروى في هذا المجال وتصور بشكل لا يكاد يقبله العقل مدى ما ذهب إليه المتصوفون في الإقلال من الغذاء.

(١) من المسائل في لزهد وعيره

(٢) من المسائل في الرهد وعيره ص ٤٤، ٤٥

ويقول الرواة معلنين ذلك: «إيه الزهد»، ويلغامن شأن هذه الأساطير - ولا شك في اشتسابها مع ذلك إلى أصل من الواقع - أن غرست في الأذهان فكرة التعمف الرئد في الطعام كمرادف لمفهوم الزهد. وموقف المحاسبي في هذه المسألة موقف وسط متعقل.

ولعرض أولاً لموقفه بشأن قصة الجوع باعتباره غاية في حد ذاته وهو يقدم لها حلاً يبنيه على مبدأ أساسى مبتكر يبلغ الغاية في البساطة، ويسر التطبيق، فيقول: بأن الله فرض فروصاً واضحة محددة لا شبهة فيها، أما النفل فيعرض له كما يلي:

«واعلم أن كل فضيلة نافلة لها شبيه من العريضة مما فرض الله يستدل بها على ما نفل.

فإذا أشكل علينا شيء من أنواع النفل، فلم ندر أفضل هو أم ليس بفصل؟، فانظر في أصول الفرض، فإن كان له في الفرض أصل فهو فصل، وإلا فلا»^(١).

هذا إذن هو الحكم: «كل فضيلة نافلة لها شبه من العريضة فقد رغب الله في صدقة النفل، وقد فرض الزكاة.

«ورغب في الصوم، وقد فرض رمضان، ولم يفرض عليه أى الشئ ﷺ - الجوع ولا العطش، فالذى يبال حوفاً وعطشاً بلا صوم، فليس بمأجور.

ويقطع المحاسبي بقاء على ما أسسه من مبدأ بأن الله لم يفرض الجوع مريضه، ولم يرعب فيه نافلة، إلا أن مجموع «العبد» ليؤثر على نفسه بطعامه أهل المسكنة»^(٢).

(١) من المسائل في الزهد وغيره.

(٢) من المسائل في الزهد وغيره ص ٨٧

فهل يحل الأكل إلى الشبع، وما طاب من الطعام ملء البطون؟
 لقد أخرج المحاسبي الجوع كفاية من الفروض ولنوافل، وهو في هذا
 الشق من المسألة يقف أيضًا موقفًا متعلقًا فيقول في كتاب المسائل في
 الزهد: بأن الطوائع تختلف من الناس، فمنهم من يحتاج إلى الطعام في وقت
 أكله، ويستغنى عنه عند ذلك الوقت في يوم آخر، وربما احتاج إلى طعام في
 حال، ويستغنى عن مثله في غير تلك الحال. ولكن أفضل ما أخذ من الطعام
 ما تحتاج إليه النفس، ليس فيه زيادة ولا نقصان^(١).

ويوصي المؤمن في كتاب «الرعاية» بأن لا يتعفف عن «لأطعمة
 الطيبة» و«يتكلفها» إذا وجد بنفسه ضعفًا عن القيام بالطاعة الواجبة.
 وفي كتاب «المكاسب» نجد التصوص التالية

فمن دعا الناس إلى الجوع فقد عصى الله، وهو يعلم أن الجوع قاتل،
 وقد فعل ذلك بخلق كثير من زوال العقل، حتى تركوا لفرائض.
 ومنهم من يعمد إلى سكين فيذبح نفسه.

ومنهم من يتغير طبعه ويسوء خلقه.

ومن دعا إلى الشبع فقد عصى الله، ولم يحسن أن يطبعه، لأن الشبع ثقل
 على البدن وصلابة عن وعيد الله في القلب، وغلظ في الفهم، وفطور في
 الأعضاء^(٢).

ونصل من هذا أيضًا إلى النتيجة المحتومة، وهي أن أفضل ما أخذ من
 الطعام ما تحتاج إليه النفس، وهو أمر يختلف باختلاف الطوائع.

وهناك أحول يفصل فيها ترك الإنسان لبعض طعامه إيثارة للمسكين
 أو السائل. ولكن المحاسبي يوصي بعدم الجور على النفس حتى في مثل

(٢) من «الرعاية»

(١) من مسائل في زهد ص ٢٢٧

هذه الأحوال، فيعطى العبد فضول الطعام، ويأخذ الأقل من الكفاية ويؤثر بالأكثر^(١)».

ولكن ما هدف الأقل من الكفاية في نظر المحاسبي؟
يجب أن لا ننسى أنه متصوف، وعبادة الله هي الأمر الوحيد الذي يعنيه لذلك يقول.

فأفضل الجوع جوع القانع، وجوع التكلف يفتضح بالشبع، وإن كان في الصوم جوع فإنما معناه الترهيب لله عز وجل، وليسياحة لذلك، وكذلك يروى عن الله عز وجل قال:

الصوم لى، وأنا أجرى به، يدع ابن آدم طعامه وشرابه من 'حلى'^(٢).
وحسباً لهذا الموضوع، نود أن نذكر نصين يعبران حير تعبير عن فكر المحاسبي وليس النصان من كتابات المحاسبي، ولكنها صادران عن أحد أعمدة الصوفية الألداء، وهو ابن الجوزي، في كتابه. «تلييس إبليس».
«لا تأمر بالشبع، ولكننا نحرم الجوع الذي يهلك القوى ويضعف الجسد، فإذا ضعف الجسد ضعفت العبادة»^(٣).

«فإن زهد وآثر اجتناب لشهوات لعلمه بأن الحلال يوجب عدم الإفراط أو أن طيب الطعام يدعو إلى الإكثار ومزيد النوم والكس، عليه بمعرفة ما هو ضار إن تركه وما هو ليس بضر إن أتاه.
وإذن علينا أخذ من الطعام ما يكفي لأن يقيم أوده ولا يضر بجسده»^(٤).

* * *

(١) من المسائل في الزهد وغيره.

(٢) من المكاسب ص ٢٢٢

(٣) ابن الجوزي، تلييس إبليس ص ٢١٦.

(٤) ابن الجوزي، تلييس إبليس ص ١٥١

يعرض المؤلفون عادة لموضوع الغنى في الفصول الخاصة بالتوكل، ولكننا نرى أنه موضوع مرتبط ارتباطاً أوثق بالزهد ولرهد هو ترك الدنيا، فهل هناك معارض أساسى بين العنى؟ نريد أن نعرض أولاً للعنى الذى لا يأتى عن التكسب بالعمل، بل عن الإرث مثلاً. والمحاسبى يميل بعظمه إلى الفقراء، ولكنه لا يذم الغنى دماً مطلقاً، أو على وجه التحديد - هو لا يقطع بالرأى فى هذه المسألة بشكل حاسم.

فالغنى إن استخدم ماله فى الطاعات يعتبر صاحب فضل ومن الصالحين. وطاعه الله هى معيار الحكم على الإنسان، غنياً كان أم فقيراً^(١). بل إن المال نعمة من نعم الله^(٢)

وبالإضافة إلى ذلك، فإن المحاسبى يحصى المؤمنين على «اعطف عن أهل العدم» ومساعدتهم، ويعتبر هذا من خلق الصفة العائزين بالآخرة^(٣)، وهو يبين فضل الصدقة وما ينتج عنها من خير، ولعل النص السالى من «رسالة المسترشدين» يعبر أحسن تعبير عن فكر المحاسبى فى هذا المجال:

«واعلم أن محبة الغنى مع اختيار الله لعبده الفقر تسخط، ومحبة الفقر مع اختيار الله لعبده العنى جور.
وكل ذلك هرب من الشكر لفلة المعرفة، وتصيب للأوقات من قصر العلم.

(١) من كتاب «الرعاية».

(٢) من كتاب «أدب النفوس».

(٣) من «المسائل فى الزهد وغيره».

وذلك أن إيمان الغنى لا يصلحه الفقر، وإيمان الفقير لا يصلحه الغنى. كما جاء في الخبر أن الله تعالى يقول:

إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك

«وكذلك في الصحة والسقم»

فمن عرف الله لم يتهمه، ومن فهم عن الله رضى بقضائه، ولو لم يكن لأهل العلم إلا هذه الآية لكفتهم:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(١) ﴿٢﴾

تقول: إن هذا النص يعبر أحسن تعبير عن فكر المحاسبى، ذلك أنه يرجع بالقضية إلى مفهوم «الرضا»، أى المسرة والقناعة والخضوع في كل ما أَرَادَهُ اللهُ، سواء كان نعمة أو ابتلاء، وصد ذلك كما يقول المحاسبى. يكون «السخط» و «الجور».

وقد يعترض المعترضون بأن المحاسبى رفض تسليم المال الذى استحقه إرثاً عن أبيه، ونحن لا نكر هذا، ولكنه كان يعلل موقفه بأسباب لا تمت إلى مفهوم العنى.

ولكن المحاسبى، وإن كان لا يدم العنى الذى يأتى من مصادر غير الكسب بالعص إلا أنه يضع لذلك شروطاً.

فهو يشرح في «المسائل في الرهد وغيره» ما يجب على الأغنياء من الشكر لله وأداء فروضه في ماله - كالزكاة وغيرها - والإنفاق في سبيله،

(٢) من رسالة المسترشدين ص ١٦٣، ص ١٦٤ أبو غدة

(٣) آية ٦٨ من سورة القصص.

وعدم التعلق بالدنيا حتى لا يكونوا عبيداً للعبيد؛ ثم يوضح أن شرط العبي
الجهوى هو أن يكون الما حلالاً.

وقد يعجب أبعض من أن المحاسبى وهو المفكر المتصوف، الزاهد،
لا يذم الغنى.

والواقع أن انتقاده فى سائر مؤلفاته لا تنصب على الغنى فى حد ذاته
وإنما على سوء استخدام المال والتعلق به، ولكنه وإن كان لا يذم الغنى،
إلا أنه دائماً يميل بعظمه إلى الفقراء، وسوف نعرض فيما بعد لأسباب هذا

أما موقف المحاسبى من الحركة لجمع المال فهو أقل وضوحاً، وهو فى
كتاب «الكاسب» يذكر لنا ابن عوف أنشط الناس وأبرعهم فى جمع
المال - مثلاً ودليلاً على صدق فكره بعرضها، وذلك بعد التقديم لروايته
عنه بفصل مطول فى مناقب أصحاب الرسول ﷺ.

أما فى «كتاب الوصايا» فهو على العكس من ذلك يستقد ابن عوف
ويحمل عليه.

وقد يبدو لنا انتقاده له أكثر عنفاً مما هو عليه حقيقة إن لم نضع فى
اعتبارنا ما كان يكتنه المؤلف من حب واحترام عميق لأصحاب الرسول ﷺ.

وعلى أى حال موقف المحاسبى من ابن عوف، سواء كان بالمديح له
أو بالهجوم عليه، ليس فى الواقع سوى تعبير عن رأيه فى اكتساب المال.
وإننا لنعتقد أن كلا كتابيه - وإن كان أحدهما تقديراً والآخر ذمّاً -
صادق أصيل.

ما السبب إذن فى هذا لتناقض؟

هل هو تحول في الرأي؟

إن الغزالي في حديثه عن هذا الفصل من «كتاب الوصايا» الذي ينقد المحاسبي فيه ابن عوف، يخبرنا أن صاحبه إنما سطره رداً على فرقة من العلماء ذوى الثراء احتجوا تحليلاً لثرائهم بسيرة ابن عوف^(١).

فهل في هذه الرواية السبب الحقيقي لموقف المحاسبي؟

هل أثر سخطه - وهو الذى يؤثر الفقر على الغنى - بكثرة ترداد سيرة ابن عوف؟

هل أصبح اسم ابن عوف إذ يذكر في كل مقال عن المال ولغى ويضرب به المثال في كل أمر يتعلق بهما شبحاً أمام صاحبنا أراد التخلص منه؟

قد يكون ذلك.

وأسلوب المحاسبي في ذكره بكتاب الوصايا يدل على شيء من الغضب، بل إنه أسلوب شديد القسوة لا يتورع عن استخدام العبارات الحارحة والتشبيهات النابية.

إننا لنؤمن بتحول في الرأي لدى المحاسبي، ولكننا نعتقد أن سبب هذا التحول أكثر تعقيداً

ولا نريد أن نقف عند القول الشائع بأن المحاسبي سمع نفسه في كتاب الوصايا، بما لم يسمع به لها في مؤلفاته الأخرى

فقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة إلى ذكره لأحاديث مشكوك فيها أو مختلعة وليس غرضها سوى الحض على محاسن الأخلاق، ولكنه لا يمكن

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٨٩.

أن يكون أساساً للحكم في قضية نعلق بالشرع ونمس أحد أصحاب النبي ﷺ.

إننا نجد السبب الحقيقي في هذا التحول بين رحاب البيئة التي عاش فيها المحاسبي ثم في طبيعة المحاسبي كإنسان كان أهل التقوى في زمانه يهتمون أشد الاهتمام بمسألة طعامهم، يريدونه حلالاً حلالاً، وكان ذلك منار قلق دائم لديهم، يرون الشبهات والحرام في كل شيء فيرداد قنقهم حتى يبلغ بهم كراهة تناول الطعام. ذلك أن أساس التطهر عندهم كان الحلال؛ والأحاديث التي استندوا إليها في هذا عديدة.

والمحاسبي نفسه وصل به الأمر إلى حد القول بأن سائر الأعمال من صلاة وصوم وجهاد وحج مع القيام بالطاعات، كل ذلك لا يقوم «مقام تصفية الخبز»^(١).

كان الحلال في نظرهم أمراً عسيراً مثاله، ويروى عن أبي وثل مسروق أنه قال: إن أهل بيت بالكوفة يوحد على مائدهم رغيف من حلال لأهل بيت غرباء»^(٢).

فكيف كان إذن علاج المؤمنين لهذا الحال؟ وكيف أرادوا السجاة بأنفسهم من الشبهات والحرام؟ «وأما الأكياس فإنهم أخذوا القوت قصداً، ورفضوا ما سوى ذلك. وقد كان الأوزاعي يقول: «اشتبهت الأمور فليس نأخذ إلا القوت»

(٢) من «المكاسب»

(١) من «المكاسب»

وطائفة اختارت المباح من الجبال والأودية والرمال، من ورق الأثل ولقط البدر والحشائش التي لها ثمن إذا ادخرت، فجمعوا منها لصفهم في شتائهم».

«وطائفة اختارت ما ألقته الرياح، وما ظهر من الحشيش والكلأ على وجه الأرض من كلأ الصحراء، إذا اشتد بهم الجوع».

«وطائفة اختارت النبوءة المطروح الملقى».

«وطائفة اختارت المسألة لأخذ القوت منها».

«وطائفة اختارت أن تجمع من اللقاط خلف الحصادين من القمح والشعير».

«وطائفة فنست الورع، فاخارت كد اليد أو ضرب السيف في سبيل الله

ضرب لسيف تحت كل راية، مع كل أمير، بر أو فاجر، وهكذا. وإن ورع هؤلاء الناس في طعامهم قد يكون مبالغاً فيه، ولكنه مهما كان الأمر يدل على مدى إهتمامهم بالحلال وتعلقهم به.

ولم يكن السعي من أجل جمع المال ليحظى بتأييد أهل التقوى في مثل هذه البيئة.

وقد يعترض معترض بوجود تجار أثرياء مع ذلك بين المسلمين. والرد يأتي من المحاسبى في كتاب «المكاسب».

فتجار هذا الزمان كأهم لا يومون بيوم الحساب، من الدخول في كل مالا يجوز، والتسارع إل كل مأثم وإلى كل مالا يجوز من المكاسب، وترك ما تعهدوا به، وركوب ما هوا عنه، لا يتورعون عن مكاسب أموال

الظالمين، ولا يجانبون أهل الرياء، ولا أهل قطع الطريق والسلب»^(١)؛ ثم هو يقول في كتاب آخر:

الدنيا عامة تطلب في زماننا بكل الوسائل: خيراً كنت أم شراً^(٢) ولا نشك في أن هذه الحال التي كان عليها المسلمون قد أثارت لدى المحاسبي تأملات وأفكاراً شتى

ولكن الأمر منها استفحل خطره لم يكن الباعث الحقيقي لغضبه؛ فأهل الورع في المطعم منها بلغ فضلهم ليسوا سوى أهل تطرف والتحار الذين يصفهم، سوف يتحملون وحدهم وزر أعمالهم. أما أساس لبلاء كله ومرتع لشيطان في الدنيا، فقد وجده المحاسبي في المال وتعلق الناس به^(٣).

إنه المال انذى يدفع بالناس إلى التفريط في حقوق الله ويغريهم بالملذات الحرام التي كانت تزخر بها بغداد في ذلك العصر.

غير أن المحاسبي لم ير في بادئ الأمر أن يحمل على التكسب لجمع المال، بل إنه تردد في ذلك؛ ولعله ظن أن في إمكانه علاج هذه الآفة بالتحذير منها، وبيان أسبابها وسبل النجاة.

ولعله أيضاً ظن أن الناس قد يجهلون في مجانبة الأمور التي تبعدهم عن الله إن هو عرفهم بها وبأخطارها.

ويعتقد أن هذا هو السبب الذي دفع به إلى مثل الأبحاث التي نرى خير تعبير عنها في كتب «المرعاة» و«أدب النفوس» و«المسائل في الزهد».

(١) من كتاب «الوصايا».

(٢) من كتاب «المكاسب».

(٣) من كتاب «أدب النفوس».

ثم هو يرى أن الافة مع ذلك باقية، وشرها يستفحل، والبس يطلبون
المريد من الملتذات الحديدية كلما زادت صلاتهم بالحصارات الخارجية، وبغداد
تصبح لسوق العامرة التي يقصدها كل طالب شهوة، فيجد فيها تحقيقاً
لرغباته كلها يشتريها عالة

إن المال إذن أصل الفساد ورأس لبلايا، ويح المحب للديار.
وعندئذ يزول التردد، فيس أمام الصوفي غير طريق الدعوة إلى بحريم
للكسب لجمع المال، أى العنى بوصفه أداة الشيطان للتخريب بالعباد، وقام
بحملته في غير ما تحفظ، واندلع به العصب حتى هاجم في سورتته بن عوف
نفسه ابدى كان من قبل، في كتبه «المكاسب» يصرح به المثل في ائورع
ويصوره قدوة للمسلمين

وكان طبع المحاسبي أيضاً من سياب عصف حمته.
ولقد كان بصوفه يرداد يوماً بعد يوم، ورهده في كل مالا يقربه من الله
بحكم كل فكره، ولذلك نفذ صبره عندما ثبت بديه مدى الشر الذي يسبح
عن جمع المال، مدى تغلق الناس به لإشباع شهواتهم لى تلهيهم عن الله.
وفي غضب بالغ راح يحطم كل ما احتج به أعداؤه، ولم يتورع في سبيل
ذلك عن انتقاد ابن عوف

وبحثم هذا الفصل بمص آخر من كتاب «تيسيس إبليس» لابن
حورى! لا يكاد يهترق في معناه عما يقول به المحاسبي في المال وجمعه.

«لا سكر الخوف من غرائب العنى، ولا سكر أن الكثير من الناس
محبو العنى حشبه فتته، ورأوا أن المال الحلال أقل من اقليل، ويسر أن
عند القلب من شهوة المال، ويسر أيضاً أن يقدر القلب على الاشتغال
بالآخرة مع العنى.

بذلك كان الخوف من إغراءات المال سبب تجنب قدمائنا الاشتغال
بالغنى، ويفضون عليه الاشتغال بالعادة والتفكير والذكر، واكتفوا في دنياهم
بالفيل» اهـ.



ومع كل ذلك فإن الصوفية على بكرة أبيهم يرون أن لأمر الحق هو
قول الله تعالى

﴿لِكَمَلًا نَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(١)

فإذا لم يستعبد الدنيا الإنسان فهو صالح وإن كان من أصحاب الملايين،
أما إذا استعبدته المال فهو غير صالح وإن كان في المال مقل، ولقد كن أبو
لحسن الشاذلي رضوان الله عليه يقول عن الدلائل:

اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا

ويقول، اللهم وسع على رزقي في ديتي ولا تحببني بها عن أخرى
والمال خير وبركة إذ لم يستعمل في معصية الله وهو شر وفساد إذ
ستعمل في معصية الله، وفي هذا فصل المقال.

(١) آية ٢٣ من سورة الحديد

التفويض

«اتوكل» هو الاعتقاد بأن لا شيء يكون إلا بإرادة الله.
و «والتفويض» هو جوهر التوكل، أى أظهر ما يحد العبد في الثقة بالله والتوكل مبعثه ثقة بالله، فإذا ما عمر قلب العبد به انتهى إلى التفويض.

ويحل بالعبد من لتفويض خير كثير في الدنيا والآخرة.
فمن وهبة الله ذلك زالت عنه هموم الدنيا، والخوف من العباد، والطمع فيما في أيديهم، وترك النظر من المؤمن إلى حياته، فهذه راحة لقلوب، وفراغ منها لطاعة الله، ويدل على ذلك قول المصطفى ﷺ لرجلين:
«فوضا أمركما إلى الله تستريحا».

ويستطرد المحاسبى في كتابه: «أعمال لقلوب والحوارج» في تحليل التفويض، فيقول:

«والتفويض عمل نية، لا مؤنة به على القلب والبدن، بل فيه الراحة للقلب والبدن.

وكيف يلحق المؤنة والهم من فوض أمره إلي الله تعالى، وتبرأ من النظر إلى نفسه، أو إلى أحد سوى من فوض إليه أمره؟

لأن من فعل ذلك من أهل الدني، ففوض أمره إلى من اعتقد أنه يقوم به، لمستريح القلب وليدن، قليل الهم والغم، والاهتمام والاحتيا.

فكيف بمن فوض أمره إلى الله عز وجل، الملك الأعلى، الذي لا يكون شيء إلا ما أُرده وديره، ولا يقوته شيء ولا يعجزه شيء.

ومع ذلك فإنه أمر بالتفويض إليه، وضمن للمفوضين إليه لكفايه لما همهم، وإقيام لهم بما فرضوا إليه من أمورهم.

والتفويض من خالص متوكل على الله عز وجل، للثقة به، والمعرفة بسفاد قدرته ورحمته ورأفته.

فالتفويض الإلحاح من قلب المؤمن إلى الله تعالى في الأمور كلها، التي تخاف، وترجا، أو يحتاج إليها من أمور الدنيا والآخرة يوم الحساب.

والمريدون في ذلك رجلان:

رجل اعتقد من قلبه أنه ألجأ أموره كلها إلى الله متبرئاً من الحول والقوة من نفسه ومن الخلق، إلا إلى الله تعالى. ولا ينتظر لطفاً ولا صعاً إلا من عنده، قد طابت رسخت نفسه بـإلجائه الأمور إلى مولاه، وهو مع ذلك على خطر أن يحدعه الشيطان، فيدخل عليه النسيان والعفنة في أنه يملك أمره، ولكنه عجز عنه ملجأً إلى مولاه، فعند ذلك دخل عليه الشيطان من باب من العجب دقيق لا يعطى إليه إلا العلماء الأذكياء.

والرجل الثاني اعتمد في قلبه أنه لا مر له، ولا حول ولا قوة، ولا ملك له محتج أن يلجئه إلى ربه، ولكن ربه مالك نفسه، وجميع أموره، فإلحاحاً معها بتفويضه أمره أنه فوض الأمور التي لا يملكها إلى الله عز وجل. والله مالك كل شيء فالتفويض هنا عام فيقول في نفسه: الأمور كلها لله، بالله يكون وتصرف، فألجأ الأمور كلها إلى الله عز وجل، وأنا منتظر لما يفضي ويعد، أحس الظن به إذ من على بالانتظار لذلك أن يلط

بي، ويظهر إلى، ويحسن إلى، ويختار لي، فلا أمر لي فأفوضه، والأمر كله
لربي، فقد هوضت إليه الأمور كلها، وألجأتها منتظراً لصنعه ولطمه.
ونما قولي: أفوض أمري إلى الله، أي الذي لا أملكه، وإي تسميق
لست أعني بها ملكي، إنما قولي: أمري، معناه: أمري الذي أحتاج إليه من
ملك ربي، لا من ملكي، فهو المالك له.

كقولي: أحتاج إلى رزقي الذي لم أملكه بعد، فكذلك يكون لتفويض.
فهذا الذي لم تدخل عليه أي أغلوطة، ووضع نفسه من العبودية حيث
وضعها مولاه، وأقرده الله بالربوبية، والقدرة، والتدبير لها دون سواء فهذا
الذي يكفيه الله ويختار له.

فإن غلط رجوت أن يتجاوز الله عن غلطه، إذ كان الغالب على قلبه
تفويض الأمور كلها إلى ربه.

والمفوض مكتف مستريح. لم تسمع مولاى بقول يخبر عن قول العبد
لصالح، وكيف فعل به حين فوض إليه أمره فقال:

﴿وَأَفَوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

فقال الله عز وجل:

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَبْئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾^(٢).

ويسأل المحاسبي بعد ذلك عما يال به التفويض لله، فيقول:
بعبير كبير مؤنة في قلب، ولا تعب في بدن، ولا تعليم من أحد،

(١) سورة غافر آية: ١٤.

(٢) سورة غافر آية: ٤٥.

ولا إيمان من مال، ولا عمل من جراحة، إلا المندحاة لله عز وجل
باللسان، بعد اعتقاد القلب.

وهو أن يتمكر المرید المؤمن في صغر قدره في نفسه وما أزيل عنها من
الطلب لشيء من نفسه أو من غيره، إلا ما أعطاه مولاه، ومن عليه به،
فيعقل من صغر نفسه وضعفه ومهانتها وفلة حيلتها، وضعف جميع الخلائق
ومهنتهم، أنهم لا يريدون ولا يحدثون من فعل خير، أو صرف مكروه. إلا
ما دبره المولى الكريم

وينفكر وينذكر، أن الرب هو لقادر وأنه لا إله إلا الذي لا يكون إلا
ما أراد ودبر، وأنه لا يعجزه شيء أرادته وأنه وجميع العباد لا يتناولون حيزاً
إلا من عند ربه. ولا يصرفون عن أنفسهم سوءاً إلا ما صرفه عنهم.

فإذا علم أن الجاهل منه أن ينظر إلى نفسه أو أحد سوى مولاه
لنفسه على ما صنع أو عزم على طاعة أو معاش وقد فوض أمره إلى الله تعالى،
وبرأ نفسه من تدبير شيء من أمره؟

ثم سأل كيف يجوز لعبد طلب معاش أو اهتمام لأمر دينه، أو معاتبة
لنفسه على ما صنع أو عزم على طاعة أو معاش وقد فوض أمره إلى الله
تعالى، وبرأ نفسه من تدبير شيء من أمره؟

فيرد على ذلك بقوله

إن ذلك لا يجمعه أن يعاتب نفسه على تفريطها ويعذرها على ذنوبها،
ساعياً لما أمره الله عز وجل أن يفعل ذلك بنفسه، يعلم أنه لم يصرف إلى ذلك

إلا بتوفيق الله تعالى، الذي فوض أمره إليه، فبِعنه ووفقه إلى عدل نفسه،
وقدر له أن يفعله.

وكذلك إن عزم على أمره في آخرته أو طلب معاشاً يقويه على طاعه
ربه، لم يعزم على ذلك لأن الأمر إليه، ولكن من الله عليه بالعزم على
ما يقرب إلى مولاه من طاعة أو معاش لا تقوم الطاعة إلا به سبحانه.
فهذا قبل أن يعزم يتكلف لعزم، ويعلم أن ذلك التكلف من مولاه، فهو
من به عليه، فإذا عزم عدم أن العزم هو من تقدير الله عز وجل.
وإذا طلب رزقاً أو طاعة فوض إلى مولاه، أن يعدر له ذلك، فإن حطر
له خاطر يدعوه إلى رجاء حيلته، أو تديره، أو معونة أحد من خلق الله،
نقى ذلك، ورجع إلى انتظار المقدور من ربه، فهو في طلبه كأنه ليس يطلب،
لأنه يعتقد ألا يتم له ذلك من قبل نفسه، أو من قبل أحد من خلقه، فهو
لا يركن إلى المخاطر ولا ينفيها إلا بذكر قدر مولاه، وأن الأشياء كلها
بيده^(١).

(١) من كتاب المسائل: ص ١٤٦ - ١٤٧

الرضا

التوكل نتاج الثقة بالله، فإذا ما بلغ أقصى مدارجه كان التفويض؛
ولكن التفويض لا يتعلق إلا بمسقبل الأمور
وإذا ما نظر العبد إلى العذر الذي كتبه الله له، فقد يتخذ موقفاً من
ثلاث:

- الغضب والسخط، وهو مالا يرصاه الإسلام.

- الصبر، وهو في رأى المحاسبي أقل درجات الإيمان الواجب، وهو
يجب على العبد وجوب الورع^(١).

الرضا بما كتبه الله، وهو راحة القلب واطمئنانه إذا نظر العبد إلى
ما أَرَادَ الله له.

ويقول المحاسبي: إن العبد ليس له دم ما قدر له، وخير له أن يرضى
به، فإن لم يستطع إلى الرضا سبيلاً، فأدنى ما يجب عليه الصبر.
وهناك من يعمم معنى الرضا فبطلقه على حال العبد في السراء والضراء.
ولكن المحاسبي لا يرى إطلاقه إلا على حال الرضا في الضراء.
أما قبل أن يتلى الإنسان، فحقيقة ما يجده في قلبه ليست بالرضا وإنما
«نية الرضا».

(١) من أدب النفوس ص ٦٥

وفد سئل المحاسبي عن: «السبيل إلى مقام الرضا» فقال

علم القلب بأن المولى عدل في قصائمه غير متهم، وأن اختيار الله له خير له من اختياره لنفسه، فحيثما ابصرت العقول، وأيقنت القلوب، وعلمت النفوس، وشهدت لها العلوم أن أجرى بشيئة ما علم أنه خير لعبده في اختياره ومحبته، وعلمت القلوب أن العدل من واحد ليس كمثله شيء، فحارست الجوارح من الاعتراض على من قد علمت أنه عدل في قصائمه غير متهم في حكمه، فسر القلب من قصائمه»^(١)

فالرضا هو راحة القلب واطمئنائه، والناس تخدع أحوالهم في الرضا. يقول أهل التصوف المسلمون:

إن العبد الذي أعم الله عليه بالرضا لا يشتهي شيئاً، ولكنهم يقولون - وهذا رأى المحاسبي أيضاً:

إن من تصل الرضا في قلبه قد يطلب فصل ربه ولا يكون في طلبه نفي للرضا.

ويسرد المحاسبي أفضالاً ثمانية قد يطئها لعبد من الله مع الرضا بقصائمه، منها: الشفاء من المرض، أو روال الفقر، وأعاون على بعض ظروف تعوق عن كمال العبادة

ولكن هناك أيضاً من يطوبون من الله أن يريد من ابتلائهم^(٢).

والمحاسبي يرى أن من يسكت على بؤس الأمة الإسلامية محملاً بارضاً، فهو ضال، وأن من يحرم الدواء في حال المرض فهو ضال، وأن من

(١) من حديث الأولياء لأبي نعيم لأصحابه ج ١٠ ص ٨٩

(٢) أوبوسبيس محلة إسلاميكاً ج ٦ ص ٢٨٣ - ٢٨٦

لا يرجو من الله شيئاً فهو ضال، وأن من يكف عن طلب زوال لدنوب وأسيائها فهو ضال.



يقول الهجویری: إن المحاسبي يعتبر الرضا «حالاً» لا «مقاماً»، وهو يعرف الرضا من وجهة نظر احساسی بأنه «راحة القلب» ثم يقول: «ودلك رأى صحيح، فراحة القلب واطمئنائه ليست من الصفات المكتسبة في الإنسان، وإنما هي من نعم الله عليه»^(١).

ولا تتبادل فيما يقرره الهجویری من أن المحاسبي يعتبر الرضا حالاً، وقد يكون ذلك صحيحاً، خاصة أن ذكرنا مرة أخرى ما يقوله الهجویری نفسه: من أن المحاسبي لا ينفي صفة الدوام في الأحوال.

غير أننا نود الإشارة إلى أن حديث المحاسبي عن الرضا لا يبين منه هذا، بل هو يعرض له ضمن «المقامات» وكأنه واحد منها.

ثم إننا نجد في حليه الأولياء - وقد ذكرنا هذا النص - أن سائلاً يسأله: فكيف السبيل إلى مقام الرضا؟

ويجيب المحاسبي على السؤال بإيضاح السبيل دون أن ينفي كون الرضا مقاماً

(١) الهجویری كشف المحجوب، ترجمة بيكولسون ص ١٨٠

المحبة

إن فكرة المحبة بين الله والعباد ليست بالفكرة الغريبة عن الإسلام، بل
إن الكثير من الآيات القرآنية تحدثت عن محبة الله لعباده ومحبة عباده له.

مثال ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، إِذْ لََّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أُغْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وقوله سبحانه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا، وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^(٢).

ونعتقد أنه من هذه الآيات وغيرها، نبع مفهوم الحب الإلهي لدى
صوفية الإسلام

ويقول المحاسبي بأن محبة العبد لله أصلها في محبة الله للعبد:
ولا نجد تعبيراً عن فكر المحاسبي في هذا المجال خيراً من حديثه في
«فصل في المحبة» لدى أورده أبو يعين الأصفهاني في «حلية الأولياء»
يقول المحاسبي:

(٢) البقرة آية: ١٦٥

(١) المائدة آية: ٥٤

إن أول المحبة الطاعة وهي مترعة من حب السيد عروجل، إذ كان هو المبتدئ بها، وذلك أنه عرفهم بنفسه، ودلهم على طاعته، ونحسب إليهم على غناه عنهم، فحصل المحبة له ودائع في قلوب محبيه، ثم ألبسهم النور الساطع في ألباسهم من شدة نور محبته في قلوبهم، فلما فعل ذلك بهم عرضهم سروراً بهم على ملائكته، حتى أحبهم الذين أوصاهم لسكن أطباق سموتهم، بشر لهم الذكر الرفيع عن حليقته، قبل أن يحفظهم مدحهم، وقبل أن يحمدهم شكرهم، لعدم السابق فهم أنه يبلعهم ما كتب لهم، وأحضر به عنهم ثم أخرجهم إلى حليقته وقد استأثر بقلوبهم عبيهم، ثم رد أهدان العلماء إلى الخليفة، وقد أودع قلوبهم خزائن العيوب، فهي معلقة بمواصلة المحبوب، فلما أراد أن يحييهم ويحيى الخليفة بهم أسدلم لهم همهم، ثم أجلسهم على كرسي أهل المعرفة فاستخرجوا من المعرفة المعرفة بالأدواء، ونظروا بمرور معرفته إلى منابت الدواء، ثم عرفهم من أين يهيج الداء ويم يستعينون على علاج قلوبهم، ثم أمرهم بإصلاح الأوجاع، وأوعز إليهم في الرفق عند المطالبات، وضمن لهم إجابة دعائهم عند طلب الحاجات، نادى بخطرآت التبية من عقولهم في أسماع قلوبهم، أنه تبارك وتعالى يقول:

يا معشر لأدلاء، من أتاكم عليلاً من فقدي فددوه، وفاراً من خدمتي فردوه وناسياً لأيدي وعمائي فذكروه.

لكم خاطبت لأنى حلیم، والحليم لا يستخدم إلا العلماء، ولا يبيع لمحبة للباطلين صناً عما استأثر منها، إذ كانت منه وبه تكون.

فالحب لله هو الحب المحكم الرصيد، وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله؛ وشده الأنس بالله، وقطع كل شاعل شغل عن الله، وبذاكار النعم والأيدى، وذلك أن من عرف الله بالجود والكرم والإحسان اعتقد الحب له، إذ عرفه بذلك أنه عرفه بنفسه، وهدهاء لدينه، ولم يخلق في الأرض شيئاً

إلا وهو مسحر له وهو أكرم عليه منه، فإذا أعظم المعرفة واستقرت،
هاج الخوف من الله، وثبت الرجاء.

ويقول المحاسبي في ماهية هذه المحبة:

«فالمحب لله في نفسه استنارة القلب بالفرح لقربه من حبيبه، فإذا
استدار القلب بالفرح استلذ الحلوة بذكر حبيبه

فالمحب هائج غالب، والخوف لقبه لازم لا هائج إلا أنه قد ماتت منه
شهوة كل معصية، وهدي لأركان شدة الخوف، وحل الأنس بقلبه لله
فعلامة الأنس استتقال كل أحد سوى الله، فإذا ألفت الحلوة بمناجاته حبيبه
استغرقت حلوة المناجاة العقل كله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا
وما فيها»^(١).

ويقول:

«وذلك أن الحب إذا ثبت في قلب عبد لم يكن فيه فضل لذكر نس
ولا جان، ولا حنة ولا نارة، ولا شيء إلا ذكر الحبيب وذكر أباديه
وكرمه».

ثم يقول:

«الشوق عندى سراح نور من نور لمحبة غير أنه رائد على نور المحبة
الأصلية والمحبة الأصلية عنده، هي حب الإيمان».

ويقول:

«وإنما يعرف المحب بأخلاقه وكثرة لقوائده حتى يجربها الله على لسانه
يحسن الدلالة عليه، وما يوحى، إلى قلبه، فكلما ثبتت أصول القوائد في
قلبه نطق للسان بفروعها، فالقوائد من الله واصله إلى قلوب محبيه، فأبين

شواهد المحبة لله شدة التحول بدوام الفكر، وطول السهر بسخاء النفس على الأتس بالطاعة، وشدة المبادرة خوف المعالجة والىطق بالمحبة على قدر نور لفائدة، فلذلك قيس: إن علامة الحب لله حلول الفوائد من الله يقوب من اختصه الله بمحبته»^(١) اهـ
ويقول أيضاً:

«أعرب ما يتعرب به العبد إلى الله كل عمل عمه بالإحلاص لله والإشفاق عليه من عدوه.

وإن قل لك فهو القبول إذا كان على حقيقة التقوى معمول، كما قال على بن أبى طالب عمل صايح دائم مع لتقوى وإن قل، وكيف يقل ما يتقبل، وذلك أن المحب لله هو على الركن الأعظم من الإيمان الذى يمكن أن يسكمه العبد ولا يحسن به ادعاؤه، وهو ركن المعرفة بالنعمة، وإظهار الشكر للنعمة»^(٢).

ويقول:

«المنقطع إلى الله عز وجل عن حلقه طاهره طاهر أهل الدنيا وباطنه باطن المجلى الهائى لهم، لأنه صرف قلبه إلى ربه فانسعل بذكر رصاه عن ذكر رصاه حلقه قطاب فى الدنيا عيشه، وبطهر من آتاه، وأمر الخلق بالمنزلة التى أنزلهم رهم عبيد إذ لا يملكون به صراً ولا نفعاً، فأثر رصاه الله على رصاهم، فسحت نفسه بطلب رضى الله، وإن سخط جميع خلق الله يرضى الله بسخط كل أحد، ولا يسخط الله برضى أحد من خلقه، فملاك أمره فى جميع ذلك ترك الاشتغال والتشتت المراقبة الرقيب عليه»^٣

(٣) الحلية جـ ١: ص ٨٦

(١) الحلية جـ ١٠ ص ٧٩

(٢) الحلية جـ ١٠ ص ٨٤

ويقول:

«علامة أهل الصدق من المحبين وغاية أملهم في الدنيا أن تصير أبدانهم على الدوام، وأن تخلص لهم النبات من فسادها، ومنهم من يريد في الدنيا شواهد الكرامات عند سرعة الإجابة، وعناية أملهم في الآخرة أن يسعهم بنظره إليهم، فتعجبها الإسفار وكشف لحجاب حتى لا يمارون في رؤيته، والله ليفعل ذلك بهم إذا استرارهم إليه»^(١)

وكن هناك ما يهدد النور في قلب العبد بالانطفاء.

«وإنما يهيج الشوق في القلب من نور الوداد، فإذا أسرح الله ذلك السراج في قلب عبد من عباده لم يتوهج في فجاج القلب إلا استضاء به، وليس يطمئ ذلك السراج إلا النظر إلى لأعمال يعين الأمان، فإذا أمس على لعمل من عدوه لم يجد لإظهاره وحشة السلب فيحل العجب وتشرذ النفس مع الدعوى، وتحل العقوبات من المولى، وحقيق على من أودعه الله وديعة من حبه فدفع عنان نفسه إلى سلطان الأمان يسرع به السلب إلى الافتقاد»^(٢)

ولخوف والرجاء يجب أن يلازما قلب محب على الدوام خوف لماذا؟ ورجاء لماذا؟

يقول المعاسبي:

خوفاً لما ضيعوا في سالف الأيام لازماً لقلوبهم، ثم خوفاً ثابتاً لا يفارق قلوب المحبين، خوفاً أن يسلبوا النعم إذا صيعوا اشكر على ما أفدهم، فإذا تكرر الخوف من قلوبهم، وأشرقت نفوسهم على حمل نقوط عنهم.

(١) الخلية جـ ١٠ ص ٨٠

(٢) الخلية جـ ١٠ ص ٧٨

هاج الرحاء بذكر سعة الرحمة من الله، هرجاء المحبين تحقيق، وقرباهم
الوسائل، فهم لا يسأمون من خدمته، ولا ينزلون في جميع أمورهم إلا عند
أمره، لمعرفةهم به أنه قد تكفل لهم بحسن النظر^(١)».

موت المحاسبي

قال المحاسبي ساعة موته لمن حوله:
«إن رأيت ما أحببت بسمت لكم، وإن رأيت ما لا أحب وجدتموه على وجهي».

وقال رجل ممن شهدوا موته:
«رأيتَه يبتسم ثم يموت»^(١).

(١) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢١١ ٢١٨

خاتمة

نود أن نعرض هنا للمسائل العامة التي أدى بحثنا هذا إلى تصحيح أو
إصاءة جديدة لبعض جوانبها.
وأولى هذه المسائل تتعلق بالفرق بين التصوف الإسلامي والتصوف
المسيحي.

ويتحدث الأستاذ باستيد R. Bastide عن هذا الأمر في مؤلفه «مشاكل
الحياة الصوفية» *Problemes de la vie Mystique*.

والأستاذ باستيد لم يعكف على دراسة التصوف الإسلامي دراسة
مباشرة متعمقة، غير أن الآراء التي يقدمها في حراءه لن تعد
طريقها للتأثير على قراء غير المخصصين فالمؤلف يقول في معرض
الحديث عن نظرية موريزيه Meunier التي نرى أن لرهد نتج ألبا عن
صعب عضوي معين:

«لا شك أن هذه النظرية صحيحة فيما يتعلق بالأشكال الدنيا من
التصوف وهي صحيحة إلى حد ما بالنسبة للتصوف الهندي وللتصوف
الإسلامي». ثم يستطرد شارحاً فيقول:

«أما المسيحي فهو يحذر، على حد سواء؛ جانبي الإسراف من ثمة أو
صعب ويسعى نحاشي الخلط بين التفاني في التأمل ونوبة الصعب من
الجوع، وما كنت القديسه بريرا ترى من راهباتها هراً لا كانت تحبرهن
على الازدياد من الطعام، فالشيء الذي يجب تجنبه ليس هو العناء

الصحيح ولكنه الشره، والشيء الذى يجب النهى عنه ليس الصوم الشاق ولكنه لكسل»

ونريد أن نوضح هنا أن دفاع الأستاذ باستيد عن التصوف المسيحى أمام نظرية موريزيه، يكاد يكون مطابقاً لفكر المحاسبى الذى لا يختلف فى هذا المجال عن فكر الفديسة تيريرا فيما يتعلق بصحة الإنسان لعامة، فقد كان هذا الصوفى يصبح بالنوم عند لنعب، وينهى عن الصوم عند الضعف، ويوصى بأن يأخذ كل إنسان حاجته من الطعام لئلا يلائم تكوينه البشرى، وكان يقول بأن الدعوة إلى الإكثار من الأكل ذنب، ولكنه يقول بأن الدعوة إلى الجوع هى أيضاً ذنب، وهو يتحدث فى كتاباته عن النتائج الضارة التى ينتهى إليها الجوع، وتؤكد أن نظرية المحاسبى كانت تجنب لسره لا لهى عن لطعام القوى، ولا ابتعاد عن الكسل لا رفض النوم الشاق.



يرى الكثير من المؤلفين أن فكرة وحدة الوجود متشعبة بين عاب الصوفية؛ ولكن ادعاءهم هذا لا يعتمد على تحقيق دقيق للأمر، فالقسيس لامس Lammens مثلاً - فى كتابه «الإسلام» يذكر الأبطاكي، وبشر الحافى، والمحاسبى، وسرى السقطى؛ والترمذى، وأبو يزيد البسطامى، ويقول: إن نظرياتهم تودى إلى فكرة وحدة الوجود ولا نريد هنا أن نناقش ما يراه بالنسبة إلى كل من الصوفية المذكورين الذين كانوا بعيدين كل البعد عن وحدة الوجود، ويكتفى بأن نبيه الفارئ إلى ما فصلناه فيما سبق من أن المحاسبى كان يعارض فى صرامة، هذه النظرية وينتقها فى عطف عفيف.



خصص جولد تريهر Goldziner - في كتابه « عقيدة الإسلام وشريعته
فصلاً للتصوف الإسلامى ».

والآراء المقدمة في الفصل المذكور لا تعتمد على بحث واف، بل هى فى
عتقادنا خاطئة فى غالب ما تذهب إليه ولعل سبب هذا ما نرجحه من
تبني جولد تريهر لأفكار تشيع بها قبل الدراسة العميقة بشأن التصوف
الإسلامى أراد تطبيقها - دون تمييز على كل أهل التصوف الإسلامى.

فإذا ما قلبنا صفحات هذا الفصل وحدا منهجه يتلخص فى تناول
شخصية صوفية معينة تحقق فى بعض نواحي مذهبها ما يرغب المؤلف
إثباته ويخرج من تحليل بعض حواشيها إلى تأكيد النظرية التى يبيعها، ثم
هو يحذر شخصية أخرى يخرج من دراستها إلى رأى تال، ومجموع النتائج
يطلقه فى جرأة على الجميع مثال ذلك أنه ابتداء منصوص لشقيق -
دون أن يذكر اسمه ينطلق إلى تعميم مذهب التوكل، ثم هو يتحد من
جلال لديدن ومن ابن لفارضى مطية لمظريات أخرى يقدمها على أنها من
علائم الفكر الصوفى عامة، ولو اتبعنا منهج جولد تريهر هذا لاستطعنا فى
غير ما عناه جمع نصوص وفيرة تقول عكس ما يدعيه

وفىما يتعلق بأرائه الخاصة بالتأثيرات الخارجية على التصوف الإسلامى،
نكتفى بإرشاد الفارئ إلى كتاب الأستاذ ماسينيون Maseignon
« دراسات ».

وشير بوجه خاص إلى مسألة لتأثيرات الهندية التى أوضح الأستاذ
ماسينيون مداها المحدود الذى لم يكن له وجود قبل القرن الرابع الهجرى
ونريد هنا أن نعرض لما يصفه جولد تريهر بـ « الفكرة المبهرة التى
تتجلى بوصوح فى لتصوف خلال هذا العهد القديم »، وهى « اسوكل ».

والمؤلف يرى أن «التوكل» يمثل الموقف الراعم بأن الثقة في الله تتعارض مع العمل، بل إن العمل دسب، ويمكن القول بأن رأى حولد ترهبر رأى خاطئ إذ ألقى على علالة تعميمًا في المصوف الإسلامي، ولقد عرضنا فيما سبق كيف أن المحاسبى تنتقد شقيقًا في التوكل، ثم كيف أنه لم يكن ينظر إلى التوكل أو حتى إلى التعويض على أنها عكس أن يعوقا الإنسان عن السعى للرق، بل كان يقول بوجود السعى على الإنسان

ولم يكن بالصوفى الوحيد الذى يدعو إلى هذا، فبجانبه وعلى نفس الطريق نرى الترمذى والنسرى والثورى وغيرهم كثيرين، وإذا أردنا مثلاً من عصر لا حق فأمامنا ابن عطاء الله السكندرى

وهناك أمر هام فات جولدترهبر وهو يكذب بطريقة حولد ترهبر تكذيباً صارخاً فيما يتعلق بشقيق نفسه، وذلك أن شقيقاً كان مجاهدًا من كبار المجاهدين، وكان لا يخرج من موقعة إلا إلى موقعة، فكيف يمكن أن يقال: إن شقيقاً يرى تعارضاً بين بين التوكل والعمل؟

وهناك مسائل أخرى خاصة بالنصوف الإسلامى يتعرض لها حولد ترهبر وينهج فيها نفس النهج من التعميم، مثال ذلك التفسير الباطنى للنصوص، ونؤكد أن المحاسبى لم يتجه قط إلى هذا التفسير ولا نجد له أثرًا في مؤلفاته.



عرضنا في فصول كتبنا هذا للأسباب التى أدت إلى رد الفعل الصوفى في عصر المحاسبى، ورأينا أنها كانت تتعلق بالمجتمع وظروفه ولكننا بينا من ناحية أخرى أن المحاسبى كان مسلمًا صادق الإسلام، بل كان من الذين يحرصون على لتعلق بالنصوص وبالتعاليم الأخلاقية لى حرصها

الدين. وفي هذا المجال، نؤيد كل التأيد رأى الأساذ ماسيبور إذ يقول
في كتابه «دراسات»

«من سمات المحاسبي المميزة أنه وهو أبحاث العالم بكل أسرار
المسائل الفقهية - ينطلق في فكره من تصور للتقوى بالغ البساطة بل
هو - في «كتاب الترهيم» يأخذ بأفكار الحشونة في نهاية العالم ومصر
الإنسان...».

والإسلام الذي يتعلق به لمحاسبي في كل أمر ولكل أمر يشمل سائر
جوانب نشاط المجتمع ويحتويها جميعاً سواء في مجال السياسة أو التشريع أو
الأخلاق، أو العلم، فهو يسيطر على كل ما ظهر من هذا المجتمع في حيز
الحياة.

فإذا قلنا من ناحية بأن الأسباب التي تؤدي إلى رد الفعل الصوفي سعلق
بالظروف الاجتماعية، ثم قلنا من ناحية أخرى بأن آراء وموقف الصوفي
الذي اتخذناه موضع بحثنا تحدده وتحددها ظروف مجتمعه، فهل يترتب على
ذلك أن تنتهي إلى القول بأن لتصوف مسألة يختص بها عدم لاجتماع
دون سواء؟

سوف نعرض لهذا فيما بعد:

نحدثنا أيضاً عن التأثيرات الأخيمية، وأكدنا أن لا وجود لها بالنسبة إلى
المحاسبي، ومنهجه في التفسير وتعلقه الشديد بالنصوص لا يسمحان
بالقول بعبر ذلك.

وقد يسأل سائل: ألم تكن هناك تأثيرات أخيمية على أهل التصوف
الإسلامي؟ نحن لا نفى ذلك، فمن المحتمل أن بعض المفكرين تأثروا
بالتيارات الخارجية، كما لا شك أنهم بدورهم أثروا في هذه التيارات، ولكن

لمادا الرغبة الملحة في ربط سائر الصوفية اسلمين بها، وإطلاقها عليهم عامة، بينما المنطق والواقع يدعوان إلى كثير من الاحتياط والتحديد؟

في عصر المحاسبي كاتب الكتب لأحسية المترجمة وهيرة ولكن في هذا العصر عاش رجال من أمثال مالك وابن حنبل لا يمكن بأي حال من الأحوال القول بوقوعهم تحت تأثيرات خارجيه

غير أن بعض الكتاب يريدون فسراً أن نسبتوا تأثير التصوف المسيحي على متصوفي الإسلام، وعلى رأس هؤلاء القسيس لا مس الذي لا يأبه في سبيل تحقيق غايته بأي نص أو سند صحيح وهو يكاد يقول بأن العراقي كان مسيحياً.

وهناك محققون ومستشرقون ما رالو إلى عهد قريب يناقشون مثل هذه الآراء الهريئة بالرغم مما أوضحه الأساد ماسينيون من «دراسته» في جلاء: أن اسمرآن هو مبع انتصوف الإسلامى سواء في عهده الأول أو في مختلف مراحل تطوره.

ونعتقد أن المسألة لم تعرض للأن عرضاً صحيحاً. وهذا سبب الحدل الكثير الذى لم يأت بتدتح يقيمة، فالمؤلفون لا يدرسون شخصيه صوفية بالذات لمعرفة ما إذا كانت رقعة تحت تأثيرات أحسية أم لا، بل هم في غالب الأمر «يسحبون» شخصية يرون أنها قابله لأن تكون سداً لنظرياتهم ومنها ينظلمون في التعميم والتأكيد دون ميالة بما قد يعترض رأيهم الذى تشبعوا به من قبل ثم يعممون الأمر ويطلقون الحكم. لذلك تؤمن بأن المسألة ليست هي «هل هناك تأثيرات أحسية على التصوف الإسلامى، وما هي هذه التأثيرات؟».

لكن: «هل كانت هناك تأثيرات على هذا أو ذلك من أهل التصوف، وما مداها؟».

ذلك هو الوضع لصحيح للمسألة ولن ينكر أحد أن بعض المتصوفين المسلمين وقع تحت تأثيرات خارجية شكّيه تختلف في مصادرها باختلاف كل شخصية.

أجل كانت هناك تأثيرات خارجية على فلاّح و فلان من المتصوفين قلة قليلة تأثرت، لا في الجوهر وإنما في الأشكال.

ولكن الأمر لا يجب أن يقف عند هذا الحد في البحث و لتقصي، ونريد أن نخرج إلى رأى آخر، ألا وهو أن المسألة نفسها - سواء في صيغتها التي عارضناها أو في تلك التي قدمناها - مسألة تعتبر خاطئة لا أساس لها إن أريد بها وصف الصوفية باعتبارهم أهل تصوف، فالجانب المشترك لدى المتصوفين جميعاً غير قابل بطبيعته لأي تأثير

ونحن لا نجادل في أن رجالاً قد تأثروا بتيارات خارجية معينة، غير أنهم تأثروا بها كمؤلفين أصحاب نظريات يتحدثون إلى أهل عصرهم، لا باعتبارهم متصوفين.

وهذا العصر الغير قابل لأي تأثير خارجي، هذا العصر الذي يشترك فيه المتصوفون جميعاً، هو الذي سوف نحاول تحديده وتعريفه، أي أننا نضع على بساط البحث السؤال التالي. ما هو تعريف التصوف؟

* * *

قد نحول بالخاطر بادئ ذي بدء أن التصوف هو القول بوحدة الوجود.

وقد يرد ذكر « لجذب » (Exface)؟ على أنه الحالة الوجدانية التي يعبرها الكثيرون جوهر الصوف، ولا يرى حيراً من حديث ديلاكروا H. Delacroix نسوقه هنا لتحيح هذه الفكرة:

«ظن أغلب علماء النفس أن هذه الحالة هي الميزة للمتصوفين المسيحيين، يعودون إذ يخرجون منها إلى وضع عامة المسيحيين». وأمن بعض علماء الدين على هذا الرأي ولكنه رأى يتعارض في الواقع لأصالة كبار المتصوفين لمسيحيين، هؤلاء «الذين استبدوا الجذب (Exface)، هذا الحال المتقطع الذي لا يدوم يتصوف دائم مساسق، وإن تبدل الشخصية الذي يصلون إليه لا يمكن أن يتأني إلا تدريجياً في مراحل يعتبر الانجذاب أدناها».

ورأى آخرون صعب التعريفات التي تنحأ إلى (نظرية في الإله، أو إلى الانجذاب) فراحوا يحاولون وصف التصوف بأنه «منهج حياة». وقال بهذا مؤرخون للتصوف، كما قال به بعض المتصوفين أنفسهم فالنورى مثلاً يقرر.

«ليس التصوف رسوماً ولا علوماً ولكنه أخلاق» ولكن هناك سؤال يترتب بالضرورة على هذا التعريف، وهو: «أي منهج من مناهج الحياة؟» فالاختلافات كثيرة ولا يستهان بها بين مناهج حياة المتصوفين، ومرجع هذه الاختلافات في غالب الأمر تباين البيئات والأديان، فالروح مثلاً عند المسلمين لا يخجل بحب الله، وجعل متصوفى الإسلام كانت لهم نساء ودرية، وتناول الخمر وأكل وأكل لحم الخنزير يحرمهما الإسلام، بينما يرى المسيحيون أن شرب الخمر في طقوس القربان وسيلة إلى التقرب من المسيح، كذلك استخدم الطيب عند أتقياء المسلمين لا يدرك مغراه الحقيقي بعض الباحثين الغربيين - ومنهم حويدت زهر في حديثه عن التفوى وأمثلة اختلاف مناهج الحياة عديدة، لذلك لا يمكن قصر التعريف للتصوف على أنه «منهج حياة».

وإذن فلا تلمس لدى أهل التصوف وحدة في النظريات ولا تشابه في

السلوك. غير أننا ستخلص من حديث الجميع وسلوكهم أن في قلب كل منهم صراعاً. إنه صراع نتح عن سعيهم إلى منع العرائز من إشباع شهواتها، وعن تطلّعهم إلى التفرّج عن هذه الدنيا، هناك دائماً صراع بين «الروح» - مبدأ الخير في الإنسان - وبين «النفس» - مبدأ الشرفية. وكتاب «بدأ من أناب إلى الله» لمحاسبي يحلّي لنا هذا الصراع المأسوي الذي لا ينتهي في أعماق البشر وكثيراً ما يحدثنا المحاسبي عنه في مؤلفاته. وهو القائل:

«خير الناس معرفة بالله أتعبهم قلباً وأكثرهم همّاً». وليس المحاسبي بالمتصوف الوحيد الذي يحدثنا عن هذا الصراع، ولكنا نتحدّه هنا مثلاً لمتصوف الإسلامى

فإذا ما نحونا إلى التصوف المسيحى لوحدنا الفديسة تریز لا تهدأ من الصراع الداخلى ولا نجد اراحه ويلسم القلوب إلا في لرؤى التي تأتيها، والقديس بولس أيضاً بنوء كاهله بحدة الشهوات فيستصرح في عذابه «من يخلصني من جسد الأموات هدا؟».

ولا عجب أن يكون الصراع أعنف وأشدّ صراوه في التصوف الهسى وهو الذي يبدأ بالقضاء على كل الشهوات.

هذا الصراع الداخلى هو منبع ما سمي بالمقامات الصوفيه، تلك المقامات اننى ليست في الحقيقة سوى مواقف معنّية باسسية إلى الله والقدر والعالم، العرائز تطلب إشباع شهواتها، ولكن في إرضائها ارتكاب للذنب

لذلك وحب بادئ ذى بدء اتحاد موقف حاسم فيه يتعلق بالحلال والحرام وهذا هو الورع - أول المرحل التي يمر بها المتصوفون المسلمون بعد التوبة، ولكن الإسس عبر منزه من الخطأ وقد يصل به الأمر إلى محمل الحرام في كل شيء. ويلهب حينئذ الصرع وشئت عتفاً أهده حلالاً

أذاك حرام؟ كيف السبيل إلى الدين؟ وفي مثل عصره الفاسد وكل عصر إن عاش فيه صوفي فهو في سبيله فاسد - في مثل هذا العصر لابد من الوصول إليها علا الثمن إلى «لرهد في الدنيا».

وهنا نحدد سؤالاً بفرص نفسه علماً «وما هو الزهد؟ أليس هو أيضاً موقفاً معيناً يتخذ تجاه متاع الدنيا؟».

وهكذا سنهي إلى أن ما سمي بـ «المقامات الصوفية» ليس في الواقع سوى مواقف تنتج عن الصراع المذكور.

ثم إن هذا الصراع لا يقتصر على فترة محدودة من حياة الصوفي، إنه صراع دائم، فالكمال غير محدود ومن ظن أنه وصل إليه وحد نفسه أمام درجة أرفع منه يقول الحديث الشريف «لو كان إيمان عيسى أقوى، لطار في السماء بدلاً من أن يمشی على الماء». وغرائر، لإسنان لا يمكن القصاء عليها تمام القصاء؛ فإن اهرمت استكاثت حتى تجد فرصة للتوتب، هذا ما يقول به المحاسبي، أما القديسة تريزا فتعلن أن الشيطان دائم الكيد للروح الساعية إلى الله حتى يعيدها إلى أدنى المدرج التي بدأت منها سعيها.

وإن الشيء الذي يميز صراع الصوفي من غيره هو الهدف الذي يبيعه، هدف الهدف هو النجاة، ولا يحادل أحد في أن مفهوم النجاة يختلف باختلاف الأديان التي ينتمى إليها المتصوفون، وباختلاف الدرجات التي يصل إليها هؤلاء المتصوفون من الثقافة والعلم، فهو قد يكون بالنسبة إلى البعض، نفاً في الحب الإلهي، بينما يجده بالنسبة إلى غيرهم في مرصاه الله، ولكن وحدة الهدف تبقى هي عبر المتغيرات: النجاة

وهناك صور مختلفة للصراع الصوفي.

فإذا ما اشتدت الشهوات وقويت الغرائز ظهر النمط الذي يرسده لنا

أنا تول هراس A France في بافصو شخصية Pannuce. ويريد تأكيد أن بافصو - قبل انهزامه وسيطرة عرائره عليه - كان يسير على هج صوفي، تمامًا كالصانع الذي يتحول إلى فلاح فلا يلغى هذا أنه كان من قبل صانعًا، وفي بعض الأحوال الأخرى يؤدي هذا الصراع إلى الجنون، وحالة الجنون لا يمكن أن يلغى مع ذلك الصفة السابقة لها. والفيلسوف الذي يفقد صوابه لا ينفك يوصف بأنه كان فيلسوفًا.

فهل سمة التصوف اميزة إذن هي أنه صراع؟

لسنا نحى وحدنا بالذين يرون هذا الرأي، بل نعتز بأنه أيضا رأى أحد كبار متصوفى الإسلام وهو السهروردي صاحب «عوارف المعارف». والسهروردي لا ينظر إليه على أنه تعريف معين يسرده بين مختلف ما قيل في تعريف التصوف ولكنه يعتبره شاملا لكل ما قيل

وإلى القارئ نص حديث السهروردي:

وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول، ويطول نقلها، ونذكر ضابطاً يجمع جمل معانيها فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعنى، فنقول:

الصوفي: هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفيه القلب عن شوائب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار يمقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة، وفر منها إلى ربه..

فبدوام تصفيته جميعه. وبحركة نفسه تفرقة وكدره، فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

بِالْفِسْطِ^(١) وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالتصوف
قال بعضهم: التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف.
والسرفيه: أن الروح مجذوبة إلى المحصرة الإلهية، يعنى أن روح الصوفي
متطلعة منحذبة إلى مواطن القرب، وللنفس بوصفها رسوب إلى عالمها،
وانقلاب على عقبها.

ولابد للصوفي من دوام الحركة بدوام الافتقار، ودوام الفرار، وحسن
التفقد لمواقع إصابات النفس، ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى
التصوف جميع المتفرق في الإشارات^(٢).

ولكن ما جدوى هذا التعريف للتصوف؟
إنه يوفق بين مفهومين في التصوف:
أولهما: القائل بأن التصوف ليس سوى نوع من الفردية المتصاعدة.
وثانيهما: المفهوم لاجتماعي للتصوف.
فالصراع الصوفي صراع مردي، لا جدال في ذلك.
بيد أن الإنسان الذي يثور في داحنه هذا الصراع يبقى بعد ذلك
خاضعاً للمؤثرات الدينية والاجتماعية باعتباره صاحب عقيدة ومذهب^(٣).

(١) المائدة: ٨.

(٢) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٨.

(٣) لقد كتب الدكتور عبدالحليم محمود بعد ذلك بسور كتابات مستعجلة عن
التصوف وعن الصوفية، ونشرت هذه الأبحاث في عدة كتب، وكان البحث الذي كتبه
في تعريف التصوف ونشره في كتاب (استد من الضلال) الذي حققه ونشره مع دراسات
عن التصوف من أوفى الأبحاث وأدقها في هذا الشأن.

وبعد: فلعلنا بهذه الرسالة قد ألقينا الضوء على شخصية الصوفي
 الشهير: «المحاسبي» وأبرزنا جوانب فكره الرصين.
 والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله
 وصحبه أجمعين.

محتويات الكتاب

الصفحة

مقدمة ٣

الباب الأول: المحاسبى

البيئة التى عاش فيها المحاسبى ٢٩
التأثيرات الأجنبية ٥٤
الأبحاث الخاصة بالمحاسبى ٦٤
منهجه فى التفسير ٩٢

الباب الثانى: فى العقيدة

مفهوم فكرة الله ١٠١
الله والعالم ١١١
موقف المحاسبى من الفرق ١٢٣
المحاسبى والمذاهب ١٢٧
الفرض والنفل ١٣٨
القيامة فى تصور المحاسبى ١٥٣

الباب الثالث: الأخلاق عند المحاسبى

النظرية الأخلاقية النفسية عند المحاسبى ١٦١
الطبيعة الإنسانية والنجاة ١٦٣

الصفحة

١٦٥	المرشد
١٦٨	الله والعمل الصالح
١٧٠	الخير
١٨٠	مراقبة الذات المحاسبة
١٨٤	مرتكب الذنوب والطريق النفساني إلى النجاة
٢٠٤	الرياء يحبط عمل الخير
٢١٤	عناصر الشر
٥٢٩	آفات النفس
٢٤٦	الغرة
٢٦٢	الحسد
٢٧٠	السلوك اليومي

الباب الرابع : نظرية الزهد والتصوف

٢٧٧	التوكل
٢٩٢	الورع
٢٩٥	الزهد
٣٠٩	التفويض
٣١٤	الرضا
٣١٧	المحبة
٣٢٣	موت المحاسبي
٣٢٤	الحائمة

١٩٩٢ / ٨٧٩٩	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3859-7	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)